

تدمر والتدمريون

منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي

تدمر والتدمريون

تأليف

عدنان البني

وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق

١٩٧٨ م.

هذا الكتاب أعد كأطروحة لشهادة الدكتوراة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة القديس يوسف ببيروت وبإشراف الأستاذ الدكتور نقولا زيادة . وقد ناقشته بتاريخ ١٧ آذار ١٩٧٨ لجنة برئاسة الأستاذ الدكتور قسطنطين زريق ، وعضوية الأستاذ الدكتور نقولا زيادة والأستاذ الدكتور ديمتري براكي والأب الدكتور بوزيه . ونال عليه المؤلف مرتبة الشرف الأولى .

المقدمة

تعود علاقتي الودية بتدمر إلى حوالي ربع قرن ، ففي خريف العام ١٩٥٤ حللت بها لأول مرة موفداً بمهمة رسمية . ومنذ ذلك اللقاء لا يمر عام دون أن أقضي أياماً طويلة في التنقيب بترابها الطيب ورملها النقي . ولقد شدتني بعنف وصرت أسيرها وربط بيننا رباط الدم ، فاني لأحمل من صخرها ندوباً أعتز بها . وقد أسعدني الحظ بأن أكون واحداً من المقربين القلائل الذين باحت لهم بشيء من أسرارها . ولكي أرد لها بعض جميلها ، كان أكثر حديثي وتأليفي في بلادي وفي الخارج عنها . . . ولكنني شعرت منذ حين أن علي واجباً وطنياً وعلمياً هو أن أسد فراغاً بما عرفت عنها بحكم ظروفي ، وأبحث في كل الشؤون التدمرية في القرون الثلاثة الأولى للميلاد ، منطلقاً من الكشف العلمي لا من الأسطورة ، وأتركز على التدمريين أنفسهم الذين بنوا مجد تدمر ، وأنقل لأول مرة حديث حياتهم اليومية ومشاغلهم وهمومهم مستعيناً بما تحت يدي بحكم عملي ودراساتي ، من آثار ونصوص أو مصادر . واني جهدت حتى لا أترك شيئاً من هذا دون الرجوع اليه وقد يكون هذا ميسراً لي أكثر من غيري بحكم المعايشة .

ان بعضاً من كتابي كتبتُ أو حاضرتُ فيه من قبل ، أو عالجته

مختصراً أو موسعاً في بعض المناسبات ولكني في هذه المرة حاولت أن أخرج عملاً متوازناً متكاملاً لايكون حاملاً نظرات جديدة تحليلية في تدمر وأهلها فحسب ، بل متضمناً أيضاً تركيباً ، شاملاً ما أمكن ، المسألة التدمرية من الألف إلى الياء .

وأود وأنا أقدم هذا العمل أن أزجي الشكر العميق لزوجتي وابنتي ولكل من ساعدني بشكل أو بآخر من الأهل والزملاء في دمشق وتدمر وبيروت ، ولعمادة كلية الآداب ومديرية معهد الدراسات العربية بجامعة القديس يوسف .

ويطيب لي آخيراً أن اعترف بجميل وزارة الثقافة والإرشاد القومي التي رغبت أن تكرمني بتبني طبع هذا المؤلف ونشره .

دمشق ١٩٧٧ ،

د. عدنان البني

جدول المختصرات والمصطلحات للمراجع التي يتكرر استعمالها في هذا المؤلف

بني ، الفن التدمري = عدنان البني، الفن التدمري، المجلس الأعلى لرعاية الآداب ، دمشق ١٩٦٢ ، الطبعة الثانية ٩٧٢ .

بني وصليبي ، شلم اللات = عدنان البني ونسيب صليبي ، مدفن شلم اللات، وادي القبور ، تدمر، الحوليات الأثرية السورية، ٧ (١٩٥٧ ص ٥) وما بعدها .

بني وصليبي ، ستة مواقع = عدنان البني ونسيب صليبي ، التنقيب في ستة مواقع جديدة بتدمر ، الحوليات الأثرية السورية ، ١٥ ، (١٩٦٥)

BAALSHAMIN (I-VI) =

P. COLLART et J. VICARI, Le sanctuaire de Baalshamin à Palmyre, I et II, Neuchâtel,
CH. DUNAND, III , 1977
R. FELLMANN, V , 1970
R. FELLMANN, VI, 1975

BOUNNI, TEIXIDOR, Inventaire XII =

A. BOUNNI et J. TEIXIDOR, Inventaire des Inscriptions de Palmyre, XII , Damas, 1975.

CANTINEAU, Inventaire (I-IX) =

J. CANTINEAU, Inventaire des Inscriptions de Palmyre, I-IX, Damas 1930-1936.

CHABOT , Choix =

J.B. CHABOT, Choix d'Inscriptions de Palmyre, Paris, 1922.

C I S, Corpus =

J.B. CHABOT, Corpus Inscriptionum Semiticarum, Pars Secunda, Tomus tertius, Fasc. I, Paris, 1926.

FEVRIER, Essai =

J.G. FEVRIER, Essai sur l'histoire politique et économique de Palmyre, Paris, 1931.

FEVRIER, Religion =

J.G. FEVRIER, La religion des Palmyréniens, Paris, 1931.

INGHOLT, Studier =

H. INGHOLT, Studier over Palmyrensk Skulptur, Copenhague, 1928.

MICHALOWSKI, Fouilles =

K. MICHALOWSKI, Palmyre, Fouilles polonaises 1959,1960,1961,1962,1963/64. A. SADURSKA, Le Tombeau de Alainê, 1977.

MILIK, Dédicaces =

J.T. MILIK, Dédicaces faites par des dieux (Palmyre, Hatra, Tyr) et des thiases sémitiques à l'époque romaine, Paris, 1972.

Recueil =

H. INGHOLT, H. SEYRIG, J. STARCKY et A. CAQUOT, Recueil des tessères de Palmyre, Paris, 1955.

ROSTOVTZEFF, Caravan-Cities =

M. ROSTOVTZEFF, Caravan-Cities, Oxford, 1932, Translated by D. and I. Talbot Rice.

SCHLUMBERGER, Palmyrène =

D. SCHLUMBERGER, La Palmyrène du Nord-Ouest, Paris, 1951.

SEYRIG AS (I-VI) =

H. SEYRIG, Antiquités Syriennes (I-VI), 1934-1966.

STARK, Personal Names =

J.K. STARK, Personal Names in Palmyrene Inscriptions, Oxford, 1971.

STARCKY, Inventaire X =

J. STARCKY, Inventaire des Inscriptions de Palmyre, X , (Agora), Damas, 1949.

STARCKY, Palmyre =

J. STARCKY, Palmyre, Paris, 1952

STARCKY, Supplément = J. STARCKY, Article "Palmyre" dans Supplémen au Dictionnaire de la Bible

TEIXIDOR, Inventaire XI = J. TEIXIDOR, Inventaire des Inscriptions de Palmyre, XI, Damas, 1965.

WIEGAND, Palmyra = TH. WIEGAND, D. KRENCKER, Palmyra, Ergebnisse der Expedionen von 1902-1917, Berlin, 1932

بعض المجلات والمجموعات

AAS, AAAS	: Annales Archéologiques Arabes Syriennes
BMB	: Bulletin du Musée de Beyrouth
CRAI	: Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et belles Lettres
IFB	: Institut Français d'Archéologie de Beyrouth
SYRIA	: Revue de l'Institut Français d'Archéologie de Beyrouth

بعض المصطلحات المستخدمة في الهوامش

cf.	انظر ، راجع .
id, ibid, ibidem	المرجع السابق .
op. cit.	المذكور سابقاً
p. pp.	الصفحة ، الصفحات
PL.	اللوحة
T.	الجزء
V., Vol.	المجلد

★ ★ ★

الفصل الأول

الرحلات والمؤلفات الرائدة

(من القرن السابع عشر حتى الحرب العالمية الأولى)

لم تغب تدمر عن سكان الشرق العربي أبدا . ولكن الغرب في القرون الوسطى لم يكن يعرف عن تدمر إلا مايقع في سمع البعض من ذكريات لمملكة زاهرة بعيدةوملكة باسلةساحرة . إلا أنمن المرجح أن الصليبيين في الشرق ماكانوا يجهلون موقع المدينة دون أن يصلوا إليها. على أن أول رحالةقادمإليهامن الغرب، حسبمابين أيدينامن معلومات : جاء حوالي الربع الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي (الأندلسي بنامين التطلي (*) حوالي العام ١١٧٢) . Benjamin Tudulensis ثم تنقطع أخبار الرحالة حتى مطلع القرن السابع عشر الميلادي، حيث كانت تدمر تختلط مع قصة زنوبيا كالأسطورة التي تأخذ بألباب المتفتحين على الآداب الكلاسيكية في العالم الغربي بعد عصر النهضة ، وفي ذلك القرن اختار أدباء الغرب تاريخ زينب ملكة تدمر موضوعا لمؤلفات أدبية وروايات مختلفة .

ومن ذلك رواية قدمها الناقد المسرحي دوبيناك Fr . d ' Aubignac (١٦٠٤ — ١٦٧٦) الى كورني . وخصص لابروير (١٦٤٥ — ١٦٩٦) لوصف زينب ومجدها ونهايتها ، مقالة حسنة من أبلغ مقالات عصره . ووردت تدمر وملكتها الرائعة في تمثيلية لموليير ، كما استهوت هذه المدينة الاسطورية المغامرين من الاوربين ، في تجارة الشرق ، والراغبين في معرفة الجديد من العادات والتمتع بالشمس والطبيعة الساطعة الآسرة .

واننا لنتقدم فيما يلي سردا تاريخيا لأهم الرحلات والمؤلفات الرائدة

* الإشارات موجودة في آخر الكتاب

التي تتعلق بتدمر وأبرز الأحداث والابحاث حولها وحول آثارها وكتاباتها من مطلع القرن السابع عشر الميلادي وحتى الحرب العالمية الأولى ، علما بأننا لاندعي ، كما لايستطيع أحد أن يدعي ، الاحاطة التامة بموضوع في مثل تلك الصعوبة وذلك الشمول :

١٦١٦ — زار تدمر بيترود للافالي pietro della valle وهو من مدينة نابولي، انسان غريب الأطوار ، تزوج امرأة من ماردين، يحب الترحال ، سافر كثيرا في تركيا وفارس والهند بين ١٦١٥ —١٦٢٥ واجتاز بادية الشام مرتين.وفي المرة الأولى ١٦١٦ زار تدمر (١) وقد نسخ في قرية الطيبة المجاورة لقصر الحير الشرقي الى الشمال الشرقي من تدمر كتابة تدمرية يونانية (وهذه الكتابة موجودة حاليا في المتحف البريطاني بلندن) .

وفي العام نفسه ، ١٦١٦ ، نشر يان غروتر في هايد لبرغ بألمانيا جمعا لكتابات روما ، وعنوانه في اللغة اللاتينية :
Inscriptionum Romanorum Corpus Absolutissimum وأدرج فيه كتابة يونانية منقوشة مع نص تدمري على منحوتة تمثل الربين التدمريين علبول وملكبل (٢) . وقد عثر على هذه المنحوتة في هضبة الجانيكول بروما حيث كان للسوريين معهد خاص بهم (والمنحوتة حاليا في متحف الكابيتول بروما) وقد ظن غروتر أن النص التدمري مكتوب بخط عربي ، كما اعترف آخرون بجهلهم لهذا الخط . وثمة من ترجمه ترجمة مضحكة بقدر ماهي جريئة في تجاوزها الحقيقية (٣) .

١٦٢٥ — زارها مرة ثانية الايطالي النابولي بيترو دللافالي (راجع عام ١٦١٦) .

١٦٣٨ — في هذا العام زارها الفرنسي الرحالة جان باتيست تافرنيه Jean Baptiste Tavernier وأصله تاجر مجوهرات من باريس جعله لويس الرابع عشر فيما بعد نبيلا يعرف باسم بارون اوبون . وقد قام باستكشاف تركيا وفارس خاصة والهند وارتاد خلال ذلك مدينة تدمر (٤) .

١٦٤٤ — وضع المؤرخ جان تريستان وهو بلجيكي (؟) قصة عن حياة زينب أدت الى صنع سجادات جدارية شهيرة (٤مكرر)

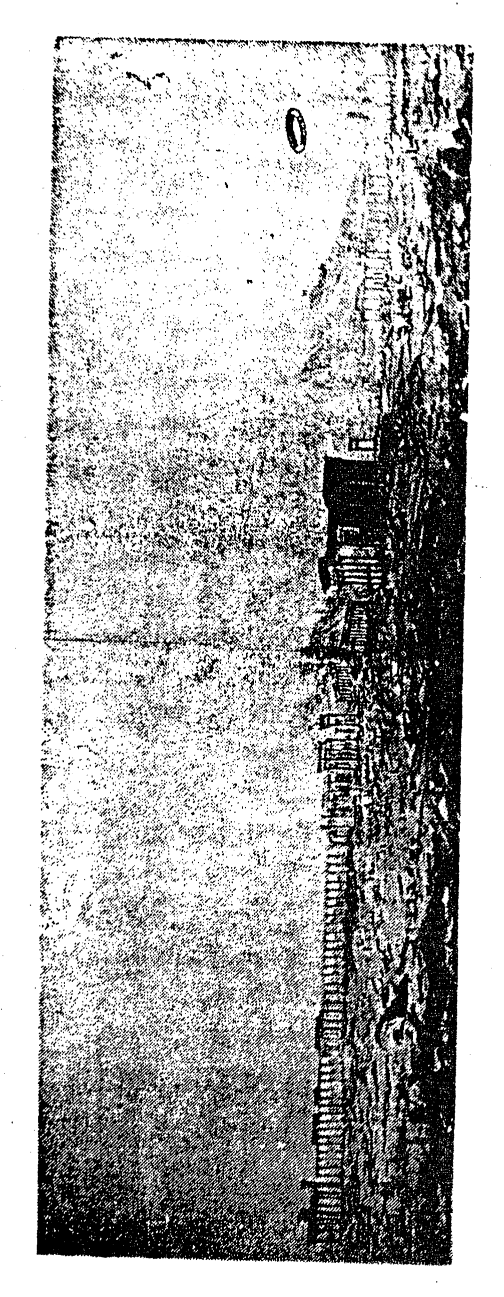
١٦٦٣ — لعل الأب الجزويتي البرتغالي مانويل غودينو Manuel Godinho. مرّ بقربها فهو يتحدث في قلب الصحراء عن بناء جميل بالرخام بأعمدة كورنثية في مكان بالبادية هو على الأغلب تدمر .

١٦٧٨ — في تموز ن هذا العام قصدها جماعة من التجار الانكليز كان لهم مكتب تجاري في حلب وكانوا يسمعون عنها كثيرا . ولكن شيخ تدمر اعتقلهم على مشارفها ولم يطلق سراحهم الا لقاء فدية كبيرة. (وكانت حلب وقتئذ وقبل فتح قناة السويس مفتاح الشرق ومركز الذاهبين والعائدين من الهند عن طريق البصرة . وكان يقال ان التجار في حلب يحسون نبض آسيا من هناك) .

١٦٨٣ — نشر الفرنسي جاك سبون Jacques Spon وهو من مدينة ليون أثرا تدمريا آخر وجد في روما . وهوعبارة عن مذبح عليه كتابة تدمرية تذكر أنه مهدي للرب التدمري ملكبل (وهو حاليا في متحف الكابيتول بروما) . وكان هذا المذبح معروفا من قبل في حدائق ماتي بجي تراستيفريه حيث يظن وجود معبد للأرباب السوريين خارج الباب المعروف باسم بورتا بورتيز (٥) .

١٦٩١ — في تشرين من هذا العام عاود فريق التجار الانكليز في حلب أنفسهم . وعلى رأسهم تيموتي لانوي Timothy Lanoy ابن القنصل الانكليزي بحلب . محاولة زيارة تدمر . ونجحوا هذه المرة اذ سمح لهم بالبقاء فيها أربعة أيام . واستطاع أحد أعضاء الفريق وهو القس وليم هاليفاكس William Halifax نسخ قرابة عشرين نصا من النصوص اليونانية كما نسخ في الوقت نفسه ، نسخا رديئا . ثلاثة نصوص تدمرية . ونشرها مع مذكرات السفر وبعض الرسوم (١٦٩٥ — ١٦٩٧) (٦) وهناك عضو آخر في الفريق هو فنان اسمه ج . هوفستيد G. Hofsted . رسم لوحة تفصيلية ضخمة بالألوان تمثل منظرا عاما لتدمر : من معبد بل حتى قلعة ابن معن ويتوسطها أشخاص بعمائم وقفاطين حسب الزي المألوف آنئذ . وهذه اللوحة معلقة في جامعة امستردام وعليها نص باللاتينية تعريبه مايلي : « أطلال تدمر وقد دبت فيها الحياة . تقدمة من المبجل الرئيس السابق للقضاة في امستردام ج . ف بابنبروك في العاشر من كانون الثاني ١٦٩٣ » .(٧)

١٧٠٥ — زار أطلال تدمر رحالان فرنسيان مخاطران هما جيرو وسوتيه Giraud et Sautet فجلبا منها ثلاثة نصوص . كما رسم لها جيرو منظرا عاما انتقل الى اكاديمية الكتابات والآداب بباريس . وسبب ذلك أن نائب قنصل فرنسا في طرابلس الشام استفاد من وقوع هذين الرحالين في مشاكل مالية ليحصل منهما على تلك الوثائق ويرسلها الى الوزير لويس بونتشارتران Louis Pontchartrain من وزراء لويس الرابع عشر الذي حولها بدوره الى المجمع المذكور . ولا يدرى أحد أين صار الرسم الاصلي . الا أن أحد مشاهير أصحاب مجموعات الرواسم أخذ من ذلك الرسم نسخة ماتزال موجودة في



جزء من المنظر الذي رسمه جيرو لتدمر عام ١٧٠٥ ثم ضاع . وقد عرف من هذه النسخة التي رسمها ماريت عن الأصل عام ١٧٦٣ (صورت لنا بإذن من الاكاديمية الفرنسية) .

مكتبة المجمع الفرنسي Institut de France وهي وثيقة أثرية ثمينة جديرة بالنشر ولكن كبر حجمها حال دون ذلك (٨).

١٧١٠ — زارها كورنيليوس لوس Cornelius Loos وهو من حاشية شارل الثاني عشر ملك السويد وقد ارسله الملك في آذار من هذا العام الى سورية وفلسطين ومصر لرسم آثارها . وقد بقي خلال هذه الرحلة بعض الوقت في تدمر فرسم أوابدها ورفع تلك الرسوم مع تقريره الذي وضعه عام ١٧١١ عن زيارته للشرق . وضاعت بعض تلك الرسوم . وبقي بعضها الآخر محفوظا في مكتبة جامعة او بسالا في السويد(٩) وهذه الرسوم والتقرير لم تنشر أبدا . الا أن البرفسور أندرسن Andersen نشر بعضها في احدى الصحف(١٠) .

١٧١٤ — صدر في باريس كتاب لوبران Lebrun (١١)وفيه وصف لتدمر مع ملاحظات حول الكتابات التي نسخها التجار الانكليز الذين قدموا من حلب الى تدمر . وهذا الوصف هو ترجمة لكتاب أرسله أحد هؤلاء التجار الانكليز الى شخص اسمه برنارد في هاليفاكس انكلترا وقدنشرهذاالكتاب في Philosophical Transactions (١٢).

١٧٣٥ — وفي هذه السنة زار تدمر ووصف آثارها عالم طبيعي فرنسي من ديجون اسمه تورتيشو Tourtechot ويلقب نفسه غرانجيه(١٣) .

١٧٥١ — وفي آذار من هذا العام جرت أول الرحلات الاستكشافية الهامة والمنهجية اذا صح التعبير ، فقد زارها في الرابع عشر منه الانكليزيان الفنان روبرت وود Robert Wood والرحالة الثري المولع بالعمارة الكلاسيكية هنرى داوكنز Henry Dawkins وعدد

كبير من المعاونين الفنيين والمرافقين كما سنرى . وقد بقوا في تدمر خمسة عشر يوما ووضع وود لأوابدها القائمة أول مخطط معروف مع منظر عام دقيق مشروح يشير لكل بناء برقم وفق التسميات المعروفة آنئذ والتي تغير بعضها الآن . هناك علاوة على ذلك رسوم ممتازة لبعض المباني ولوحات لتفاصيلها الزخرفية والمعمارية وقد أخذ وود وداوكنز معهما ثلاثة مذابح تدمرية موجودة حاليا في متحف اشمولين باكسفورد . وقد نشر كل ذلك مع نص عن تاريخ تدمر وآثارها وعن الرحلة في البادية في مؤلف فخم من القطع الكبير صدر بالفرنسية والانكليزية في لندن عام ١٧٥٣ باسم The Ruins of Palmyra (١٤) وهنا خلاصة القسم المتعلق بالرحلة في البادية فهو يعطينا فكرة عن الأسفار ، خاصة رحلات الأجانب في تلك العهود فضلا عما فيه من طرافة ومعلومات تاريخية مفيدة(١٥) :

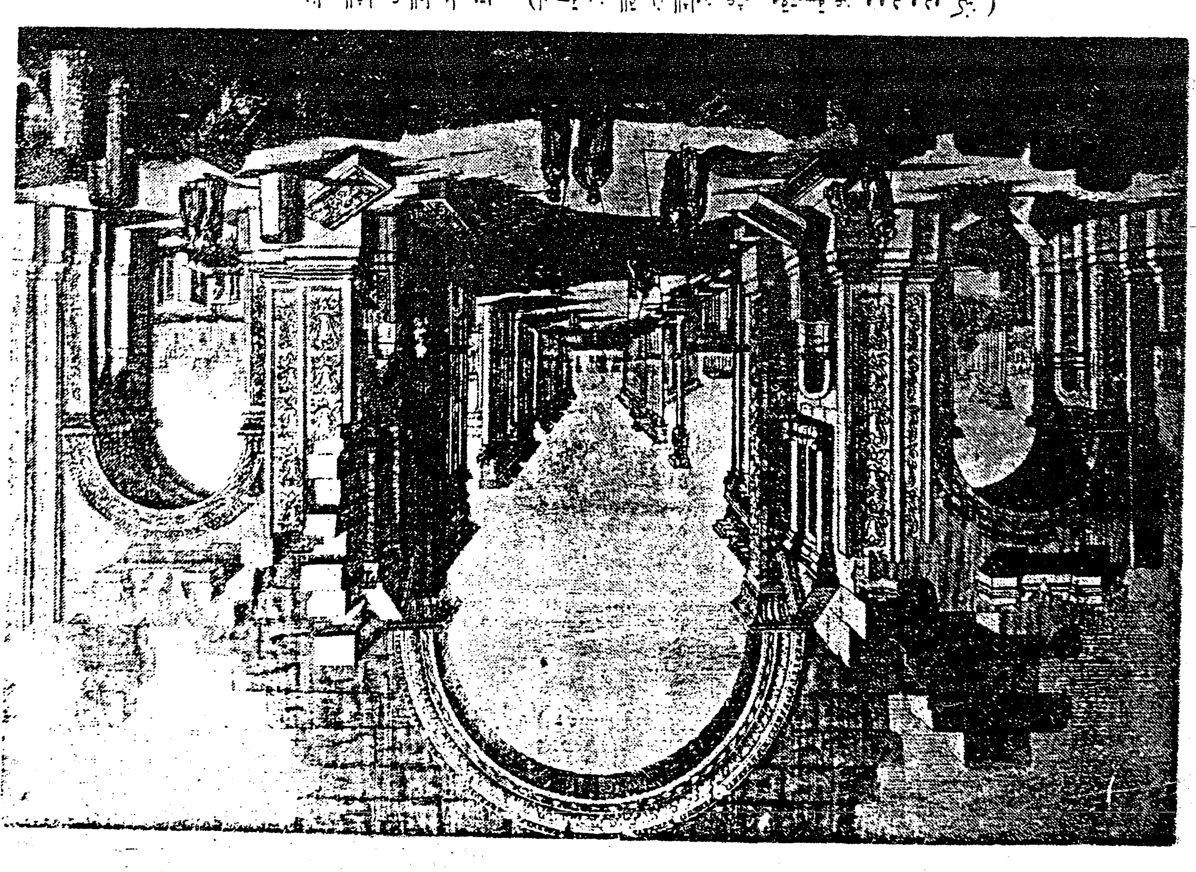
يذكر دوكنز أن باشا دمشق قال لهم انه لايظن أن اسمه أو جاهه كافيان لحمايتهم في طريقهم لتدمر فذهبوا الى حسياء وهي مركز آغا تمتد سلطته حتى تدمر(١٦) فاستقبلهم بكرم الوفادة المعروف عند جميع الطبقات في هذه البلاد . ومع استغرابه لمخاطرتهم وفضولهم دلّهم على أفضل طريقة لارضاء هذا الفضول .

تركوا حسياء في ١١ آذار ١٧٥١ يرافقهم أفضل أرسان الآغا مسلحين بالبنادق والرماح الطويلة . وفي الطريق شاهدوا الغزلان في المراعي ، ثم وصلوا الى صدد وذكر دوكنز أن سكانها من الموارنة وبيوتهم من اللبن ، ولكن نبيذهم الأحمر طيب ، وقد باعهم كاهنها بعض المخطوطات . ثم وصلت القافلة الى حوارين (يذكر دوكنز

... أثرية تركيا وتعليل ذلك معروف) وفيها آثار تدل على أهميتها في
... الجهاد القديم . ثم حلوا في « القريتين » وهي أكبر من حوارين وفيها
بعض الآثار أيضاً .

في القريتين تبدأ استعداداتهم لقطع المسافة المتبقية إلى تدمر وليس
فيها قرية أو مركز آهل . وقد عانوا الكثير من الحر وانحباس الأهواء
وأصبحت قافلتهم تضم حوالي مائتين من الرجال ومثلهم من الخيل
والجمال والبغال والغنم . وكان الأدلاء يحذرونهم من هذه المنطقة ويرسل
الكشافين على الخيول السريعة أمام القافلة . ويذكر دوكنز خلال ذلك
حكايات السمر والقهوة المرة وتلحين « السبيل » وأغاني الحب والحرب الخ .
وتصل القافلة إلى قصر الحير الغربي فيلفت الانتباه افرادها برج القصر وبابه .
وبعد ذلك يعبرون عوقع أبي الفوارس على مشارف تدمر ويرون القناة
التي كانت تروي تدمر ثم تدخل القافلة وادي القبور ظهيرة يوم ١٤
آذار ١٧٥١ .

وهنا يترك الكاتب يحدثنا عن روعة المنظر الذي رآه : « دفعة واحدة
وقع بصرنا على أكبر قدر من الأطلال رأيناه في حياتنا ، وكلها من
الرخام (كذا) الأبيض . ووراء هذه الأطلال باتجاه الفرات يواد
رحبة على مدى البصر ليس فيها حياة أو حركة . يكاد يكون من
المستحيل أن يتصور المرء شيئاً أكثر اثارة للدهشة من هذا المنظر .
ان هذا العدد العديد من الاعمدة الكورنثية مع القليل من الجدران والاوابد
الكئيبة ليحدث في النفس أكبر أثر من الرومانسية عكس توقعه(١٧) .
وقد أحدث هذا المؤلف أثراً كبيراً في أوربا . وسوف يدفع
الكثيرين إلى زيارة تدمر ومحبتها والتعمق في دراسة آثارها وفنها



منظر الشارع الطويل بتدمر (لوحة من القرن الثامن عشر مقتبسة عن وود ودوكنز) .

وتاريخها . وبتأثيره — على ما يرى روستوفتسيف — أطلق أصدقاء كاترين قيصرة روسيا على عاصمتها . سانت بطرسبرغ ، لقب تدمر الشمال تشبيهاً للقيصرة بزنوبيا. ولصق هذا الاسم بعاصمة القياصرة (١٨)

ولعل أهم حدث مرتبط بهذه الرحلة الموفقة هو أن النصوص التدمرية المستنسخة في تدمر والمنشورة مع هذا المؤلف مكنت الفرنسي الأب ج . ج . بارتلمي . J. J. Barthelemy والانكليزي جون سوينتون John Swinton. في وقت واحد ، وكل على حدة غالباً ، من حل الأبجدية التدمرية .

وتفصيل ذلك أنه في الثاني عشر من شباط ١٧٥٤ ، أي بعد عام من نشر المؤلف الذي نحن بصدده ، تلا الأب بارتلمي أمام أكاديمية الكتابات في باريس بحثاً بعنوان : « أفكـــار عن الأبجدية واللغة المستعملتين سابقاً في تدمر ». وهذا البحث لم يطبع الا في العام ١٧٥٩ (١٩). وكان حله للحروف التدمرية كامـــلا . الا أن الانكليزي جون سوينتون الذي وصل إلى نتيجة مماثلة كان قد نشر بحوثه عن تلك الابجدية في خمس رسائل متتابعة طبعت في عام ١٧٥٤ (٢٠) الأمر الذي جعل الفرنسيين والانكليز يتنازعون شرف هذا النجاح . فالانكليز يردون الفضل لمواطنهم ويثبتون ذلك بتاريخ نشر ابحاث سوينتون . والأب بارتلمي يحتج علناً ضد هذا الادعاء . ويرى الفرنسيون أن من المؤكد تماماً أن بارتلمي لم يكن يعرف مطلقاً أعمال سوينتون ، بينما ليس من المؤكد أن سوينتون كان يجهل أعمال بارتلمي (٢١)

المهم أن تفسير الابجدية التدمرية ، من قبل هذا أو ذاك أولا ، أو من قبل كليهما معاً ، قد ساعد على قراءة النصوص التدمرية

المعروفة آنئذ ولم يكن عددها بالكبير . اذ لم تكن تزيد عن ستة عشر نصاً باللغة التدمرية على ما يذكر . ويمضي قرن من الزمان حتى تبدأ النصوص التدمرية بالزيادة كما سوف نرى .

١٧٨٥ — صدر في هذا العام المؤلف الشهير للفنان الفرنسي ل . ف . كاساس L. F. Cassas عن رحلته إلى مصر وسورية (٢٢) وهو كتاب تصوير فيه عن تدمر رسوم غاية في الجمال والأهمية فضلا عن طرافة بعضها ، وقد وصل كاساس إلى تدمر عن طريق حمص فنرى في رسومه تفاصيل مدفن كايوس قيصر المنسوب لآل سمسيغرام ملوك حمص الذي ازيل في مطلع هذا القرن وكان قرب المحطة في حمص ويعرف بالصومعة (٢٣) . ونراه برسم منطقـــة قلعـــة حمص وقد تجمع عليه الناس وتجادلوا في مهمته وفي رسم آخر نرى البدو يهاجمون قافلته، وحراسها متمركزون يدافعون بالبنادق . وفي رسم ثالث نرى كاساس في ضيافة شيخ تدمر مع تفاصيل الجلساء والحياة اليومية والأثاث الخ . .

ومع الرسوم نرى مخططاً عاماً لتدمر ومخططات ومقاطع ومساقط وواجهات للمعبد الكبير مع الكثير من المباني التدمرية فضلا عن المناظر العامة لأطلال تدمر .

١٧٨٧ — نشر في هذا العام الرحالة فولني M. C. F. Volney كتابه الشهير عن رحلته إلى سورية ومصر خلال الأعوام ١٧٨٣ و ١٧٨٤ و ١٧٨٥ (٢٤) ومعه خارطتان ولوحتان لأطلال معبدي بعلبك وتدمر . وفي هذا الكتاب يتحدث عن تدمر وفي رأي البعض أنه لم ير تدمر شخصياً (٢٥) على أنه يذكر في آخر الفصل التاسع المتعلق

بولاية « بشالك » دمشق أن زيارة التجار الانكليز الناجحة لتدمر لاقت كثيراً من عدم التصديق والرفض من الناس ولم يفهموا كيف قامت هذه المدينة (التي تشهد عليها رسومهم) في هذا المكان النائي . ويضيف لكن كتاب أطلال تدمر لـ وكنز وود لم يترك محالا للشك وأصبح من الواجب الاعتراف بأن العالم القديم لم يترك لا في اليونان ولا ايطاليا شيئاً يمكن مقارنته بأطلال تدمر الرائعة . ثم يتحدث عن كتاب أطلال تدمر المذكور ويورد حرفياً قصة رحلة مؤلفيه في الصحراء .

١٨٢٣ — نشر شارل ليونارد ايربي وجيمس مانغلز رحلة في مصر والنوبة وسورية وآسيا الصغرى ذكرا فيها أنهما مرا بتدمر (٢٦) .

١٨٣٠ — نشر جون فولر رحلة لبعض أجزاء الامبراطورية العثمانية زار فيها تدمر . (٢٧)

١٨٣٨ — قام تشارلز . آديسون برحلة في عهد ابراهيم باشا سماها دمشق وتدمر ونشرها في هذا العام مع عشرة رسوم ملونة (٢٨) .

١٨٤٠ — ١٨٤١ — صدر في هذين العامين الجزء الأول والثاني من مؤلف بابستين بوجولا عن رحلة للشرق الاوسط . حل فيها بتدمر (٢٩) .

١٨٤٦ — في هذا العام نشرت أخبار الرحلة الطريفة الشهيرة التي قامت بها المغامرة الجريئة الليدي هيستر ستانهوب Lady Hester Stanhope ابنة أخت رئيس الوزراء البريطاني بت (٣٠)

١٨٤٧ — في هذا العام كشفت شاهدة جنازية منقوشة باللاتينية والتدمرية في القنطرة بالجزائر حيث كانت تعسكر قوة من الرماة

التدمريين حوالي منتصف القرن الثاني الميلادي . كما كشفت في الموقع شاهدة ثانية بعد بضعة سنوات من ذلك .

١٨٥٢ — تلقى متحف اللوفر من قنصل فرنسا بدمشق نقشاً بارزاً من المنحوتات الجنازية التدمرية عليه نص تدمري .

١٨٥٣ — قام المركيز شارل مايكور دو فوغوي (٣١) Charles Melchior de Vogue بزيارة خاطفة لتدمر في هذا العام وسيعود لها مرة أخرى (راجع عام ١٨٦١) .

١٨٥٥ — وفي هذا العام نشر كتاب القس الانكليزي ج . ل . بورتر Porter (٣٢) كتابه « خمسة أعوام في دمشق » وكرس فيه مائة صفحة ونيف لرحلة قام بها إلى تدمر مع زميل له اسمه سميلي روبسون في أول نيسان من عام ١٨٥١ . وقد استغرقت هذه الرحلة عشرة أيام وكان دليله فيها رجل من العنزة اسمه الشيخ عامر ومعه شخص آخر اسمه محمد العجيلي . وكانت رحلتهم عن طريق القريتين . وبورتر جميل الاسلوب ، دقيق الوصف جداً ، لم يترك شاردة ولا واردة في وصف الطريق والناس . خاصة النساء ، والصعوبات التي يلاقيها . الاويورده . وممن يذكرهم الشيخ فارس آغا الجيرودي الذي كان يحرس البادية بين حوران وحسياء من عدوان البدو بمائة وخمسين فارساً (٣٣) . كما يذكر بورتر مبيته في بيوت الشعر مع الفريق الذي يرافقه ومحاولة غزوهم وسلبهم ، وأخيراً أسرهم على مشارف تدمر من قبل محمد المسرب شيخ عشيرة المسرب وشميق مجول الشهير وكانت قيادة زوار تدمر من الاحاب من امتيازاتهما . وانتهى الامر بأن دفع بورتر غرامة ٣٠٠ قرش ذهبي وعقد اتفاق

بين الشيخ عامر الغزي . مرافق بورتر ، ومحمد المسرب على التعاون في قيادة السواح ، بحيث تتولى العنزة الأمر من دمشق للقريتين والمسرب من القريتين لتدمر . وقد حرص محمد المسرب على أعلام الخواجة حنا مسك ترجمان القنصلية البريطانية بدمشق بأن « كل انكليزي آمن في بادية تدمر كما لو كان داخل مدينة دمشق . »

ويكرس بورتر حوالي ثلاثين صفحة لوصف أطلال تدمر ويلفت النظر إلى بعض تفاصيل معمارية في مدفن ايلابل مغايرة لما ذكره وود ودوكنز في مؤلفيهما قبل مائة عام . ولا يترك بورتر شاردة ولا واردة من تاريخ تدمر ولغتها ورجالها وعن شيخ تدمر الجسار الله الذي رآه مـرة واحدة ولكن أخاه فارس بقي ملازماً لهم كظلهم حتى حصل منهم على موسى انكليزية لقاء رأس تمثال .

وأخيراً نشر بورتر في كتـابه مخططاً لتدمـر اقتبسه من وود ودوكنز وشكلا لداخل الطابق الأرضي من مدفن ايلابل ومقطعاً للقناة المعروفة بآبار العمي .

١٨٦٠ - في هذا العام تم العثور على أثر تدمري جديد في روما . وفي هذا العام أيضاً نظم الكونت لويس دو سيغور Louis de Segur رحلة الى سورية لأمراء آل اورليان في فرنسا وعميدهم كونت باريس(٣٤) ولنصغ الى الأديب هنري بوردو وهو يحدثنا عن هذه الرحلة(٣٥): « إن هؤلاء الحجاج البارزين أبحروا من تريستا في ٢٧ تشرين الثاني ١٨٥٩ .... وتركوا القدس ليدخلوا سورية عن طريق طبريا وحوران في نيسان ١٨٦٠ ؛ وسارت بعثتهم الصغيرة دون عائق ، فالأتراك كانوا دوما مجاملين جداً للاجانب . وفي ذلك تكتيك بارع يمكنهم من اكتساب المدافعين عنهم عندما يقعون في شر أعمالهم . وكان الهدف الرئيسي

من الرحلة الوصول لتدمر . وقد نُصح الرحالون بأن يحتفظوا بألبستهم وخاصة القبعة . فالقبعة تعني لدى الأعراب مسدساً وغدارة على الدقة ، ومتاعب مع القناصل ، ومصاعب دبلوماسية ، ومشاكل خارجية بالنسبة للباب (العالي) . كل ذلك في قبعة . على أن القبعة يمكن ان تكتنفها الكوفية كما أن السترة يمكن أن تلفها العباءة الأنيقة » . وكانت هذه الاحتياطات دون طائل فقد تمت رحلتهم من دمشق الى تدمر بأكبر قدر من السهولة والطرافة بفضل «مجول» المذكور سابقاً من مشايخ عشيرة السبعة(٣٦) تلك العشيرة التي كانت سيدة البادية بين حمص والفرات .

وقد قاد مجـول هؤلاء الأمراء الى تدمـر في مائة من رجاله المسلحين وهم على هجنهم ، وكل بعير يحمل راويتين من الماء ، أضف الى هذا خمسين بعيرا للقافلة وعشر بغال للمؤن والأفراس العربية للسادة . وكان مجول يتقدم الجميع على حصانه متمنطقا بمسدس وغدارة انكليزية دلالة على تحضره (كذا) . وغادروا حمص حوالي ٢٠ مايس ودخلوا تدمر في الحادي والثلاثين منه . وقد أضناهم التعب بسبب الحرارة . وقد كتب لويس دي سيغور : « لايمكن للمرء الا أن تعتريه الدهشة عندما يرى هذه المدينة الميتة تنبعث من قلب الرمال»ولكنه لم يكن أديبا أو عالم آثار فلم يستطع أن يفيض في تصوير اعجابه . وتمشيا مع رأي النحاتين الذين كانوا معه ذكر أنه يفضل بعلبك على تدمر ، وهنا يضيف بوردو : كأنما هناك من أطلال يمكن مقارنتها بهذه الآثار الرحيبة الغارقة حتى منتصفها في الرمال التي تسفوها الرياح » .

١٨٦١ – زيادة الفرنسي وليم وادينغتون William Henry Waddington بترغيب من المركيز دوفوغوى (راجع عام

رسم بالملونين الأثري من عمل الفنان داري بتل تالقيا داخل معبد بل بتدمر (تقدمة من الصديق ارنست ويل) . (راجع الإشارة رقم ٣٦)

١٨٥٣ (٣٧) وقد استطاع وادينغتون المهتم أصلا بالنصوص اليونانية أن ينسخ بيده الخبيرة ١٣٤ نصا تدمريا . نشرت في كراس خاص من مؤلف دوفوغوي الشهير « سورية الوسطى » (٣٨) ويعتبر هذا الكراس منطلقاً لكثير من الدراسات التالية عن اللغة والكتابة التدمرية وبسببها عمد الكثيرون للاهتمام بالتدمريات (٣٩) ثم تكاثرت الزيارات لتدمر وقام عدد كبير من الرحالة بزيارتها كما نسخت نصوص جديدة ومن الأسماء البارزة في هذه الفترة :

١٨٧٠ — آ . د . موردتمان A. D. Mordtmann وكان صهره ضابطا يعمل في خدمة السلطنة العثمانية وفي موقع تدمر بالذات ويمكنه ان يرتاد الأطلال دون عناء . الأمر الذي مكن موردتمان من نسخ ونشر حوالي ثلاثين نصا تدمريا(٤٠)

١٨٧٩ — الألماني اد . زخاو Ed . Sachau (٤١) وهو مهتم خاصة بالكتابات التدمرية وله عدة مقالات في هذا المجال .

١٨٨١ — زيارة الامير الأرمني الروسي سيمون أبا ماليك لازاريف Simon Abamalek Lazarew الذي كشف أمام ملحق الآغورا عن أطول نص من النصوص التدمرية وأكثرها أهمية فضلا عن أنه واحد من أطول النصوص الآرامية في العالم القديم وأهم وثيقة اقتصادية في العالم خلال العهد الروماني . وهذا النص هو القانون المالي التدمري الذي كان يعرف لدى الاختصاصيين في التدمريات باسم « التعرفة الجمركية » . وهو قانون صادر باسم مجلس الشيوخ والشعب في عام ١٣٢ ميلادي ومكتوب على لوحة طولها خمسة أمتار باللغتين التدمرية واليونانية .

وفي عام ١٩٠١ نقلت الى متحف الاوميتاج الشهير في بطر سبورغ (لينيغراد حاليا) بمساعدة المعهد الأثرى الروسي في استنبول ، بعد أن تم تقطيعها بالمنشار لعدة أجزاء .

وقد جاء اأمين عضو المجمع العلمي الروسي ت . أوزبنسكي TH . I. Uspensky مع ب . ف . فارماكوفسكي B. V. Farmakowsky وقد استنادا من وجودهما في تدمر لنسخ « فريسكات » مدفن الاخوة الثلاثة في المقبرة الغربية الذي اكتشفه أوستراب Oestrup عام ١٨٩٣ (٤٢)

والأمير لازاريف مسؤول عن نشر نص القانون المالي التدمري بمساعدة ف . ف . لاتشيف V. V. Latysheff والمركيز دو فوغويه (٤٣) و ه . ديساو H. Dessau

١٨٨٣ — زيارة ش . هوبر Ch. Huber الأثرى وعالم الكتابات و ج . أوتينغ J. Eutig الأستاذ في جامعة ستراسبورغ وقد أخذ استنساخا جديدا للوحة القانون المالي التدمري . ونجد في المدفن البرج رقم ٦٨ فوق رابية أم القيس (وهو مدفن شاني ونبو زبد وتيمي ونبولا من بني بوعا المؤسس عام ٨٣ للميلاد) على الجدار الأيمن اسم هوبر شارل وقد قتل في الجزيرة العربية عام ١٨٨٤ (٤٤)

١٨٨٤ — زيارة النسوى ج . ك . سمسون J. C. Samson

١٨٨٥ — على أحد الحجارة الضخمة المنهارة في الجدار الشرقي لملحق الآغورا نجد نصا بالفرنسية يذكر قداسا أجراه في هذا المكان أحد الكهان الروم الكاثوليك في نيسان من هذا العام .

١٨٨٧ — زيارة الفرنسي جوزيف ايتين غوتييه J. E. Gautier وفي هذا العام أصدرإ . لودران E. Ledrain . أول قاموس لاسماء الأعلام التدمرية (٤٥) .

١٨٨٩ صدر في كوبنهاغن مؤلف منحوتات وكتسابات تدمر الموجودة في متحف في كارلسبرغ (٤٦) الذي يضم مجموعة فريدة من المنحوتات التدمرية تفوق كل المجموعات خارج سورية . وذلك نتيجة للنشاط غير الاعتيادي لقنصل الدنمرك في بيروت م . ج . لوتفيد M. J. Loytved في تشجيع التنقيب غير المشروع في المدافن التدمرية والحصول على المنحوتات التدمرية بالثمن البخس .

١٨٩٠ — زيارة الأميريكي ج . ا . بوست G. E.Post لتدمر(٤٧)

١٨٩٣ — حل بتدمر الفرنسي الكابتين دوفيل Deville (الذي أصبح فيما بعد جنرالا من ابطال معركة فردان) وألف عنها كتاباً يجمع بين تاريخ الموقع ومذكرات السفر(٤٨)وحل ضيفا على الشيخ عبد الله شيخ تدمر الذي كان قد تزوج من فرنسية (مدام ب وهي شقيقة شخصية سياسية مرموقة) تعلقت به وأقام وقتا في باريس وبقيت انطباعاته عنها متركزة على الأوبرا وقصر زوجته بمياشه المبرقرقه(٤٩) . وبما أن الكابتين دوفيل كان من ضباط سلاح الفرسان فقد أجاد في وصف المعركة بين الملكة زينب والامبراطور أورليان (٥٠) « مامصير هذه الكتائب والكواكب من الفرسان المتحفزة للهجوم لتتحطم وجها لوجه في قفزتها المريعة ؟ الجواب بسيط : من الجمهرتين واحدة تنكفيء وأخرى تتابع سيرها . . . والمنتصر يحس كأنما ينزلق

على منحدر أما المهزوم فيتملكه الهلع حتى قبل أن يحس ببرد الحسام
في صدره فيلوذ بالفرار ولقد كتب تاسيت :

في العيون تتجلى الهزيمة قبل كل شيء .
(Et qui primi omnium vincuntur oculi)

وكان مع الكابتين دوفيل الكابتين أو الملازم لودفيغ دوكونتانسون
الذي زار تدمر عام ١٨٩١ واكتشف مدفن زبدعته بن عتعقب في
المقبرة الجنوبية الغربية (٥١) .

وهو أحد الرحالة الفرنسيين وقد ترك الجيش وتفرغ للرحلات
وقد اشتهر بزيارة لارمينيا بعد مذبحة أورفه عام ١٨٩٧ ألف بعدها
كتاباً عن المسيحيين والمسلمين (٥٢) .

١٨٩٦ — أقام بتدمر مدة خمسة أشهر ونصف المهندس النحات أميل
برتون E. Bertone من الاكاديمية الفرنسية بروما وقد قصدها
بناء على رغبة جامحة باع من أجلها مايملك وبتشجيع من استاذه
أوجين غيللوم لتحضير موضوع تخرجه . وقد حل فيها بحماية الشيخ
عبد الله واتخذ مقراً له قرب بيته (٥٣) . وكان معه رسام سوري
يدعى م . موراني ومساعد آخر كانا معه في روما . وقد صنع في
دمشق سلالم ضخمة وسقائل للقياس والرسم وحملها مع آلات التصوير
على ظهور الجمال في قافلة محروسة تبلغ بمجموعها العشرين . ورسم
لتدمر منظراً عاماً بالألوان المائية ورسوماً كثيرة وصوراً فوتوغرافية
ووصف الحياة في القرية الجاثمة وسط المعبد والبيت الذي سكن فيه
والسلطات في القرية وفي الملاحة . وكانت انطباعاته ساذجة عن الأفاعي
والذئب والمرأة التي رجمتهم بالحجارة وعن زعمه وجود الفهود

والأسود ، والأولى ممكنة أما الثانية فقد كانت انقرضت منذ زمن طويل .

ومن الناحية الأثرية أمكنه التعرف إلى المسرح والحمامات وما
يسمى بمجلس الشيوخ كما أخطأ كغيره في تحديد هوية بعض المباني
وكان وصفه لتدمر أخاذاً ، ولعله أكثر من أحس بجمالها من الرحالة
وقد قدم مشروعاً لجعل تدمر ملكة الشرق (٥٤)

١٨٩٩ — زيارة الألماني موريتس زوبرنهايم Moritz Sobernheim
الذي اكتشف مدفناً في المقبرة الجنوبية الغربية يعود لعام ١١٤ /
١١٥ م (٥٥) وأتى بكتابات جديدة وصور مدفن الأخوان الثلاثة
فوتوغرافياً في هذا العام .

١٩٠٠ — زيارة ا . ليتمان E. Littmann من بعثة جامعة
برنستون الأمريكية (٥٦) وأعضاء المعهد الروسي للآثار في استنبول
(راجع ما قبله) .

١٩٠٢ — وإثر زيارة غليوم الثاني امبراطور المانيا لسورية (١٨٩٩)
زارت تدمر بعثة ألمانية بادارة أو . بوخشتاين O. Puchstein وكانت
حصيلةزيارتهنصوصاًتدمرية غير معروفة. كما أن بعثةألمانيةأخرى قامت
في ذلك العام وفي عام ١٩١٧ بادارة ت . فيغاند TH . Wiegand
بدراسات واسبار أثرية منظمة ودراسة معمارية مستفيضة لمعبد بل
ووادي القبور (راجع مابعده)

١٩٠٨ — في هذا العام ١٩١٢ — ١٩١٥ جاء الرحالة التشيكي —
النمسوي الويس موزيل الذي عاش طويلا بين الرولة وألف كتاباً
شيقاً عنهم وسمى نفسه موسى الرويلي . جاب هذا الرحالة اقليم تدمر
دارساً طرقه القديمة ومواقعه لم يتركز على تدمر في مؤلفه الخاص عن

اقليم تدمر وكان قد عمل على انشاء مخطط لها ضاع في احدى جولاته (٥٧).

١٩١٤ – أرسل مجمع الكتابات والآداب في فرنسا إلى تدمر بعثة مؤلفة من الأب آ . جوسان والأب ر . سافيناك A. Jaussen & R. Savignac وكلاهما من المدرسة التوراتية بالقدس . وكانت البعثة مكلفة بتسجيل وطبع كل كتابات الموقع وأنجزت مهمتها في تموز من العام نفسه (٥٨) . وهذه البعثة من أكثر البعثات ثماراً وهي التي هيأت للأب ج . ب . شابو عضو مجمع الكتابات والآداب في فرنسا نشر الكراس الأول من الجزء الثاني من مؤلف الكتابات السامية ، وهو خاص بالكتابات التدمرية (٥٩) وقد مهد له بنشره كتابه الأساسي «منتخبات من الكتابات التدمرية» (٦٠) . وفيه نصوص مترجمة ،ومدروسة ومصورة منتقاة من السبعمائة نص التي كانت معروفة حتى ذلك الوقت (١٩٢٢) .

في ذلك السرد الطويل الذي ينتهي بالحرب العالمية الأولى والذي عبرنا فيه درباً شقها مغامرون ومهووسون ومعماريون وعشاق وشعراء وعلماء منهجيون إلى تدمر ، لابد أننا استطردنا كثيراً وانزلقنا إلى ما قد لايكون من شأننا الغوص فيه ولكن تدمر مالئة الدنيا وشاغلة الناس يصعب أن تصبح علماً صرفاً فان فيها لسحراً ، ولنصغ قبل أن نفارقها إلى هذه النجوى من هنري بوردو (٦١) وهو واحد من محبيها يقول : « هذه الحجارة القائمة تتوشح بالذهب عند المغيب والرمال التي تحدق كالبحر بالجزيرة تصطبغ بلون زهر التفاح وقلعة ابن معن ترتسم قائمة على سماء من نار .

وهكذا فان استشراف تدمر يأخذ بمجامع القلوب وعبثاً يحرص

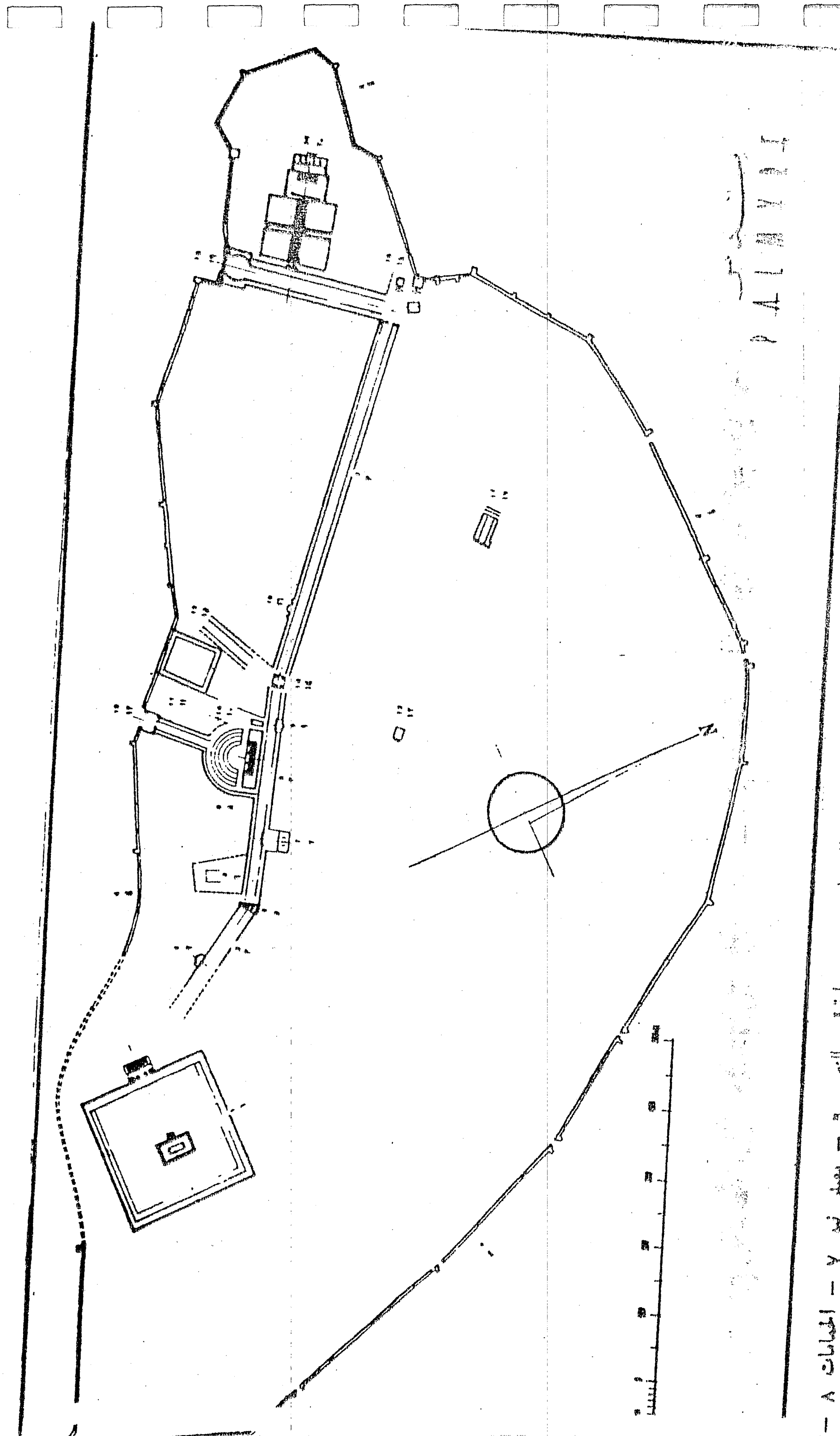
الأثريون على أن يقولوا لكم أن كل هذه العمارة هي من العهد المتردي فهذه الاطلال باجتماعها في الصحراء . وتلونها بالشمس قمينة بأن تتحول في النفوس إلى مدينة من مدن الاحلام .

والاخرى . المدينة الحقيقية . ماتت . ولكن طيف زنوبيا مايزال مهيمناً على تدمر التي غدت اطلالا . ان امرأة مثلها لم تزل تروق في العيون وها هي هائمة تحت الحنايا المحطمة » .

* * *

الفصل الثاني

التنقيب العلمي



اعمال التنقيب العلمية بين الحربين العالميتين الأولى والثانية

١٩١٧ — عادت البعثة الأثرية الألمانية التي ذكرنا حضورها في العام ١٩٠٢ في العام ١٩١٧ إلى تدمر برئاسة تيوفيل فيغاند Th.Wiegand ومساعده كرنكر Krencker ومعه نخبة من المهندسين والأثريين كوتزنجر وولزنجز ، وأجرت اسباراً في كثير من الأوابد التدمرية ووصفت وصفاً معمارياً وأثرياً بعضها الآخر وأنشأت لها المخططات والصور ومصورات اعادة البناء . ومن هذه الأوابد : معبد بل والحي المعروف بمعسكر ديوقلسيان والمسرح والمعبد المجاور لقوس الشارع الطويل المعروفة بقوس النصر (وقد سمت هذا المعبد الأخير المعبد الكورنثي) (٦٢) وكذلك وادي القبور والمدافن . وأصدرت بعد أعوام مؤلفاً ضخماً عن أعمالها يقع في جزئين . نص وأطلس : صدر عام ١٩٣٢ (٦٣) .

١٩٢٤ — (٦٤) قام الدانمركي هرالد انغولت H. Ingholt منقب حماه المقبل (وبحضور الفرنسي موريس دونان M. Dunand منقب جبيل المقبل ممثلا لمصلحة الآثار القديمة) بالتنقيب في المقابر بتدمر باسم مجمع الكتابات والآداب في فرنسا وجامعة كوبنها غن في الدانمرك (٦٥) .

١٩٢٥ — قام الفرنسي آ . غبرييل A. Albert Gabriel الاستاذ في جامعة كاين ثم جامعة ستراسبورغ بين ١٨ آذار و ٢٠

مايس بدراسة أثرية في تدمر نشر نتائجها في بحث معروف في مجلة سيريا وتعتبر دراسته منطلقاً للأعمال المقبلة في هذه الفترة (٦٦) . والمصور الأثري الذي اعده هو أول مخطط قريب من الحقيقة . وكان الاعتماد قبل ذلك على مخططي وود وكاساس المذكورين من قبل .

١٩٢٨ — قام هرالد انغولت المذكور سابقاً بمساعدة المهندس Charles Christensen شارلز كريستنسن الدانمركي بتنقيب جديد عن المدافن في المقبرة الجنوبية الغربية على حساب مؤسسة راسك أورستد في الدانمرك ، كشف خلاله بسرعة عن عدد آخر من المدافن حتى بلغ عددها ما ينوف عن أربعين مدفناً كمدفن حيران ومدفن ديونيزوس ومدفن مالكو ومدفن مالي ومدفن عبد عستور ومدفن نصر اللات ومدفن سلوقوس وغيرها مهتماً بالكتابات قبل كل شيء وقدنشر انغولت بعض نتائج أعماله خاصة الكتابات،في مجلة بيريتوس Berytus التي تصدرها الجامعة الأمريكية ببيروت(٦٧) وما يزال ينشر عنها حتى الآن .

١٩٢٩ — قام الفرنسي جان كانتينو Jean Cantineau البحاثة في اللغة والكتابة التدمرية بتحر عن كتابات تدمر : المنشور منها والجديد ، وسيستمر في ذلك عدة سنوات ويدرس تلك الكتابات في السلسلة الشهيرة « سجل الكتابات التدمرية » (٦٨) التي نشرها المتحف الوطني بدمشق ، وخلال عمله قام في ذلك العام بالتنقيب في مدفن من نموذج المدفن — البيت هو مدفن أعيلامي وزبيدا في وادي القبور وذلك لحساب مصلحة الآثار القديمة (٦٩) كما نشر مؤلفات هامة عن نحو لغة تدمر وعن لهجتها العربية الحديثة .

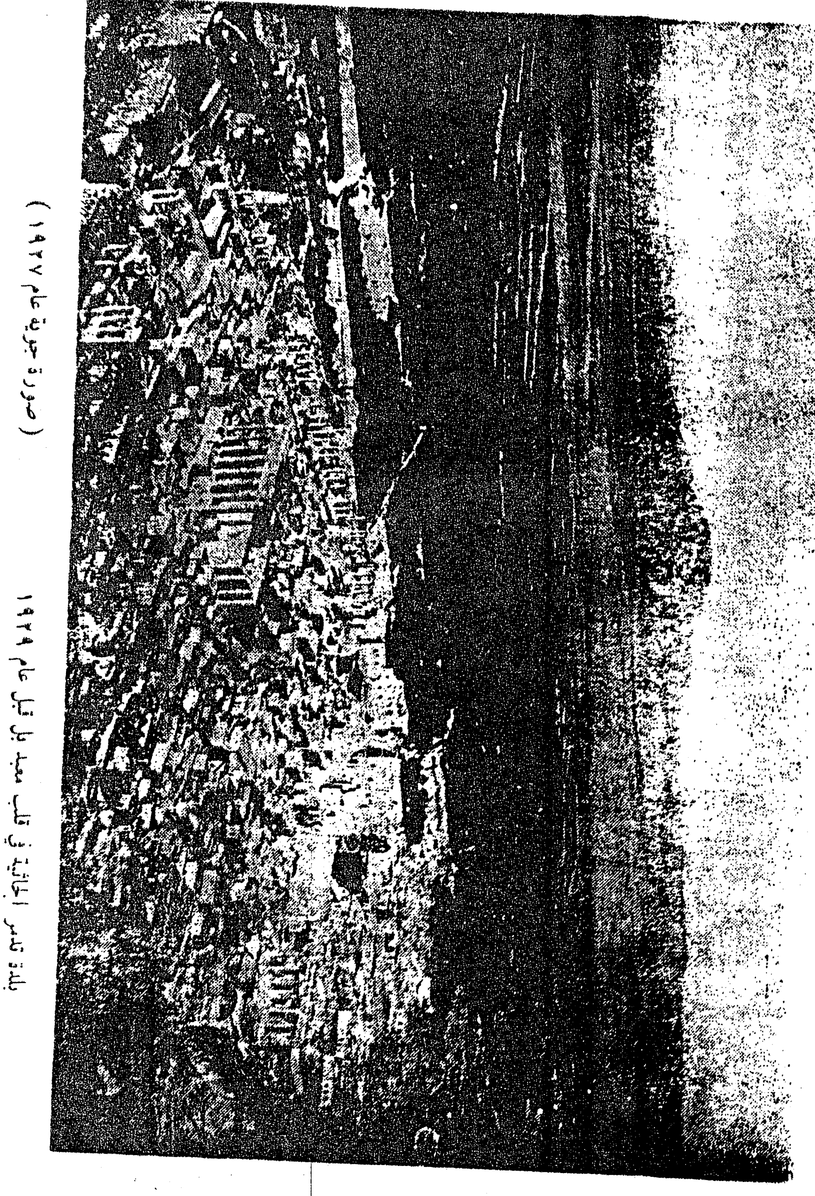
١٩٢٩ — ١٩٣١ قام هنري سيريغ Henri Seyrig الذي كان مديراً لمصلحة الآثار في سورية ولبنان، بمساعدة الحكومة السورية، ومجمع الكتابات والآداب في فرنسا بالعمل على نقل بلدة تدمر التي كانت قائمة في معبد بل ومن حواه ، إلى موضعها الحالي (٧٠) وباشر بدراسة معبد بل دراسة مستفيضة .

١٩٣٤ — ١٩٣٥ قام هنري سيريغ والمهندس روبير آمي الذي أصبح مهندساً مقيماً في تدمر بأعمال تنقيب في معبد بل باسم المتحف الوطني بدمشق وبتشجيع من الأمير جعفر الحسني الذي كان مديراً لذلك المتحف كمؤسسة وطنية . وقد بدأ المهندس آمي ترميمات ممتازة بتدمر في ذلك الحين .

١٩٣٤ — ١٩٣٥ أشرف هنري سيريغ والمهندس روبير آمي على تنقيب مدفن يرحاي بوادي القبور في تدمر (٧١) وقد تم نقله إلى المتحف الوطني الجديد بدمشق حيث أعيد بناؤه في عهد الأمير جعفر الحسني مدير المتحف في عام ١٩٣٦ (٧٢) .

١٩٣٤ — ١٩٣٨ قام دانييل شلومبرجه Daniel Schlumberger بالتنقيب والدراسة الأثرية في جبال تدمر باسم مصلحة الآثار القديمة ومجمع الكتابات والآداب بباريس وقد نشر نتائج أعماله بعد الحرب في مؤلف يعتبر الوحيد حتى الآن في دراسته الأثرية للاقاليم المحيط بتدمر (٧٣) .

١٩٣٧ — عاد هرالد انغولت باسم مصلحة الآثار القديمة وحفر مدفناً جنوبي مدافن الاخوان الثلاثة لاطلاع بعض المهتمين بأعمال التنقيب ثم ترك اكماله لعبيد الطه .



بلدة تدمر الحالية في قلب معبد بل قبل عام ١٩٢٩ (صورة جوية عام ١٩٢٧)

١٩٣٩ — ١٩٤٠ قام هنري سيريغ والمهندس دورو Duru بتنقيب الآغورا على حساب الصندوق الوطني للبحث العلمي في فرنسا (٧٤) وفي الوقت نفسه قام المهندس دورو المذكور بتنقيب فيلا لطيفة من القرن الثاني الميلادي وراء معبد بل وفيها فسيفساء ملكة يافا كاسيوبة الشهيرة بشكل افروديت في مشهد اسطوري وزخارف حجمية غاية في الجمال (٧٥) .

أعمال التنقيب الوطنية بعد الأستقلال : بعثات المديرية العامة للآثار والمتاحف

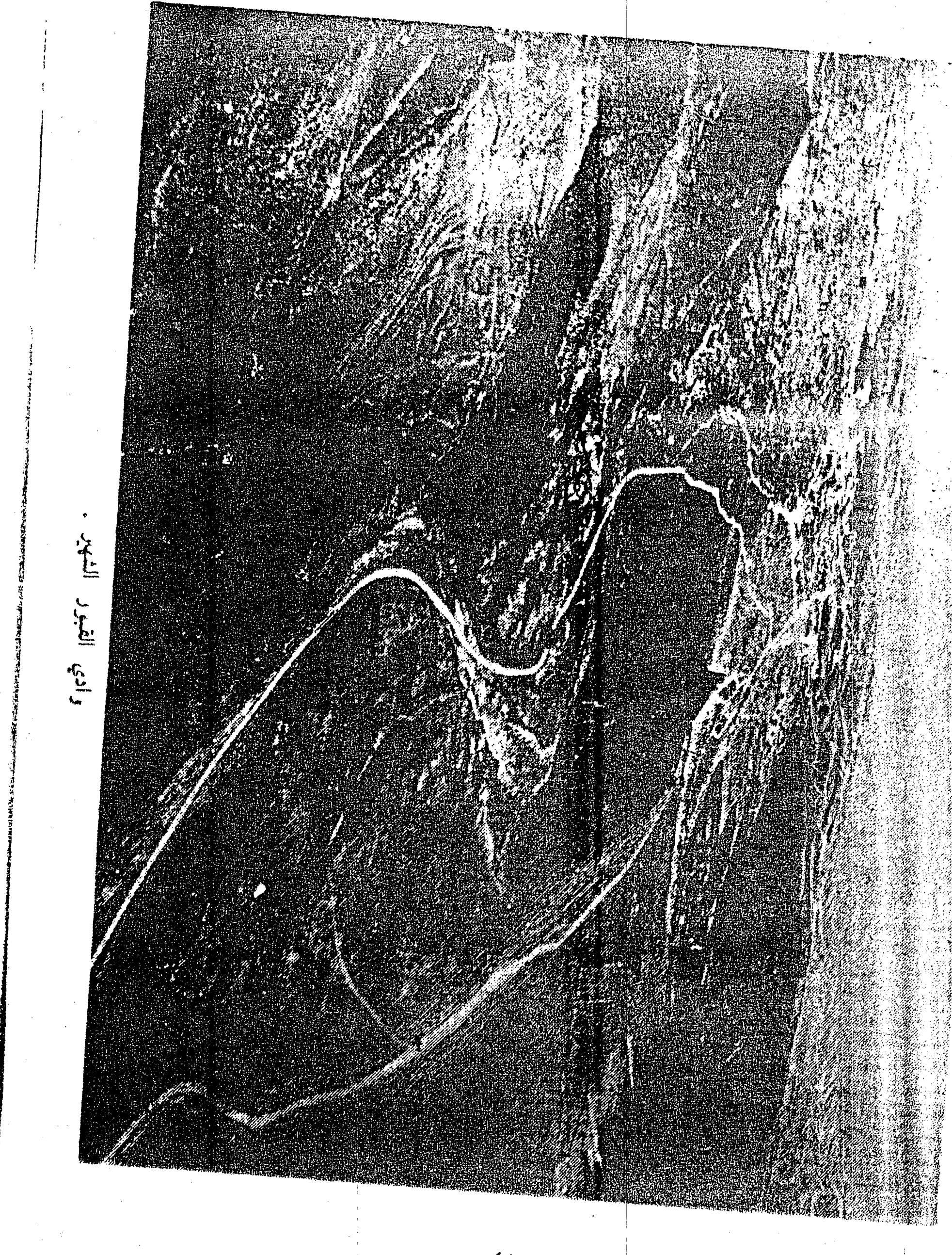
١٩٥٢— بمبادرة من سليم عبد الحق المدير الأسبق للآثار والمتاحف استهلت أعمال التنقيب الوطنية بتدمر هذا العام وذلك في مدفن طاعي بالمقبرة الجنوبية الشرقية (٧٦) .

١٩٥٢ — البدء بالكشف عن مسرح تدمر من قبل المديرية العامة للآثار والمتاحف وباشراف عبيد الطه المسؤول السابق عن الآثار بتدمر ومساهمة من الملحق الفني نظمي خير .

١٩٥٣ — ١٩٥٥ كشف المدفنين (رقم ٢) و (رقم ٣) في المقبرة الجنوبية الشرقية من قبل نظمي خير وعبيد الطه .

١٩٥٦ — كشف المدفن (رقم ٤) وهو مدفن عشتور في المقبرة الجنوبية الشرقية من قبل عبيد الطه ومؤازرة من نظمي خير .

١٩٥٧ — التنقيب بين نيسان وتشرين الثاني أولا عن مدفن شلم اللات بن ملكو في وادي القبور(٧٧) والبدء بالكشف عن القطاع ب من الشارع الطويل وذلك من قبل بعثة أثرية بادارة عدنان البني



وادي القبور .

مدير التنقيب والدراسات الأثرية وعضوية الملحق الفني نسيب صليبي (حاليا معاون مدير التنقيب) وعبيد الطّه (٧٨) .

١٩٥٨ — تنقيب مدفن بولبرك ومدفن نوربل ومقيعو وحيران في وادي القبور وانجاز التنقيب حتّى طول حوالي ٣٦٠ متر في القطاع ب بالشارع الطويل من قبل بعثة يديرها عدنان البني ويساعده عبيد الطّه (٧٩)

وفي هذا العام تمّ التنقيب في عدد من المدافن في المقبرة الجنوبية الشرقية كشفت عند مدّ خطوط أنابيب البترول (٨٠ (وكانت البعثة المسؤولة تضمّ نسيب صليبي وعبيد الطّه ونظمي خير وسليمان المقداد المسؤول عن الآثار في بصرى وهذه المدافن هي :

مدفن أرطبان (رقم ٥) .

مدفن ساسان بن مالي (رقم ٦) .

مدفن بولحا بن نبو شوري (رقم ٧) (٨١) .

مدفن زبيدا بن عجيلي (رقم ٨) .

المدفن المسمى مدفن بريكي بن زبيدا (رقم ٩) .

ومدفن تيمعمد بن مقيمو (رقم ١٠) .

ومدفن عيلمي وهرمس (رقم ١١) (٨٢) .

١٩٥٨ — ١٩٥٩ — ١٩٦٢ — اكمال تنقيب تفرعات القطاع ب من الشارع الطويل وكذلك شارع المسرح الآغورا (١٩٥٩) والبدء بالتنقيب في الحمامات المنسوبة الى ديوقلسيان (١٩٥٩) وكانت البعثة مؤلفة من عدنان البني وعبيد الطّه وعلي الطّه مراقب متحف تدمر .

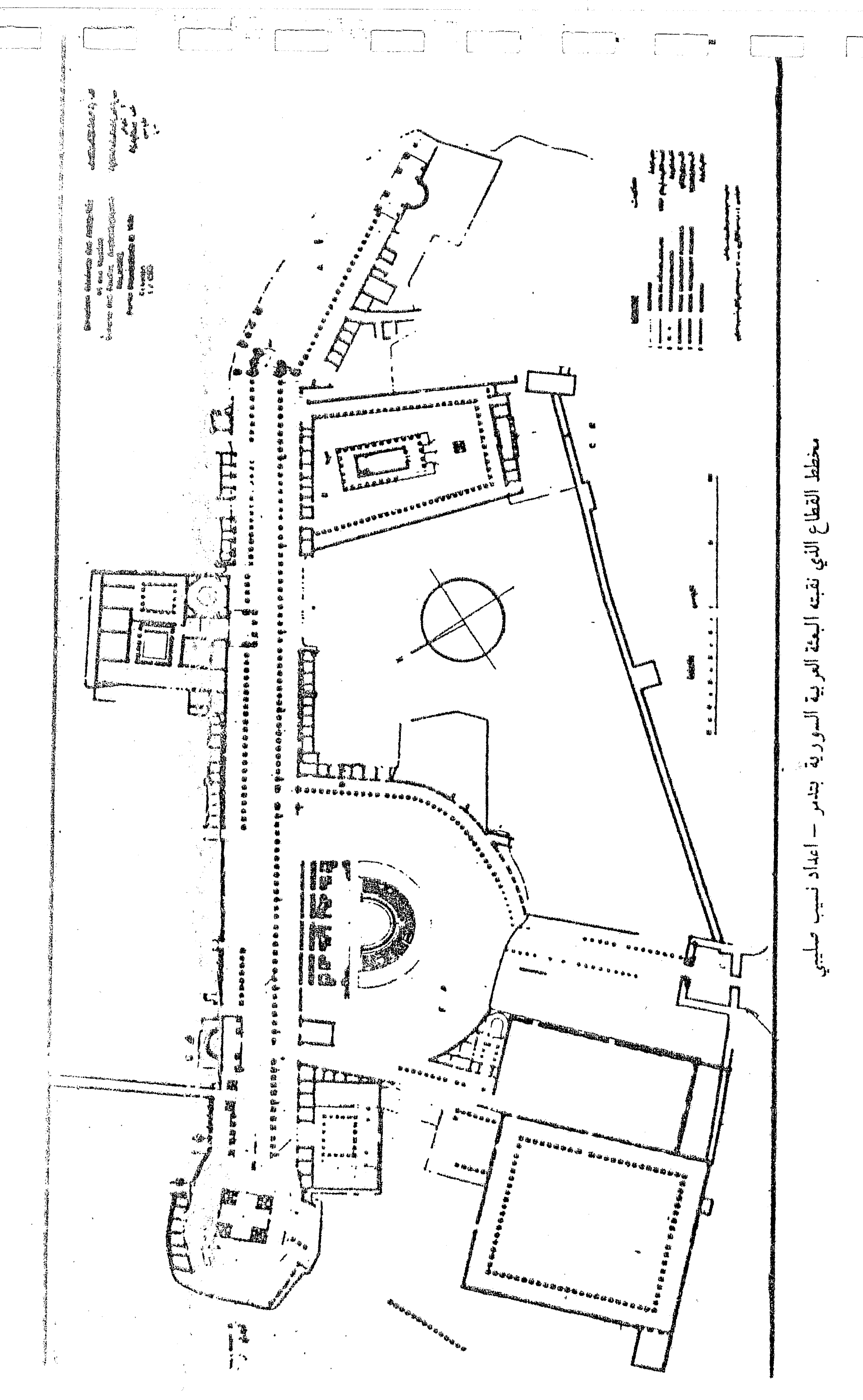
١٩٦١ ــ الكشف عن مدفن زبدعته بن دنيرن في المقبرة الجنوبية الغربية من قبل خالد الأسعد وعبيد الطّه وصالح الطّه (٨٣) .

الكشف عن بناء يشبه الثكنة بجوار المتحف الجديد (غرف حول باحة داخلية والأقسام العلوية من اللبن) قام بالتنقيب فيه خالد الأسعد رئيس دائرة الآثار بتدمر وعبيد الطّه .

١٩٦٣ / ١٩٦٤ أعمال المشروع الاستثنائي التدمري (٨٤) الذي تولت التنقيب فيه بعثة يديرها عدنان البني ويشترك بها نسيب صليبي ، خالد الأسعد ، عبيد الطّه والطبوغراف مصطفى المملوك وسمير طالب وقد كشفت البعثة عن معبد نبو وحققت هويته في ٢٨ تشرين الأول ١٩٦٣ . كما كشفت عن جانب كبير من القطاع آ من الشارع الطويل باتجاه معبد بل وفيه هيكل لحوريات الماء . و[illegible]ت البعثة التنقيب بساحة المسرح والطريق المؤدية الى معبد بعلشمين وجزء من القطاع الغربي من سور تدمر وعثرت على استراحة في القطاع ج . من الشارع الطويل وراء الترابيل . كما عثرت على هيكل آخر لحوريات الماء في الجهة المقابلة للمسرح (٨٥) .

١٩٦٥ ــ ١٩٦٨ قامت بعثة بادارة عدنان البني وعضوية نسيب صليبي وخالد الأسعد بالتنقيب في الباحة الشمالية أمام الآغورا ، وساحة الترابيل ، وطريق بعلشمين والسيزاريوم (؟) والمقبرة البيزنطية في متحف تدمر .

١٩٦٦ ــ ١٩٦٧ ــ ١٩٦٨ في ربيع هذه الأعوام تمّ انجاز التنقيب من قبل البعثة السابقة في البناء الضخم الذي أطلقنا عليه ملحق الآغورا (٨٦) .



مخطط القطاع الذي نقبته البعثة العربية السورية بتدمر – اعداد نسيب صليبي

١٩٦٧ – ١٩٦٨ – ١٩٦٩ في العام الأول تمّ اكتشاف مقبرة بيزنطية في حديقة المتحف الجديد بتدمر وفي العامين التاليين تمّ التنقيب فيها من قبل بعثة مؤلفة من خالد الأسعد وعبيد الطلّه (٨٧) .

١٩٦٩ – انجاز الكشف عن ساحة المسرح بكاملها مع البيوت والمخازن المحيطة بها والباحة الجنوبية أمام ملحق الآغورا من قبل بعثة ني : صابيي ، أسعد (٨٨) .

١٩٧٠ – معاودة التنقيب في الحمامات المنسوبة لديوقلسيان بعد أن توقف منذ موسم ١٩٥٩ . والاستمرار في الكشف عن الطريق المؤدية لمعبد بعلشمين واجراء اسبار استكشافية حول معبد نبو وذلك من قبل بعثة بادارة عدنان البني وعضوية نسيب صليبي وخالد الأسعد والفنان بسام كنعان ومباشرة التنقيب في القطاع الشمالي من سور تدمر .

١٩٧١ – ١٩٧٧ استمرار التنقيب في حمامات تدمر وفي السور الشمالي التي بدأت بها البعثة السابقة ويشرف على العمية في هذه الفترة مباشرة خالد الأسعد كمدير ميداني لحفريات الحمامات ومسؤول عن كشف السور يؤازره أحمد الطه وعلي الطلّه وجهاز الآثار بتدمر .

أعمال التنقيب الأجنبية الحديثة بتدمر من قبل البعثات المرخصة رسمياً

١٩٥٤ – ١٩٥٥ – ١٩٥٦ قامت بعثة سويسرية من جامعة جنيف بادارة بول كولار مدير المعهد السويسري بروما سابقا Paul Collart بالكشف عن معبد بعلشمين وعن مدفن وراء هيكله المركزي كما أجرت البعثة موسما تكميليا عام ١٩٦٦ ، واشتركت في البعثة قارئة الخطوط الآنسة كريستين دونان والمهندس جاك فيكاري والأثرى رودلف فيلمان (٨٩)

١٩٥٩ – ... تقوم بعثة بولونية من جامعة فرسوفيا ومتحفها بادارة كازيميرز ميخالوفسكي K. Mikhalowski استاذ آثار البحر المتوسط سابقا ومدير مركز دراسات البحر المتوسط بالقاهرة وادارة ميدانية من قبل أنا سادورسكا A. Sadurska M. وماري لويز برنهارد M. L. Bernhard وميشيل غاوليكوفسكي Gawlikowski وداشوسكي Dazsewski بالتنقيب في الموقع المعروف بمعسكر ديوقلسيان وفي بعض المدافن في وادي القبور ووراء موقع المعسكر (٩٠)

١٩٦٦ – ١٩٦٧ قام الفرنسي دومنيل دوبويسون M.Du Mesnil Du Buisson بمنحة من المركز الفرنسي للبحث العلمي وموازرة جافيية تيكسيدور J. Teixidor بأسبار في باحة معبد بل تحريا عن معالم تدمر الآمورية وفي جوار نبع أفقا وفي قمة جبل المنطار حيث كشف في موقع أحد الأولياء عن معبد لمنوه وبلحمون (٩٠ مكرر)

★ ★ ★

الفصل الثالث

المنحوتات والنصوص التدمرية

وأماكن العثور عليها

من البديهي أن العدد الأكبر من المنحوتات والنصوص التدمرية وارد من مدينة تدمر نفسها . ثم من الضواحي المحيطة بها كجبل هيان . وجبل قلعة الهري . والمقاطع . و « أبو الفوارس» . والضرفة . كما وجد عدد كبير من هذه المنحوتات والنصوص في اقليم تدمر الشمالي الشرقي كجبل شاعر ؛ والجبل الأبيض . وجبل المراة . وجبل السويدة ؛ وجبل البلعاس .

ويلي تدمر بالأهمية ، من حيث اللقى والمنحوتات والنصوص التدمرية مدينة دورا أوربس (صالحية الفرات) التي كانت بمثابة مرفأ لتدمر على الفرات فيها جالية تدمرية هامة . وقد كشفت اعمال التنقيب التي تمت فيها من قبل بعثة مجتمع الكتابات والآداب في فرنسا وجامعة ييل الأميركية عن عدة معابد ومنحوتات وفريسكات ذات صفات تدمرية لايرقى اليها الشك .

وفي بادية الشام مواقع كثيرة أعطتنا منحوتات ونصوصا تدمرية نذكر منها : الطيبة . قصر الخير الشرقي . قصر الخير الغربي ؛ القريتين . وادي المياه ؛ وأم العمد ؛ وكديم . وحتى في بصرى نجد ذكريات تدمرية (٩١) .

وخارج سورية . في الأقطار العربية ؛ نجد مثلا في متحف بغداد

نصيبن تدمريين(٩٢)   وبجوار القدس وجدت قبور فيها كتابات تدمرية(٩٣) وفي حربتا (٣٠ كم شمال بعلبك) (٩٤) بالقطر اللبناني وكذلك في دندرة وكوبتوس (قفط) في القطر المصري والقنطرة في الجزائر .

أمّا في أوروبا فثمة آثار تدمرية كشفت في روما(٩٥) وفي كوستنجه برومانيا وكارانسبيس بالمجر . وكذلك في ساوثشيلد بانكلترا . وأكثر هذه الآثار هي شواهد قبور لعسكريين من ألوية الرماة التدمريين ولتجار من متعهدي الجيش الروماني ومنها ماهو نصوص تذكارية ونذور محررة بالتدمرية أوبالتدمرية واليونانية واللاتينية (٩٦) .

أمّا أمكنة حفظ هذه الآثار فهي تستعصي على الحصر ولكن أهم المجموعات وأكبرها في متحف تدمر يليه متحف دمشق الوطني ومتحف في كارلسبرغ في كوبنهاغن بالدنمرك ، متحف استنبول ، المتحف البريطاني ، متحف اللوفر ،متحف الجامعة الأمريكية ببيروت ، متحف الميتروبوليتان بنيويورك ومتحف الارميتاج بلينينغراد (الذي يملك نص القانون المالي الشهير) (٩٧) ومتحف برلين هذا عنالعديد من المتاحف الصغيرة في أوروبا وأميركا فضلا عن المجموعات الخاصة المجهولة في أوروبا والمجموعات الخاصة في سورية ولبنان ومنها مجموعة ماركوبولي بحلب ومجموعة عرقتنجي بدمشق ومجموعة البيزانسون بدمشق ومنحوتتان عند السيد انطاكي بحلب وبعض المنحوتات عند شيخ القريتين وفي فندق زنوبيا بتدمر (٩٨) .

★ ★ ★

الهلال الخصيب في عهد تدمر

الفصل الرابع

موجز تاريخ تدمر

حتى القرن الثالث الميلادي

١ ـ الاطار الجغرافي ـ بادية تدمر

تشكل بادية تدمر بمجموعها هضبة ارتفاعها بين (٤٠٠ ـ ١٤٠٠م). تمتد على سطحها سلسلتان جبليتان تتفرعان عن سلسلة جبال لبنان الشرقية :

والسلسلة الأولى تبدأ من جنوب دمشق وتنتهي في وهدة تدمر وأشهر جبالها جبل الرواق ، جبل النصراني وجبل هيان .

والسلسلة الثانية تبدأ شرقي حمص ومنها جبل شاعر والجبل الأبيض وجبل البلعاس وجبل المنشار وأعلى قمة فيها ترتفع الى حوالي ١٤٠٠ م في البلعاس .

وبين السلسلتين سهل الدّو الممتد حوالي ١٠٠ كم بعرض ٣٠ كم ويقع بين القريتين وتدمر .

وعلى حوافي الجبال تتوضع بعض الواحات والقرى في بادية تدمر ، عند الينابيع المتفجرة (تدمر ـ السخنة ـ الطيبة) وفيها وديان كثيرة تتحول في بعض السنين الى أنهار فعلية تدوم بضعة أيام (وادي التياس وادي جحار ، وادي الرمل ، وادي عبيد ، وادي تدمر ، وادي صواب).

وتتشكل جبال بادية تدمر من طيّات متطاولة حادة كلسية ، من الدورين الثاني والثالث الجيولوجيين (الجوراسي والكريتاسي والنيوجين والباليوجين) وتغطي معظم سهول البادية ووديانها تربة لحقية خصبة من الدور الرابع (البليستوسين) .

وتسود في بادية تدمر الرياح الغربية والجنوبية الغربية القادمة من البحر المتوسط عبر هوة طرابلس — حمص . وهذه الرياح ماطرة شتاء ، وتكون الأمطار غزيرة بعض السنين خاصة في مطالع الربيع . والثلج نادر (٩٩) ولكن الجليد يدوم بضعة أيام أحيانا ، والسيول كثيرة خاصة في الربيع . وتسبب أحيانا بعض الكوارث وتجرف المحصول في الوديان ولكن الوديان في العام التالي تزرع فتعطي محصولا من القمح والشعير وبعض أنواع الحبوب كما تهب على بادية تدمر الرياح الشمالية الغربية حاملة موجات البرد والصقيع شتاء . وتهب عليها أحيانا الرياح الشرقية والشمالية الشرقية وهي باردة شتاء ، حارة وجافة صيفا .

وعلى الجملة ينسب مناخ بادية تدمر للمناخ المتوسطي القاري وهو يتميز بفروق شديدة بين الصيف والشتاء وبين الليل والنهار (١٠٠) والحرارة تتراوح وسطيا في الشتاء بين ١ — ١٠ ليلا و ١٠ — ٢٠ نهارا . أما في الصيف فتتراوح وسطيا بين ١٨—٢٥ ليلا و ٢٠ — ٤٠ نهارا(١٠١) .

واذا هطلت الأمطار شتاء ، اكتست بطون الوديان وحواشيها بالاعشاب الموسمية خلال الربيع والصيف وأعطت البادية منظرا زاهرا ورائحة زكية ، وامتلأت الآبار « والخَبْرات » بالمياه واستفاد الناس من مسيلات الوديان لزراعة الحبوب. وتساعد طبيعة الأرض وتركيبها الجيولوجي (المارن والحوار) على حفظ المياه عدة أشهر .

وكان في حوضة تدمر حوالي العصر الحجري القديم الأعلى بحيرة دائمة بلغت أقصى امتداد في زمن تشكل السطح التدمري الأوسط . وبلغ طولها الأقصى ٤٥ كـم ، وعرضها الأقصى ٢٠ كم ، ومساحتها ٥٠٠ كيلو متر مربع . وكان المطر آنئذ أكثر غزارة بشكل واضح فشكّل هذه

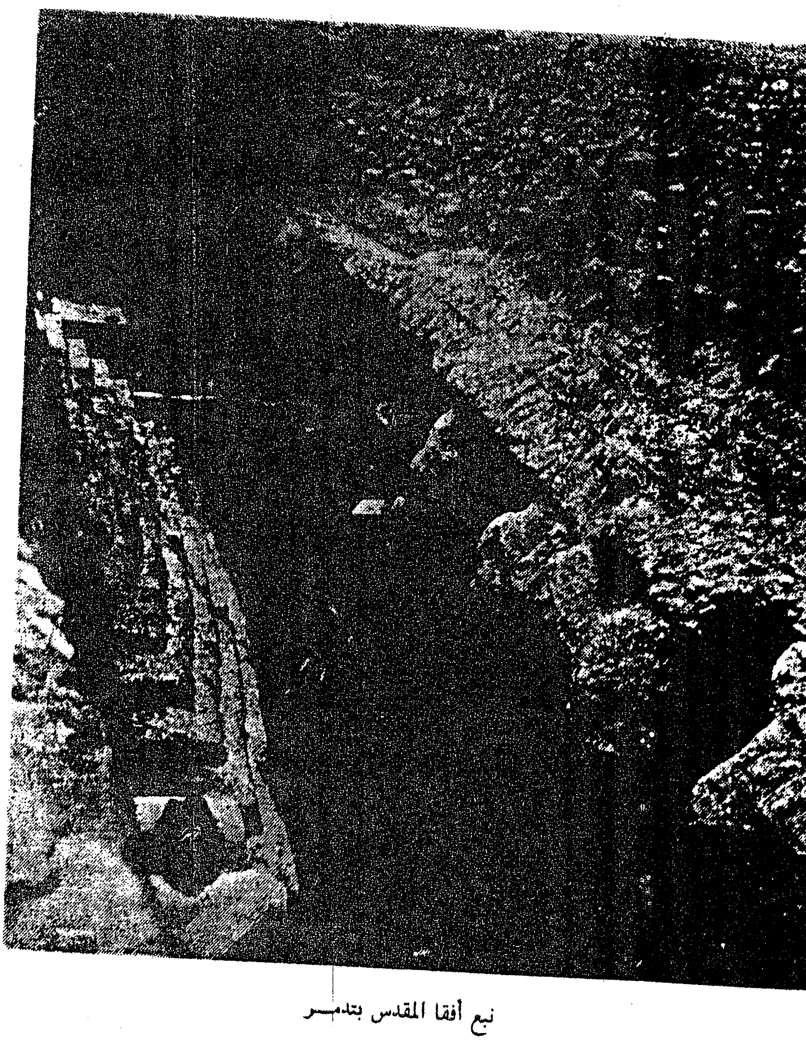
البحيرة . وفي شتاء ١٩٧٣/ ١٩٧٤ كان المطر غزيرا جدا فامتلأت السبخة الى الجنوب الشرقي من تدمر وبقيت حتى تشرين الأول ١٩٧٤ . وتاريخ هذه البحيرة ليس معروفا بدقة. اذ أن الربط بين الفترات المطيرة وتقويم دور البليوستوسين مايزال مجهولا (١٠٢) .

وكانت جبال بادية تدمر ووديانها في العهود الخوالي مكسوة بالأشجار التي نجد بقاياها حتى الآن تحتمي بذرى الجبال ومنها البطم والبربريس والتين . وعلى الرغم من اعتمادها أساسيا على التجارة وتربية المواشي ، فان وفرة مياهها النسبية تساعد على مناخ زراعة بعلية كالشعير والقمح بصورة أساسية في بطون الوديان وزراعة سقي في الواحات وأهمها الزيتون والنخيل والكرمة وبعض الفواكه (١٠٣) .

وبالاضافة الى الحيوانات المستأنسة كالجمال والغنم والماعز كانت بادية تدمر جنّة الغزال حتى قضى عليه الانسان أوكاد . ويروي بعض البادين أن نوعا من الوعول كان يذكر وجوده النادره جدا في جبال تدمر حوالي العام ١٩٢٥ ، أمّا فهد البادية المنقّط (الذي نعرفه في الرسوم والمنحوتات بتدمر ودورا أوربس) فقد اصطيد آخر ذكر منه حوالي العام ١٩٤٩ على مانعرف . ولكن بادية تدمر مايزال فيها الذئب وابن آوى (١٠٤) والثعلب والضبع والكواسر من الطير فضلا عن الطيور المهاجرة والعابرة التي تجتذب الناس في مواسم الصيد .

٢ — الموقع والنبع وقدم المدينة .

ان الأساس الجغرافي لتدمر هو نبع غزير المياه يتفجر من الصخر عند معبر جبلي اضطراري في مكان القلب من بادية الشام ، على مسافة



نبع أفقا المقدس بتدمر

متساوية تقريبا بين المدن السورية . وهذا النبع خلق واحة خضراء أصبحت مكان استراحة بين العراق والشام ومحطة للقوافل بين الخليج العربي وبلاد فارس والبحر الأبيض المتوسط . ومياه الواحة صالحة للشرب ومنها ماهو كبريتي دافيء يستشفى به المرضى والأصحاء كما يصلح جدا لأشجار الزيتون والنخيل والرمان .

ولاشك أن في هذا الموقع الممتاز كان ملائما جداً لقيام تجمع بشري هام منذ أقدم الأزمنة . ولقد دلت التحريات على تجمع الناس حول هذه الواحة منذ العصر الحجري القديم (الباليوليتيك) وفي الملاجيء الصخرية المجاورة « كجرف العجلة » « وثنية البيضاء » « وكهوف الدوارة » نجد صناعة حجرية موستيرية ولفلوازية(١٠٥) كما نجدها في الوديان . وكان هذا الانسان صيادا .وي الى ملاجيء الجروف لتصنع أدواته وللاحتماء بها في الظروف الصعبة . كانت المنطقة كثيرة الشجر والعشب كما أسلفنا وفيها صيد وفير وسهل نسبيا ومن المرجح ان العصر الحجري الحديث (نيوليتيك) حوالي الألف السابع قبل الميلاد قد شهد أول مساكن أقامها الانسان في الواحة أو في الأماكن المرتفعة منها في جهات النبع الكبريتي ،لأن الأقسام المنخفضة كانت مغمورة بالمياه والماءالمالح غالبا. وواحة تدمر فيهاعددمن الركامات الملأى بالأدوات الصوانية من سهام ونصال وليس لدينا من دليل حتى الآن على أن هذا الانسان بدأ بالزراعة فعلا .

وان مواقع تدمر والسخنة والكوم والرصافة قائمة كلها على طريق قديمة كانت تجتاز البادية مسايرة لمرتفعات كانت مشجرة آنذاك كجبل

الماس والبشري وتمتد بجبل عبد العزيز (١٠٦) . ولكن لاندري متى ارتفع شأن تدمر ولو كنانعرف أسباب ذلك على أن أطلال تدمر التي تمتد الآن على مساحة أكثر من عشرة كيلو مترات مربعة ، تمثل ماتبقى من المدينة في أكثر عهودها ازدهاراوهو يمتد بين القرنين الأول والثالث بعد الميلاد . وفي القرن الثاني الميلادي وصلت قمة مجدها الاقتصادي . وفي الثالث الميلادي بلغت قمـة مجدها العسكري والسياسي عندما كانت عاصمة مظفرة لمملكة تمتد من قلب الأناضول لصعيد مصر .

٣ ـ تدمر في نصوص الألف الثاني قبل الميلاد

ولكن قبل ذلك بألفي سنة تقريبا ورد ذكر تدمر والتدمريين ، وكانوا آنئذ من الآموريين واخوانهم الكنعانيين على الراجح ؛ في أحد الرقم الآشورية القديمة المكتشفة في منطقة كبادوكيا (موقع كولتبة / كانيش (١٠٧) وكانت مستعمرة تجارية للآشوريين في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد (والنص يذكر بوزر عشتار التدمري (تدمريم) .

وذكرت تدمر بعد ذلك في رقيمين من مدينة ماري (تل حريري على الفرات) يعودان للقرن الثامن عشر قبل الميلاد ، الأول يذكر أربعة رجال تدمريين (٤ أويلو تدمريّا) كما جاء في الرقيم الثاني أن ستين سوتيا (آراميا ؟) ذهبوا لينهبوا تدمر ونزالا (القريتين) ولكنهم عادوا صفر اليدين بعد أن قتل التدمريون رجلا من السوتيين (١٠٨) .

وفي رقيم كشف حديثا في مسكنة / ايمار على الفرات ويعود للقرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد ذكر أنه أمام أربعة شهود ، بينهما اثنان

تدمريان يدفع يملك داغان فدية تبلغ ٧٤ شاقلا من الفضة الى خادم آتو التدمري . وفيه أول طبعة ختم تدمري معروفة حتى الآن (١٠٩) .

ونوهت بتدمر حوليات الملك الآشوري تغلات فلاصر الأول (١١٠) (القرن الحادي عشر قبل الميلاد) .

ورغم كثرة أعمال التنقيب التي تجري في تدمر منذ أكثر من خمسين عاما فلم يسعدنا الحظ بعد بالعثور على آثار هذه العهود . ومع ذلك فان الأسبار المحدودة التي أجراهادومنيل دوبويسون في ركام صحن معبد بل ؛ تعتبر بداءة حسنة . ويعتقد دوبويسون . حتى قبل اجراء الأسبار ان تل تدمر الأثري هو تحت المعبد الحالي وهناك المدينة المذكورة في النصوص الأمورية (١١١) .

وعلى أية حال أن اسم تدمر TDMR . الذي عرفت به منذ أقدم العصور وحتى الآن لدى العرب وفي اللغات المسماة بالسامية . يرده بعض العلماء إلى زمن أقدم من هجرات شعوب الجزيرة العربية دون دليل ، كما حاول آخرون تقريبه من التمر مستندين إلى اسم Palmyra الذي عرفت به في المصادر الكلاسيكية قد يكون مشتقاً من النخيل (Palm) وهو شجر التمر . وقد اشتق المتنبي اسم تدمر من الدمار حيث قال مادحاً سيف الدولة وكان أوقع بقبائل العرب عند تدمر :

وليس بغير تدمر مستغاث ... وتدمر كاسمها لهم دمار

الا أن هذا اشتقاق بديعي ذكره الشاعر على طريقة الجناس ليس

الا . ومن ذلك تعليل شعبي أكثر طرافة ففي التقاليد الشعبية التدمرية أن تدمر تعني تطمر لأنها مطمورة أو طمرت بالتراب والرمال. وفي ذلك كله دليل على الحيرة في تعليل الاسم .

٤ ـ تدمر قبيل الفتح الروماني .

في الوقت الذي كان فيه سلوقوس نيكاتور يؤسس . في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد انطاكية وأخواتها الثلاث : اللاذقية وأفامية وسلوقية البحر (١١٢) كانت تدمر مدينة زاهية ويرى جونز «أن خطأ مؤلف « أخبار الأيام » بنسبة تأسيسها إلى سليمان يدل على أنها كانت مركزاً هاماً في أيامه ـ القرن الرابع قبل الميلاد على الراجح . » (١١٣) وفي اعتقادنا أن القبائل العربية كانت قد غلبت عليها منذ وقت بعيد، كما سنوضح فيما بعد ، وحوالي مطلع القرن الثاني قبل الميلاد كانت قد استقرت امارة عربية مثل البتراء وحمص وامارة الايتوريين في لبنان وامارات حوران والفرات (١١٤) .

ويذكر المؤرخ بوليب أنه في معركة رافياعام ٢١٧ قبل الميلاد ، التي جرت بين السلوقيين والبطالمة خلال الحرب السورية الرابعة كان إلى جانب الملك السلوقي انطيوخوس الثالث شيخ عربي يدعى زبدي بل وتحت امرته عشرة آلاف رجل . ويقول الأب ستاركي بحق : « اننا لانجد مثل هذا الاسم الا في تدمر فمن المحتمل جداً أن يكون هذا القائد تدمرياً . ويقول مثل ذلك عن زبدي ايل العربي الذي قطع رأس الملك السلوقي اسكندر بالا عام ١٤٥ الذي كان قد طالب وحصل على عرش سورية (١١٥) معلناً أنه ابن انطيوخوس الرابع .

٥ ـ تدمر الكبرى والرومان

ومن القرن الأول قبل الميلاد نجد شواهد مادية وأدبية تدلنا على أن واحة تدمر كانت تضم آنئذ مدينة على جانب من الأهمية وهي مركز امارة مستقلة وطدت مركزها خلال الفوضى التي اعقبت انهيار الدولة السلوقية واخروب المدنية في روما (١١٦)

وقد ذكر المؤرخ أبيان في حوادث ٤١ ق . م : « ان كليوباترة عادت بحراً إلى مصر . وأرسل انطونيو فرسانه إلى تدمر . . . وأمرهم بنهبها أرضاء لهم . اذ ليس لديه مايلوم عليه التدمريين : اللهم الا سياستهم المستقيمة : فهم تجار يبتاعون من فارس منتجات الهند وبلاد العرب ليبيعها للرومان (١١٧) ولكن هذه الحملة كانت غير موفقة فقد أخلى أهل تدمر مدينتهم واسرعوا ليعبروا الفرات بأرزاقهم وأخذوا عبر النهر يصلون فرسان انطونيو وابل سهامهم الشهيرة .

ويذكر المؤرخ بلين الأكبر : « تدمر مدينة تمتاز بموقعها وغنى أرضها وطيب مائها : فيها بساتين تحدق بها الرمال الممتدة من كل الجهات وقد عزلتها الطبيعة عن بقية العالم . وقد جعلها قدرها قائمة بين امبراطوريتي الرومان والفرثيين وكل منهما يفكر بها أول ما يفكر مذ يبدأ النزاع بينهما (١١٨) ومن قوله هذا يستنتج أن تدمر في عهده (منتصف القرن الأول الميلادي) لم تكن تابعة للرومان . على الرغم من أن الفتح الروماني يعود لعام ٦٤ / ٦٣ قبل الميلاد

ويستنتج من الكتابات التي تعود لمطلع القرن الأول الميلادي أن تدمر كان لها نظام حكم يقوم على وجود مجلس للشيوخ ومجلس للشعب شأن المدن الاغريقية ولكن دور العشيرة كان هاماً جداً . وهذا

الحكم نصف الحضري – نصف القبلي لم يتغير كثيراً بعد الحاق تدمر بروما هذا الالحاق الذي يعتقد الاستاذ سيريغ أنه تم حوالي موت الامبراطور جرمانيكوس (عام ١٩ ميلادي) وذلك استناداً إلى الكتابات التي عثر في معبد بل أو إلى القانون المالي التدمري الشهير (١١٩) وهو في ذلك يذهب إلى ما ذهب اليه من قبل المؤرخان مومسن (١٢٠) وكوك . والثلاثة يخالفون ما ورد في رواية بلين الاكبر التي ذكرناها منذ قليل . وهناك وجهات نظر في الموضوع لشلومبرجيه وفيفرية وستاركي . ليس مجال البحث فيها الآن .

ويرى سيريغ أن تدمر كانت آنئـذ مدينة تدفع الجزية Ville tributaire « محرومة من الاستقلال تتحكم بها مشيئة الوالي (Legat) . ومؤسساتها الديمقراطية كمجلس الشيوخ والحكام (archontes) ليس لها من السلطة إلا ظلها . وهذا النظام قد يرجع عهده إلى الامبراطور طيبريوس (١٤ – ٣٧ ميلادي) ويتجلى بتغيير مفاجىء في النزعات الفنية خاصة العمارة حيث يحل تأثير انطاكية محل التأثير الاغريقي – الفرثي الذي كانت تدمر اقتبسته من بلاد بابل (١٢١) » وقد بدأ هذا التأثير في رأيه واضحاً في عمارة حرم معبد بل الذي تم تشييده حوالي ذلك التاريخ (١٢٢)

ومهما كان من أمر وصاية روما على تدمر ففي اعتقادنا أن تلك الوصاية لم تتم بقوة الفتح بقدر ما كانت نتيجة طبيعية لمصالح تدمر الاقتصادية واشتباك تلك المصالح مع مصالح الرومان الذين اصبحوا يسيطرون على الطرق والمرافىء في سورية ومصر والأناضول .

وكانت طريق الرافدين قبل الرومان تذهب عبر الفرات شمالا

أو عبر البحر الأحمر جنوباً . ولكن في العهد الروماني أصبحت طرق البادية مألوفة . فمن حمص أو دمشق أو بصرى كانت تتفرع دروب طويلة تلتقي في تدمر التي تشكل مستودعاً كبيراً في الطريق إلى بلاد الرافدين وفارس (١٢٣) وبشيء من التفصيل نقول إنه كانت هناك في العهد السلوقي طريقان رئيسيتان في المنطقة. الأولى شمالية من أنطاكية وسلوقية (السويدية) إلى حلب فمنعطف الفرات. والثانية جنوبية من البحر الاحمر إلى الخليج العربي وقد انتهى دورهما فقد هجرت الاولى عندما قام الفرثيون باحتلال الرافدين في القرن الثاني قبل الميلاد . أما الثانية التي سببت ازدهار الاسكندرية والبتراء فقد ضاع امتيازها مع الفتح الروماني وخلق الولاية السورية من قبل بومبي عام ٦٣ قبل الميلاد ونهضة هذه الولاية بشكل سريع . وكان من مصلحة الرومان والفرثيين المشتركة رغم خصومتهم اعادة النشاط لطريق الصحراء المختصر عبر تدمر وهو مباشر وآمن (نسبياً) واقتصادي (١٢٤) وعلى الراجح لم تعرف تدمر حامية رومانية معسكرة فيها حتى النصف الثاني من القرن الاول الميلادي فكانت تحمي نفسها وتؤمن طرق باديتها ومصالحها بالاعتماد على قواتها الخاصة من الرماة التدمريين الشهيرين من مشاة وخيالة وهجانة . الذين اشتركوا مع الفرق الرومانية في تهديم هيكل اليهود في القدس . وقد جاء في التلمود قول معناه « بالسعادة من سوف يرى نهاية تدمر فقد اشتركت في هدم المعبد الأول والثاني. ففي المرة الأولى قدمت ثمانين الفاً من الرماة وهدم المعبد الثاني ثمانية آلاف (١٢٥) .

ولعل الأمير العربي مالك المذكور في رواية المؤرخ اليهودي يوسيفوس هو الأمير التـدمري نفسه الذي رفـد جيش تيتوس بن

الامبراطور فسباسيان المتهيء لسحق عصيان اليهود . ويرى الأب ستاركي أن مالك المقصود هو من شيوخ تدمر ، اذ أن الاسم العلم مالكو لايضارعه شعبية وانتشاراً اسم علم آخر في تدمر (١٢٦)

ويبدو أن تراجان (٩٨ – ١١٧ م) هو أول من أسس فرقة نظامية تدمرية مساعدة في الجيش الروماني كما أنه هو أول من أقام حامية رومانية في تدمر (١٢٧) وذلك عندما بدأ بمشروعه الذي أراد به ايصال حدود الامبراطورية الرومانية حتى دجلة والخليج العربي . وعني بالطرق الموصلة إلى تدمر وهناك عدد من أميال الطريق متوجة باسمه تم العثور عليها حوالي تدمر (١٢٨) .

وفي هذه الفترة كانت تدمر تتبع لروما وفيها ممثل عسكري لها يتخذ القرارات الهامة . ولم يكن مجلس الشيوخ التدمري (ومجلس التدمريين) من قبله الا بمثابة مجلس بلدي . وفي عهد الامبراطور هادريان (١١٧ –١٣٨ م) الذي مر بتدمر حوالي ١٢٩ م واستقبل استقبالا حافلا أخذت تدمر لقب المدينة الحرة (Civitas libera) الذي يخولها سن ضرائبها وجبايتها بنفسها . وأصبحت تدمر باسم « مجلس الشيوخ والشعب » تقرر وتحكم وتستقل في القضايا البلدية ويمثل الامبراطور فيها مندوب امبراطوري يدعى (Curator) يراقب سير الخزانة كما في جميع المدن الحرة .

وكان هناك فوج من الخيالة التابعة للجيش الروماني يعسكر خارج المدينة لمراقبة الحدود الشرقية للامبراطورية الرومانية . وأهمية تدمر الستراتيجية كانت عظيمة جداً بالنسبة للدفاع عن الفرات . وفضلا

عن ذلك كانت تدمر تقدم قوات عسكرية (Auxiliaires) وعدداً من الضباط خاصة الضباط الفرسان (Equestres)

واعترافاً بأن هادريان أمن لتدمر كل ما تحتاجه من الناحية العسكرية والسياسية والادارية لتوطيد استقلالها أطلقت تدمر على نفسها لقب تدمر الهادرانية (Hadriana Palmyra)
وكانت البتراء قد توقف نشاطها نهائياً عام ١٠٦ ميلادي أثر زوال نفوذها السياسي واستقلالها (١٢٩) فأصبح لتدمر عملياً كل الطرق التجارية في الشرق بين مصر وجزيرة العرب وأوربا من جهة وفارس والهند والصين من جهة ثانية . وأصبحت حلقة أساسية في طريق الحرير الهامة بين الصين والعالم الروماني التي كانت من مسالك التفاعل الحضاري في العالم القديم (١٣٠) . وهكذا عرفت أكبر قدر من الازدهار الاقتصادي فأكملت بناء معابدها الجديدة وجددت بناء القديمة منها أو وسعتها وحسنتها (معبد بل ومعبد نبو ومعبد بعلشمين) وأنجزت بناء السوق العامة (Agora) ثم وسعتها بملحق وبدأت بانشاء الشارع الرئيسي الذي أزال مبان قديمة كثيرة أو عدل مخططاتها أو واجهاتها على الاقل .

وآنئذ كانت علاقة تدمر مع روما على ما يظهر لنا حسنة . ولكن المدينة لم تحظ بعد برتبة « المعمرة الرومانية » (Colonia Romana) (١٣١) وامتيازاتها الا في عهدة الاسرة السيفيرية (١٨٢ – ٢٣٥ م) التي أسسها الامبراطور سبتيم سيفير وأصله من لبدة (Leptis Magna) في ليبيا . تزوج الاميرة الحمصية جوليا دومنا ابنة كاهن الشمس في حمص ورزق منها الامبراطور المقبل كراكلا الذي منح

عام ٢١٢م تدمر اللقب المذكور الذي يسوي تدمر بروما من حيث اعفاؤها من دفع الضرائب. وفي هذا دفع جديد للاقتصاد التدمري . وبالفعل ظلت حركة تدمر التجارية في التحسن ومد الشارع الرئيسي نحو معبده بل وجعلت لــه تلك البوابة الرائعة المشتهرة باسم قوس النصر وأخذت تبني المدافن الفخمة التي اصطلح على تسميتها بالمدافن — البيوت . ووصلت تدمر في جمالها وفخامة عمرانها إلى مصاف كبرى مدائن العهد الروماني في سورية وخارجها .

ولكن كانت هناك في أواخر عهد السيفيريين مفاجأة غير سارة تنتظر تدمر ، ففي العام ٢٢٨ م قامت السلالة الساسانية في بلاد فارس واحتلت مصبات دجلة والفرات كما احتلت مملـكة قرخيذونيا (ميسين) ذات الاستقلال الذاتي عند شط العرب.وسدت على التدمريين طريق الخليج العربي ، وخنقت تجارتهم في هذا الاتجاه ، وأخذت تدمر تفقد تدريجياً الطرق التجارية التي كانت لها وتغادرها تلك الطرق نحو الشمال عبر سهول نصيبين والرها إلى انطاكية . وفي هذه الفترة تقل الكتابات المتعلقة بالقوافل (١٣٢) وفي ذلك دليل أن الثمرات أخذت تشح في جنة القوافل تدمر .

٦ ــ آل أذينة

ازاء هذا الوضع الدقيق أراد ساسة التدمريين أن يوقفوا سير الكارثة المتوقعة التي تقترب منهم عاماً بعد عام وأخذوا يؤازرون روما لاحباط مشاريع الساسانيين التوسعية . ولكن روما لم تكن حالها على ما يرام آنئذ . ولم يكن التوفيق حليفها ضد هؤلاء الساسانيين . فماذا يفعل أهل الرأي والمصالح في تدمر. لابد أنهم أصبحوا أميل لخلع روما

عن الشرق كله ويسعون لتقويم اقتصاده الذي كانوا هم سادته غير المنازعين طوال القرن الماضي على الاقل .

كانت تلك فترة حرجة غامضة . تبدأ حوالي منتصف القرن الثالث الميلادي . ويتبلور فيها الوضع السياسي بشكل امارة تدمرية ذات حكم ذاتي موالية مبدئياً للرومان تلتف حول اسرة تدمرية نعرفها من عهد الامبراطور سبتيموس سيفيروس . وكانت قد حصلت على امتياز المواطنية الرومانية في عهده فأخذ أفرادها يقدمون على اسمائهم لقب سبتيموس . ومن هذه الاسرة سبتيموس حيران **الملقب** رأس تدمر (رش تدمر) وهو والد أذينة أو بالأحرى أخوه (١٣٣) الذي يصبح حاكم ولاية بيده السلطتين العسكرية والمدنية (exarque) . وكانت روما حينذاك تمر بأزمة شديدة فالتنافس على العرش شديد ودموي وأعمار الأباطرة قصيرة .

وفي عام ٢٥٨ ميلادي يصبح أذينة (ابن حيران أو أخوه) ، حاكماً لولاية سورية الفينيقية (١٣٤) وكان منذ العام ٢٢٥ ميلادي يحمل لقب عضو مجلس الشيوخ الروماني . وقد حصل على منصب الحاكم الرفيع في عهد الامبراطور فاليريان ولماسقط هذا الامبراطور البائس اسيراً بيد الفرس الساسانيين ، الذين اجتاحوا بقيادة سابور سورية وكبادوكية واستولوا على انطاكية . استطاع أذينة أن يستفيد من توغلهم الكبير ، ليقطع خط الرجعة على سابور . فيضطر سابور للانكفاء إلى ماوراء نهر الفرات عام ٢٦٠ ميلادي . وحوالي هذا التاريخ يحوز أذينة من الامبراطور غاليان على لقب « مقوم الشرق كله » (متقنادي مرنحا كله) (١٣٥) واتخذ لقب « ملك الملوك (١٣٦)

والعام ٢٦٠ م في رأي سيريغ هو عام تأسيس الملكية في تدمر (١٣٧).
ففي هذا العام أو العام الذي يليه يمنح أذينة لابنه هيروديان لقب ملك الملوك أيضا (١٣٨) وذلك بعد أن انتصر أذينة على مغتصبي الامبراطورية مارسيانوس وباليستا وقتل الأخير في معركة حمص. وهكذا أصبح أذينة ملك ملوك الشرق. وله ولي عهد يحفظ مستقبل الملكية التدمرية.
والتدامرة المعجبون به يتيمنون باسمه فيضيفون لأسمائهم لقب سبتيموس أسوة بسبتيموس أذينة. وهو يحمل رتبة « Dux romanorum » كقائد عام للجيوش الرومانية في سورية. كما يحمل باجماع آراء المؤرخين المحدثين لقب Imperator (١٣٩) ولا ينقصه الا لقب Augustus حتى يصبح امبراطورا بكل معنى الكلمة. على أن كل شيء كان يدل على أنه يتصرف كأمبراطور للشرق. كان سبتيموس أذينة قاهر سابور، زميل الامبراطور غاليان يعتبر من عداد الأوغستيين (أي الأباطرة).
وهو بشكل ماجزء من التاريخ الروماني كما كان في الوقت نفسه قائدا عربيا باسلا في رأي غويلدى (١٤٠) ومهما كان الرأي في كونه « أوغست » فعلا أم لا، فاننا نراه يتصرف وفق مصالح تدمر وحسابها.
ويعمل بحزم وبسرعة من أجل تأمين تلك المصالح. وقد زحف في عامي ٢٦٢ و ٢٦٧ للميلاد على بلاد الفرس الساسانيين. وفي ذلك كانت تدمر تأمل منه أن يعيد مفاتيح تجارتها المسلوبة. ولم تكن روما، على شدة اطمئنانها لأذينة. واستمرارها في استراتيجيتها التقليدية على الثمرات واعتمادها على الخلفاء الأقوياء على تخوم الامبراطورية. لتشعر أن مصلحتها أن يكون هذا الخليف القوي من القوة بحيث يشكل خطرا عليها نفسها. ومن الضروري بحيث يضع مصالحها في المرتبة الثانية.



زينب ملكة تدمر

وفي هذا الظرف الدقيق الحرج يقتل أذينة وولي عهده هيروديان (عام ٢٦٧ أو ٢٦٨) . وقد يكون لقي حتفه معهما ابن آخر هو حيران (١٤١) . وكان ذلك في حمص وعلى يد معنى (Maeonius) ابن اخيه . الذي قيل انه أراد استرجاع ملك أبيه (١٤٢) . وعلى كل حال فان كثيرين كانت لهم مصلحة في قتله ، منهم الحزب المعالي للساسانيين في تدمر . ومنهم الرومان أنفسهم . وهناك من يتهم بذلك زوجته الثانية (أو الثالثة) (١٤٣) زينب (١٤٤) . فالابن الذي قتل مع أذينـــة (أو الابنــان) من زوجة سابقــة . وزينب تريد العرش لصغيرها وهب اللات . وفي رأينا أن ثمة تناقضا بين أن يكون ابن الأخ معنى هو القاتل . من أجل استعادة ملك أبيه وأن تكون زينب هي مدبرة الاغتيال من أجل مصلحة ابنها . وليس من أحد يعرف ماالذي جرى بالفعل (١٤٥) . ومهما كانت الحال فان الذي أعلن نفسه ملكا بعد عمه لم يتربع على العرش سوى أيام معدودات حيث قتله أهل حمص (١٤٦) .

٧ — زينب وامبراطورية تدمر

لم يكن دور زينب في حياة زوجها واضحا . الا أننا نتبين من سياق الأحداث التي تلت موت أذينة أن زينب كانت راجحة العقل شديدة الطموح واعية للوضع السياسي في روما والشرق ، امرأة فذة مثقفة تحب مخالطة الفلاسفة ففي بطانتها لونجين الذي كان يعلمها الآداب اليونانية ، (وكان من قبـل استاذا للريتوريق والفلسفة في آثينا) . وكانت شجاعة ذات جمـال وشخصية آسرة . لعبت زينب سواء بالنسبة لتدمر وللشرق

ولروما دورا هو من الأهمية بحيث جعلها تدخل التاريخ من أوسع أبوابه ، وبوأها مركز الصدارة بين شهيرات نساء العالم وجعل من حياتها وعملها اسطورة خلابة في المرويات الشرقية والغربية . ولقد كفتنا المصادر اللاتينية مؤونة التعمق في صفاتها الخلقية والخلقية . ومن ذلك ماقاله الامبراطور الروماني اورليان عنها في رسالة لمجلس الشيوخ ردا على منتقديه . « يلومونني لأني تباهيت بالنصر على امرأة . انهم ماكانوا يتفوهون بمثل ذلك لو كانوا يعلمون أية امرأة هي ، لو كانوا يعلمون أناتها في المجالس وثباتها على القرارات وحزمها مع الجنود وتسامحها عند الضرورة . ان أذينة مدين لزوجته بنصره على الفرس وفرار سابور من أمامه ووصوله حتى طيسفون (١٤٧) .

ولم يكن حسها السياسي أكثر من ثقافتها . فكانت متفتحة العقل تتكلم بطلاقة التدمرية واليونانية والمصرية . ضمت الى بلاطها كما ذكرنا الفيلسوف لونجين واسقف انطاكية بولس الشميساطي وكانت تحب التـاريخ وقرأت في اليونانية تاريخ روما كما كانت لديها خلاصة بخط يدها عن تاريخ الشرق ومصر وكانت مثل عظيمات التاريخ سمير اميس وكليوبترة والامبراطورات السوريات من اسرة السيفيريين تطمع بأن تترك طابعها على عصرها(١٤٨) .

ويصفها مؤرخو الرومان بأنها كانت « سمراء لوحتها الشمس . سوداء العينين يشع منهما بريق رائع ، أسنانها كاللآلىء وتتكلم بصوت رنان قوي وتخطب بجنودها معتمرة الخوذة . وكانت تركب العربة الحربية وقلّما تعتلي السرير المحمول ولكنها تمتطي الجواد في غالب الأحيـان . وذكر أنها كثيرا ماكانت تمشي على قدميها ثلاثة أو أربعة

أميال مع الجنود كما كانت تحتمل الشمس والغبار وتصطاد مع أذينة في الاحراش والجبال . انها أنبل نساء الشرق وأكثرهن جمالا (١٤٩)

ويتحدث مؤرخو الرومان أيضا عن روعة بلاطها وسخاء ولائمها وتقاليدها . تقدم لهم في آنية كانت تخص كيلوبترة (١٥٠) . وكانت ترتدي ثيابا ملكية مزينة بالارجوان ومنزلة بالحجارة الكريمة . كما كانت مضرب مثل في العفة لاتشرب الخمر الا في النادر . فاذا شربت مع قوادها تفوقت . . . وطيلة حكمها لم تظهر أية منازعة لدى العرب أو الأرمن أو غيرهم (١٥١) .

نعود لسرد الأحداث التي تلت موت أذينة . فنذكر أن وهب اللات ابن أذينة من زينب كان دون سن الرشد فتولى مقاليد الحكم تحت وصاية أمه وهي كما أوضحنا بما فيه الكفاية جديرة بأن يستقطب حولها أمل تدمر الاخير . فأخذت تتصرف في تنفيذ خططها بتأن وحزم وتنتظر الفرصة المواتية .

اكتفت بادىء ذي بدء بأن يتخذ ابنها اللقبين اللذين ورثهما عن أبيه وهما « مصلح الشرق كله » و « ملك الملوك » . . . وسرعان ماتبدو فرصتها سانحة . ففي عام ٢٦٨ م تتعقد أزمة روما حين اغتيل الامبراطور غاليان في ميلان ونصب أحد المتآمرين عليه وهو اوريزيوس نفسه امبراطورا ثم يقتل بدوره ويصبح كلود الثاني امبراطورا .

في ذلك الوقت تبدأ بوادر القطيعة المقبلة بين تدمر وروما . ويذكر زوسيم أن زينب هي التي بدأتها (١٥٢) ونحن لانستغرب ذلك فالوقت مناسب لمخططها فالبرابرة يهددون الامبراطورية الرومانية والنزاع على السلطة في روما حاد . ومصر مهددة بالقراصنة . كانت

الخطوة الأولى في هذه القطيعة أن ابنها وهب اللات ، بناء على تدبيرها يتخذ لقب « قنصل » وكذلك لقب « Dux romanorum » ثم « imperator » . وفي الحق ليس من جديد في هذا فهذه الألقاب كانت لأبيه من قبله ، ثم انه حتى ذلك الوقت يعترف لاورليانوس الامبراطور الجديد بلقبي « أوغست » و « قيصر » وذلك واضح سواء في العملة أو في بعض النصوص التدمرية (١٥٣) وحتى ذلك الوقت لانعرف ماهورد فعل اورليانوس وما هي نواياه . الخطوة الثانية تبدأ عندما تحتل الجيوش التدمرية مصر (١٥٤) واذا أخذنا بعين الاعتبار أهمية مصر الاقتصادية كأهراء من أهراءات روما وسيطرتها على طريق الهند عبر البحر الأحمر الذي ازدادت أهميته بعد اغلاق الساسانيين لمنطقة الخليج العربي . عرفنا ان مصالح تدمر الاقتصادية كانت وراء مخططاتها السياسية والحربية . ان زينب من تدمر ومصر يمكنها أن تراقب بصورة تامة المواصلات بين الهند وعالم البحر المتوسط (١٥٥).

ويروى أن زبدا قائد الجيش التدمري احتل مصر بقوات من تدمر وسورية عامة ومن آسيا الصغرى يقدر المؤرخ زوسيموس عددها بسبعين ألفا . ويشك فيفريه بهذا الرقم . فان الفرقة الرومانية المعسكرة في مصر وهي الفرقة التراجانية الثانية مع افواجها المساعدة لايتجاوز عددها عشرة آلاف فليس من المعقول أن ترسل لها زينب سبعة أضعافها من الجنود (١٥٦) وقد لايكون ذلك في استطاعة تدمر آنئذ اذ كان عليها أن تؤمن جيشا لحماية الشرق من انتقام روما. والمبالغة يقصد بها تبرير هزيمة الرومان أمام الجيش التدمري . ترك القائد التدمري زبدا حامية في مصر . وصادف أن قائدا رومانيا يدعى بروبوس كان مكلفا بتنظيف البحر من القرصان نزل مصر وعلم بوجود القوات التدمرية فحاول

قطع خط الرجعة عليها وتصفيتها ولكنه هزم ووقع أسيرا فانتحر يائسا وبذلك توطد حكم زينب في مصر مؤقتا !

وأعلنت زينب موقفها بصراحة حين اتخذت لقب « الأوغست » الذي كانت تركته حتى الآن وقفا على الامبراطور الروماني . (والأمر واضح من أميال الطريق التي وجدت بين بصرى وعمان وفي جبيل وعلى عملتها الاسكندرية) ففي التاسع والعشرين من أب ٢٧١ ميلادي سكت عملة في سورية والاسكندرية لم تعد تظهر فيها صورة اورليان . ويظهر فيها وهبلات متوجا بالاكليل ذي الأشعة وهو رمز الاباطرة الانطونيانيين وعليه نص (الامبراطور قيصر وهبلات) كما أن الملكة الوالدة تحمل لقب الاوغست والسباسطي (سبتيما زنوبيا اوغست) وفي المرحلة التالية أرسلت جيشها للأناضول تحت قيادة زبدا على الراجح . فوصل حتى مضيق البوسفور . وبامتلاك مصر وسورية والبوسفور معا وضعت تدمر تحت سلطتها كل منافذ طرق المواصلات البرية والبحرية مع الشرق الأقصى والمصادر الرئيسية لتموين روما في الوقت نفسه (١٥٧) .

وكان اورليان يوطدعرشه الجديد ويؤمن حدود الامبراطورية على الدانوب ولعله كان مهادنا بالظاهر ومقرا بما يجري لعدم تمكنه من عمل شيء . وحين اطمأن الى الوضع في الغرب قرر الانخراط في معركة الشرق فسار حتى وصل الأناضول فتركه زبدا قائد القوات التدمرية يعيد احتلال المدن مستعدا للصدام به عند انطاكية عاصمة سورية وهناك وافته زينب . وفي الوقت نفسه تقريبا (قبل آب ٢٧٢ م (١٥٨) استعاد مصر قائد روماني اسمه بروبوس أيضا (وهو الامبراطور المقبل) .

وعند انطاكية على العاصي وقفت زينب واورليان وجها لوجه وكان ذلك في وقت غير محدد بين كانون الثاني وصيف ٢٧٢ ويمكن أن تكون معركة استعادة الممتلكات هذه في حقيقتها معركة من أجل عرش روما .

وفي النزال الذي قاده زبدا كانت الغلبة للرومان والسبب كما يذكر عادة هو لجوء اورليان للحيلة وتظاهره بالتقهقر بخيالته الخفيفة ولحاق الخيالة التدمريين المثقلين بالدروع بهم حتى تستنفذ طاقتهم وحين ذلك ترتد خيالة الرومان عليهم وهم مجهدون فتهزمهم . ولكننا لانعرف ماذا حدث بالفعل . اذ أن زبدا رجع لانطاكية بحالة حسنة كأنما المعركة لم تكن حاسمة . وهناك يشيع خبر انتصاره وأسره لأورليان . ومع ذلك يترك انطاكية تحت جنح الظلام ويواصل المسير حتى حمص استعدادا للمعركة الفاصلة .

يدخل اورليان انطاكية ويتريث باللحاق بجيش زينب ولعلّه كان بانتظار بعض الامدادات (١٥٩) ثمّ يلحق بزينب ملاقيا بعض المقاومة في طريقه حتى وصل سهل حمص في آب ٢٧٢ ميلادي حيث كان زبدا القائد العام لجيش زينب مع ٦٠ ألف مقاتل من عرب وسوريين عموما يتألفون من الخيالة الثقال ومهرة الرماة فضلا عن المشاة ولعلّ معهما حامية تدمر مع قائدها (١٦٠) .

وليس لدينا هنا أيضا مصدر تدمري أومحايد لنعرف ماحصل على الدقة فالمصادر الرومانية تقول عندما دقّ نفير المعركة انهزمت خيالة اورليان ولكنها لم تتبعثر فكانت لخفتها تتجمع وتتعب الخيالة التدمرين بسرعة مناورتها . ولما بلغ منهم التعب كل مبلغ تصدت لهم فيالق المشاة

الرومان والأفواج المساعدة من كل جانب وأنهكتهم وجعلت الفوضى تدب فيهم لتأخذ مأربها منهم بسهولة ، وحصلت مقتلة كبيرة بين الطرفين وانطوى الجيش التدمري يحتمي بأسوار حمص . وهناك عقدت زينب مجلسا حربيا . واتفق المجتمعون على الانكفاء حتى تدمر والاستعداد هناك لمعركة الحياة أوالموت . وفعلا سلكت زينب وجيشها طريق تدمر بينما دخل اورليان حمص وغنم ماتركته زينب من عتاد وتجهيزات وأموال وزار معبد المدينة وقدم لربها تقدمات كبيرة ونسب له النصر الذي لاقاه ، ثم لحق بزينب ملاقيا مع جيشه عناء كبيرا من القيظ وغارات الأعراب فلم يصل تدمر قبل اسبوع . والمفروض أن زينب تحشد الجيوش في مدينتها وتحكم آلات الدفاع وتتفقد أسوار المدينة وتعبيء مهرة الرماة ..تى في المدافن البرجية . ولكننا لانستطيع الاعتقاد بأنها في هذه المدة القصيرة استطاعت أن تزيد في تحصين اسوار المدينة فمن المؤكد أن المدينة كانت معدة لاحتمالات الخطر منذ قيام زينب بمشاريع التوسع ان لم يكن منذ قيام أذينة بالحرب ضد الساسانيين (١٦١) .

وكان اورليان يعرف أن الفريسة ليست سهلة المأخذ وانه هنا ليس بصدد تكتيك الفرسان الثقال والخفاف ولكنه أمام معركة وطنية . فضرب الحصار بعد أن أمّن تموينه بشكل ما . وذلك ليمتحن المدينة فعسى أن يفت في عضدها الجوع أوالعطش(١٦٢) فضلا عن أن المحاصر قد يجوع في بادية معادية ، ولكن اورليان متشبث بالمعركة وبقطع الامدادات العسكرية التي ترد لزينب من الهجانة العرب أو من الساسانيين أوالأرمن بمختلف الطرق(١٦٣) وحدثت خلال الحصار مناوشات بالسهام بين المدافعين والمهاجمين ومراسلات طريفة بين زينب وأورليان وقد ذكرت

في المصادر الرومانية بالتفصيل ولانعرف مدى صحتها وانطباقها على الحقيقة ونرد بعضها فيما يلي :

قيل أنأورليان كتب لها يقول من امبراطور العالم الروماني قاهر الشرق أورليان الى زينب وحلفائها يطلب استسلام زينب ويعرض عليها الابقاء على حياتها بشرط أن تذهب مع أهلها وحاشيتها للسكن حيث يشير لها الامبراطور بعد أخذ رأي مجلس الشيوخ وأن تدفع للخزينة روما حجارة كريمة وذهبا وفضة وحريرا وخيلا وجمالا . كما يعرض عليها لقاء ذلك أن يحتفظ أهل تدمر بقوانينهم . فتجيبه زينب : « من زينب ملكة الشرق الى اورليان اوغست : لم يجرأ أحد قبلك أن يطلب مني في رسالة ماطلبته مني . في الحرب كل شيء يحسم بالشجاعة . انك تطلب مني الاستسلام الا تعلم أن كليوبترة فضلت الموت كملكة على أن تعيش بذل . ستأتينا امدادات من فارس . ان أشقياء سورية قد قهروا جيشك فاذا جاءتني الامدادات من كل جانب ستتخلص من غرورك وتتوقف عن طلب استسلامي كما لو كنت منتصرا في كل مكان(١٦٤) ويروى أن زنوبيا قررت أن تقصد سابور ملك الفرس الساسانيين بطالب النجدة فتسللت من المدينة على بعير سريع ومعها فئة من أنصارها وأدلجت في درب خفي حتى وصلت الفرات وفي أعقابها كوكبة من فرسان الرومان وماكادت تنزل القارب لتجتاز النهر حتى حيل بينها وبين الوصول للضفة الأخرى وأعيدت الى معسكر اورليان .

ان أسر زينب اذا ما أضيف الى نضوب خيرات تدمر النرة خلال هذا الحصار الطويل الذي استمر حتى خريف ٢٧٢ وفقدان كل أمل في أمل في الخلاص وجنوح بعض المتخاذلين لطلب الصلح كان أكثر من

كاف لاستسلام تدمر رغم وجود فئة كبيرة كانت تدعو للمقاومة حتى الموت . وكان من الممكن أن تكون تدمر قرطاجة ثانية . ولكن أجلها لم يحن بعد وأمامها شهور معدودات كي تموت بشرف .

وخرج التدمريون مستسلمين في خريف ٢٧٢ م ودخل الجيش الروماني مدينتهم الجميلة الغنية ووضع يده فيها على غنائم كبيرة . ثم انسحب اورليان قاصدا انطاكية تاركا حامية في تدمر . ولما وصل حمص قتل بعض التدمريين ومنهم لونجين مستشار زينب(١٦٥)ومن المحتمل أنه قتل أيضا زبدا قائد جيشها (١٦٦)

ويروى أن الجنود الرومان كانوا يطالبون بقتل زينب . ولكن اورليان وفرها لموكب النصر في روما . ومن قائل أنها ماتت في طريقها الى روما مرضا أوامتناعا عن الطعام(١٦٧)ومن قائل أنها وصلت روما وعاشت فيها مدة (١٦٨) كما سوف نرى .

وما كاد اورليان يصل الى أوربا حتى ثارت تدمر بقيادة آبسوس Apsoeus (١٦٩) وقتلت الحاكم الروماني وستمائة من الجنود كانوا يشكلون الحامية الرومانية.وعين آبسوس أنطيوخوس أحد أقرباء زينب أو أباها ملكا على المدينة(١٧٠) ويقال انه عين شخصا يسمى آخيل . وسرعان ما استجابت مصر وثارت واعترفت بتدمر مرة ثانية وهددت روما بالمجاعة لانقطاع الطرق من جديد ولكن اورليان الذى علم بخبر انقلاب تدمر من مارسيلينوس حاكم بلاد الرافدين عاد فورا ودخل تدمر في ربيع ٢٧٣ م وتركها نهبا لجنوده يسلبونها ويوقعون بها التدمير (١٧١) .

وفي عام ٢٧٤ م عاد اورليان الى روما وأقام موكبا لم يسبق له مثيل سار فيه الجنود واعضاء مجلس الشيوخ والفيلة والوحوش الضارية وبين

الأسرى من مختلف الشعوب كانت تسير زينب تنوء بمجوهراتها وبقيود الذهب في عنقها وأطرافها . كما ذكر أن الاستعراض ضم العربة التي كانت الملكة قد أعدتها لتسير بموكب الظفر في روما(١٧٢) .

وقد ذكر ملالاس أنه أطيح برأسها بعد موكب النصر(١٧٣) كما ذكر بعض المؤرخين أنها عاشت حتى بعد مقتل اورليان وتزوجت أحد أعضاء مجلس الشيوخ وقضت أيامها في فيلا ببلدة تيبور على بعد عشرين كيلومترا من روما قرب قصر هادريان وكان هناك بعض أحفادها في القرن الرابع الميلادي .

وفي الختام ، هذه المرأة التي كادت تصبح ملكة العالم قد جمعت الى الجمال متانة الخلق والثقافة الرفيعةفضاهتسميرا ميس في نفوذها وكليوبترة في مهارتها وجوليا دومنا في ثقافتها دون أن تكون متعطشة للحكم كما يحلو للمؤرخيين أن يتجنوا عليها . . . . انها كانت تستحق مصيرا أفضل وأن وطنها ليرى فيها واحداً من أكبر أمجاده (١٧٤)

★ ★ ★



زينب



أورليان



وهب اللات

الفصل الخامس

التدمريون

١ — مسألة الأصل

ان مدينة تدمر كغيرها من مدائن بلاد الشام تقلبت عليها موجات شعوب الجزيرة العربية البائدة كالكنعانيين — الأموريين والآراميين وغيرهم . ثمّ أخذ العنصر العربي — بالمعنى الأصلي للكلمة يغلب عليها تدريجيا اعتبارا من مطلع الألف الأول قبل الميلاد . حتى أصبح هذا العنصر في حوالي العهد السلوقي هو النواة الثابتة في تدمر والغالبة عليها . وتلك نتيجة توصل اليها الباحثون ونوّه بها البعض تنويها وأكدها البعض الآخر تأكيدا جازما (١٧٥)

كما أكدت أحدث دراسة لأسماء الأعلام التدمرية ١٧٦ .

وكانت القبائل العربية في بادية الشام ترفد مدينة تدمر بصورة خاصة نظرا لكونها أكبر مركز في تلك الأرجاء ولا قتصادها التجاري القافلي الذي يحتاج للرجال والخيل والجمال وتوطيد العلاقات البدوية الحضرية على أسس المصلحة المشتركة والعرب هم الغالبون على تلك البادية بصورة مؤكدة كما ذكرنا منذ القرن التاسع قبل الميلاد ولهم فيها امارات وملوك . وأول ذكر لهم باسمهم الصريح كان في المصادر الآشورية وفي العام ٨٥٤ ق . م . (١٧٧) وقد أنشأوا دولة الأنباط منذ حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ، « ونراهم منذ القرن الثاني قبل الميلاد يؤسسون امارات في حمص ، وتدمر ، والبتراء وفي جبل لبنان

وجنوبي دمشق وفي حوران (١٧٨) وكانوا سادة السهوب كما يقول كانتينو (١٧٩) . ان تدمر للاعتبارات التي ذكرناها منذ قليل كانت من أهم مراكزهم وأقدم الكتابات التدمرية حافلة بالأسماء العربية الصريحة سواء بالنسبة للأشخاص أو القبائل ولنقرأ مثلا أقدم نصوص تدمر من العام ٤٤ قبل الميلاد (١٨٠) نجده يقول :

في شهر تشرين سنة ٢٦٩ (سلوقي) أقام كهنة بل هذا الصنم لجديمي (أو جريمي) بن نبو زبد من فخذ بني كاهن نبو .

والنص فيه عدة دلالات عربية كاسم جديمي أو جريمي (١٨١) تعبير فخذ للدلالة على قسم من العشيرة (البطون والأفخاذ) وكلمة كاهن (١٨٢) هذا وان في النصوص التدمرية أسماء عربية صريحة وأكثرها من القحطانية منها مالك (١٨٣) سعد ، تيم اللات ، وهب اللات زبيد، كهيل ، معنى ، مقيم ، أذينة ، أفيان ، حجاج حتى واسم كمي (١٨٤) وحطيط أو حطىء (١٨٥) وحكيش (١٨٦) وأبجر (١٨٧) وعجيل وعويد وعمر أو عمرو (١٨٨) وأنعم وأبين وأهود (١٨٩) وأوس (أوشي) وأيدعان (١٩٠) وبأسماء النساء مثل سلمى ولبنى (١٩١) وأمه وسمية (١٩٢) ولا يندر في أسماء الأعلام التدمرية أيضا بعض الأسماء المشتقة من أسماء الحيوان والنبات والطبيعة والأسماء القبيحة أحيانا على عادة الأعراب في البادية .

وهذه الأسماء التي أتينا على نماذج منها تجعلنا نطمئن الى ماذهبنا اليه في موضوع أصلهم ولكن نضيف الى ذلك أن التدمرين قبائل « جبليا » و « أفخاذ » « بحديا » وكل منهم من « بنـو » فلان وفلان يسلسل نسبه الى الجد وجد الجد أحيانا وتلك العادة أبرز ماتكون عند العرب ،

خاصة وان كل سلسلة نسب تدمرية قل ان تخلو من اسم عربي صريح . واذا كان هناك تدمري يحمل اسما غريبا أو أعجميا أو على « الطراز الحديث » أو كان يحمل رتبة تؤهله لحمل لقب روماني مثل « يوليوس » أو « ماركوس » أو « سبتميوس » فان اسمه الثاني أو اسم ابيه أو جده ينم صراحة عن أصله . ونضرب مثلا على ذلك قائد احدى كتائب الرماة التدمريين المسمى ماركوس أو ليبوس ابناروس فهو يحمل اسم أبجر التدمري العربي الصريح وزميله م. آسيليروس اتينودوروس قاسم التدمري وهب اللات(١٩٣)لان اللات وحدت بالربة آثينا في تدمر(١٩٤) ووهب اللات بن زينب ملكة تدمر يسمى في النقود اثينودورس كما ذكرنا من قبل . وهكذا فان ترجمة الأسماء التدمرية لاتطمس في أكثر الأحيان أصل الاسم .

ولم يعبد التدامرة من أرباب العرب اللات فحسب بل كانوا يعبدون من أرباب العرب : اللات والعزّى (عزيزو) ومنوة وأشر (أو أسد) ومعن وأبجل وشأنهم كالانباط والثموديين واللحيانيين وعرب الصفا في تمثيل أربابهم على الجمال والخيول وفي اضفائهم عليها ألقاب الرحمن والرحيم والطيب والشكور الخ . وكانت المعتقدات الشعبية في تدمر تغلب عليها العبارات والمعتقدات والطقوس العربية(١٩٥) كالطواف والمواكب (١٩٦) والنحر (١٩٧) والايمان بالبتل (جمع بتيل = بيت اله) والاعتقاد بالجن الطيبين الحاضرين (جنيا طبيا شبيبيا) (١٩٨)

ولا نجد في تدمر ، أو لم نجد حتى الآن ، لا في النصوص ولا في تمثيل الأرباب ، مايدل على وجود الرب حدد.ولا أي معبود آرامي آخر . فضلا أن معبد الرب بل — الذي هو بالأصل رب بابلي رافدي — لا يعرف الا طقوسا ومراسم عربية .

وبحسب فرضية جديدة فان الرب بعلشمين الرأس الثاني لمجمع الأرباب التدمريين الوارد من الساحل الكنعاني ، قد يكون أتي من هناك بوساطة العرب عبر الجنوب الشرقي فدمشق فالضمير فالقريتين « نزالا » القديمة وتدمر (١٩٩) ومن هناك بواسطة التدمريين الى الفرات .

وفي العهد المسيحي شارك اسقف تدمر (تاواتيموس) في اجتماعات مجمع انطاكية (عام ٣٦٣ م) وكان يلقب بأسقف العرب (٢٠٠) وفي ذلك دليل واضح على أن تدمر كانت تعتبر عربية في العهد البيزنطي كما كانت في العصور السابقة .

٢ ـــ مسألة اللغة التدمرية

ان المرء يستطيع أن يستنتج من بحثنا في مسألة أصل التدمريين أن اللغة العربية ـــ بلهجاتها الشمالية على الأرجح ـــ كانت لغة أصلية في تدمر ويتخاطب بها التدمريون في حياتهم اليومية . أما لغة الكتابة فهي بالتأكيد الآرامية . وتستخدم اليونانية مع الآرامية في الكتابة المنقوشة الدينية والتذكارية .

والآرامية كلغة مكتوبة كانت تسود الشرق الأوسط بكامله في ذلك الحين . فقد لاقت أكبر انتشار لها في الألف الأول قبل الميلاد واستعملت في كل بلاد الشرق القديم . وجعلها الفرس الأخمينيون (٥٣٩ ـــ ٣٣٣ ق . م) احدى اللغات الرسمية وانتشرت في امبراطوريتهم ووصلت الى الهند وحدود الصين .

وفي العهدين الهلينستي والروماني ظلت اللغة الآرامية أكثر اللغات المكتوبة استعمالا في الشرق على الرغم من وجود اليونانية رسميا كلغة للسلوقيين ومن ثمّ للرومان في الشرق .

ولاشك في أن تدمر التي كانت صلة الوصل بين بلاد الرافدين وسورية كان لابد أن تتبنى بصورة طبيعية اللغة التي يستعملها جيرانها وعملاؤها وزبائنها(٢٠١)وهي تستخدمها حتى في عهد آل أذينة. واستعمال الآرامية المكتوبة هو الذي أثار الجدل في أصل التدمريين . ومن البديهي أنه لاعلاقة للغة بالأصل دوما ـــ سواء اللغة المحكية أو المكتوبة -- والأمثلة في عصرنا كثيرة . واذا عدنا للعهد القديم نجد على سبيل المثل عربا لايشك بعروبتهم يستخدمون الآرامية كالأنباط مثلا وعرب الحضر . وحتى في واحة تيماء بقلب الحجاز (٢٠٢) وكذلك الأمر في نص امرىء القيس المعروف بنقش النمارة حيث يقول غويدي : « انها عربية قديمة تحتفظ مع ذلك بكلمات من أصل غير عربي مثل « نفش » التي تدل على شاهدة قبر . و « بر » بدلا من « بن » واللغة المكتوبة تتأثر باللغات الأخرى أكثر من اللغة المحكية بطبيعة الحال . وهذا الاختلاف بين اللغة المكتوبة واللغة المحكية لدى الشعب نفسه ليس بمستغرب فتلك الحال موجودة لدى العرب الأنباط . وبما أن عربيتهم لم تكن قد كتبت بعد فان كتاباتهم حررت بلغة آرامية يستشف المرء فيها اللغة العربية (٢٠٣) .

ومهما كان من أمر الجدل في هذا الموضوع فان اللهجة الآرامية المستعملة في الكتابات التدمرية هي آخر مظهر من مظاهر آرامية أصيلة يطلق عليها علماء اللغات الآرامية الامبراطورية تمييزا لها عن بقية اللهجات الآرامية . والتدمرية كلهجة آرامية ذات ميزات شرقية كما أن فيها بعض خصائص اللهجات الغربية ، والجدول يوضح لنا مكانة اللغة التدمرية بين اللغات المصطلح على تسميتها باللغات السامية .

السامية الأم (موطنها الجزيرة العربية ... لغة الإنسان الأول الذي نشأ في تلك البيئة الطبيعية)

- الشرقية
  - الأكادية ، البابلية والآشورية
- الغربية
  - الغربية الشمالية
    - الكنعانية وفروعها
    - الآرامية
      - قديمة منها أربعة فروع . أهمها الآرامية الامبراطورية
      - حديثة منها ثمانية فروع منها التدمرية
  - الغربية (الجنوبية) أو العربية الأم
    - العربية الشمالية
      - عربية الكتابات اللحيانية والثمودية والصفوية
      - عربية قريش
    - العربية الجنوبية
      - السبائية والمعينية
      - الحبشية

والكتابة التدمرية شكل من أشكال تطور الكتابة الآرامية وهذا الشكل شبيه جدا بالكتابات الآرامية في برديات الالفانتين في مصر (قرب أسوان) التي تعود للقرن الخامس قبل الميلاد . عدد الحروف فيها ٢٢ حرفا تكتب من اليمين الى اليسار :

أ ب ج د   هـ و ز   ح ط ي   ك ل م ن   س ع ف ص   ق ر ش ت

والأرقام :

١	٢	٣	٤	٥	١٠	٢٠	١٠٠

والأخيرة مثل ١٠ ولكن تعرف من مكانها .

والتدمريون يؤرخون كتاباتهم بالتاريخ السلوقي (تشرين الأول ٣١٢ قبل الميلاد) وفي التحويل للتاريخ الميلادي من كانون الثاني حتى ايلول نطرح من التاريخ ٣١١ ومن تشرين الأول حتى كانون الأول نطرح ٣١٢ فيتبين لنا التاريخ الميلادي (الفرنعوري)

والكتابة التدمرية من أجمل الكتابات المعروفة وقد أدخلت تحسينات مستمرة عليها حتى أصبحت تضاهي الكتابة اليونانية المعاصرة لها في اتساق حروفها وتناسبها . وتكتب التدمرية بنوعين من الخط :

١ — الخط القاسي

وهو الذي ينقش على الحجارة بالازميل ومعظم النصوص على الأوابد الأثرية في تدمر محررة بهذا الخط المذكور وكانت حروف الخط القاسي مدوّرة في القرن الأول الميلادي ثم أخذت تتطور تدريجيا حتى أصبحت منكسرة في القرن الثالث الميلادي . وأقدم كتابة معروفة بهذا الخط تعود للعام ٤٤ قبل الميلاد وأحدثها هي من عام ٢٧٢ بعد الميلاد (٢٠٣)

٢ — الخط اللين

وهو الخط الذي يكتب بالفرشاة أو الريشة أو القلم وبعض النصوص المحررة به تكتب من الأعلى الى الأسفل في المدافن . وهو بالأصل يكتب به على أوراق البردى ورق الغزال . والخط اللين هو تبسيط للخط القاسي وله طابع فردي والكثرة من الكتابات التدمرية التي عثر عليها خارج مدينة تدمر محررة به ، ولعلّ الخط السرياني الشطرنجيلي قد نشأ عنه (٢٠٤)

ولنبين موقع الكتابة التدمرية بين الكتابات المتفرعة من أبجدية جبيل:

* * *

الفصل السادس

الاقتصاد التدمري

تدمر مدينة قوافل وتجارة

١ ـ خصائص المجتمع التدمري

جعل الازدهار الاقتصادي تدمر واحدة من أمهات المدن. وفي الفترة التي نحن بصددها، وبخاصة في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، كانت واحدة من مدائن الشرق الذائعة الصيت. وهي وان تكن أصغر من انطاكية والاسكندرية حجما فلم تكن أقل منها أهمية اقتصادية وشهرة سياسية.

وقد صعدت تدمر بسرعة الى القمة. ويشبه صعودها هذا عادة بصعود بعض مدائن ايطاليا وغربي أوروبا في عصر النهضة الأوروبية. وقد ساعد على هذا الصعود السريع أفول نجم البتراء بعد سقوط دولة الأنباط عام ١٠٦ ميلادي وانشاء الولاية العربية مكانها من قبل الامبراطور الروماني تراجان.

وقد تهيأت في تدمر فرصة ذهبية لبروز طبقة ارستقراطية تضم التجار وأصحاب القوافل والوسطاء والوكلاء والصيارفة. وقد بلغت هذه الطبقة في الثراء شأوا بعيدا وساعدها على ذلك اقامة حكم «اوليغارشي» في خدمة الاقتصاد التدمري يؤمن له الحماية ويعصمه من المنافسة.

وتجمعت في خزائن الارستقراطية التجارية التدمرية ثروات ضخمة من عملياتها الاقتصادية الواسعة التي غطت أجزاء كثيرة من العالم القديم. فكان التجار التدمريون يصرفون شؤون جانب هام من المبادلات

الاقتصادية بين الشرق الأقصى وعالم البحر المتوسط كما سوف نرى .
وتعترف الامبراطورية الرومانية بخدمات التجار التدمريين ولهم مراكز تجارية في قلب بلاد الفرثيين (Volgesiade) (على الفرات جنوب بابل) وفي اقليم خرقيلدونيا (Spasinou Charax) ذي الحكم الذاتي (مكان المحمرة حالياً عند الخليج العربي) وهو أيضا معروف باسم ميسان على الخليج العربي (٢٠٤) وعلاقاتهم متصلة بالجزيرة العربية وبحر العرب والمحيط الهندي وبلاد السكيث وأرمينيا والأناضول . ويضاف الى غنى هذه الطبقة في تدمر غنى خزينة المدينة من مصادرها البلدية الخاصة ومن الرسوم الجمركية الباهظة التي تجنيها من القوافل .

غنى الارستقراطية التجارية وغنى مدينتها الصاعدة، أشاع الولع بالترف والبذخ والأبهة . ففي ذلك تدعيم للثقة بالتجارة التدمرية والتجار التدمريين كما كانت المنافسة شديدة على ابتناء المعابد الضخمة الرحيبة من قبل أفراد تلك الارستقراطية.فالتقى مجلبة للثقة . والمعابد لها مواسم وتجتذب أعداد كبيرة من الناس يستنفذون بضائع ساقها التجار من وراء البحور والقفار . والمنافسة أشد على أن يخلد أبناء تلك الطبقة أنفسهم في تماثيل لاتعد ولا تحصى منتشرة في جنبات الآغورا (السوق العامة أي الفوروم) والشارع الطويل والساحات . وترى في الحمامات والمسرح وقاعات الولائم والمجالس العديدة دليلا على اكتمال الحاجات الروحية لهؤلاء الناس . ولكن تنافسهم على البذخ في انشاء مدافن مترفة مكلفة تضم جميل الزخرفة والتزويق ولطائف النحت لم يكن موجها نحو راحتهم الى ابد الآبدين « لعالما » بقدر ماهو موجه للمباهاة في الحياة الدنيا (٢٠٥) .

والمجتمع التدمري الذي ذكرنا أنه يقوم بصورة أساسيةعلى التجارة والقوافل كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالبداوة واقتصادها القائم على تربية المواشي كالغنم والجمال والخيل التي تؤمن حاجات التجارة والغذاء للتدمريين ومتطلباتهم في السلم والحرب.وعلى هذا بقي المجتمع التدمري حتى انهياره مجتمعاً نصف حضري مشتبكا مع البادية. وقطاع الزراعة يكاد لايذكر يعتمد على البستنه في الواحة وبعض زراعات الحبوب من حولها . ومن العاملين في الزراعة ومن الحرفيين والتجار الصغار والملاكين الصغار ومربي المواشي والعسكريين المتقاعدين والكتبه الخ . تشكلت طبقة وسطى أفرادها لايتفاوتون كثيرا في ثروتهم وهم من الأحرار أو من المحررين .

وفي هذا المجتمع التجاري نصف الحضري الذي يضم ارستقراطية تجارية ـــ مالية وفئات وسطى مرتبطة ارتباطا وثيقا بالارستقراطية التجارية كانت هناك طبقة عبيد تقوم بتنفيذ كل المهمات التي تتطلبها التجارة والزراعة والحرف كما سوف نبين .

٤ ـــ العبيد :

لم يصلنا من أخبار العبيد في تدمر الشيء الكثير ، ويخيل لنا أننا رأينا بيوتهم في مقالع تدمر وهي أشبه بالقبور ـــ فعلالا مجازا . كما نعرف أسماء بعض العتقاء منهم في المدافن التدمرية وغيرها (٢٠٦) وصورهم في خدمة السادة الذين كانوا يزجون الفراغ بالصيد والقنص وحضور الولائم ، كما عرفنا في القانون المالي شيئا عن الرسوم على ادخالهم واخراجهم وبيعهم . والواقع أن تدمر ، كخط عام ، كانت تعيش الفترة المسماة بفترة العبودية ، أي أن مجتمعها كانت عملية الانتاج فيه تقوم أساسيا على العبيد الذي يشرون نساءا ورجالا كالسلع .

ولأسيادهم حق بيعهم واستثمارهم والاستمتاع بهم وعقابهم وقتلهم :
وأعمالهم الأساسية في المقالع والملاحة وفي معاصر البطم والعنب وسياسة الخيل والابل وجر الاثقال وكرى الترع والآبار . وفي العالم القديم كان عدد العبيد يدل على المستوى الاجتماعي للسيد . ومن المرجح أن تكون الارستقراطية التدمرية مثل الفرثيين تريد أن تحيط نفسها بعبيد مسلحين .
وفي رأي فيغربيه أن تدمر كانت تسهم في تيار استيراد العبيد الاسيويين الى روما (٢٠٧) . وقد ذكر الأب ميليك وجود عبد أو بالأحرى معتوق من معاتيق المدينة (affranchi municipal) وهو شخص ذوسلطة يقــوم دون شك بدور مساعد لمحتسب المدينــة . . . . وان القوامة على نبع افقا كانت تضم أيضا مأمورين من المعاتيق وكذلك الأمر بالنسبة لبعض الوظائف في معبد بل (٢٠٨)

٢ ـ القوافل التدمرية ورجالها

يبدو لنا من استعراض خصائص المجتمع التدمري في الصفحات السابقة أن المواطن التدمري من الاحرار الميسورين كان تاجرا قبل كل شيء بل على وجه التحديد صاحب قافلة أو مشتركا بهــا أو مرتبطا بشؤونها بشكل ما . القافلة في تدمر هي النشاط الأول والأساسي. ولقد أصاب م .ا. روستوفتسيف حين أطلق على تدمر اسم مدينة قوافل (Caravancity) (٢٠٩). واذا كانت في الشرق مدائن قوافل عديدة فان تدمر هي مدينة قوافل بالمعنى الكامل . ومن خلال هذا المنطلق نعرف شيئا هاما عن الاقتصاد التدمري والتركيب الاجتماعي التدمري حتى وكثيرا من المعتقدات والمفاهيم التدمرية . بل أكثر من ذلك نفهم من هذا التعريف نفسه ميلاد تدمر وازدهارها السريع في القرن الثاني الميلادي ومن ثم ضعفها وموتها

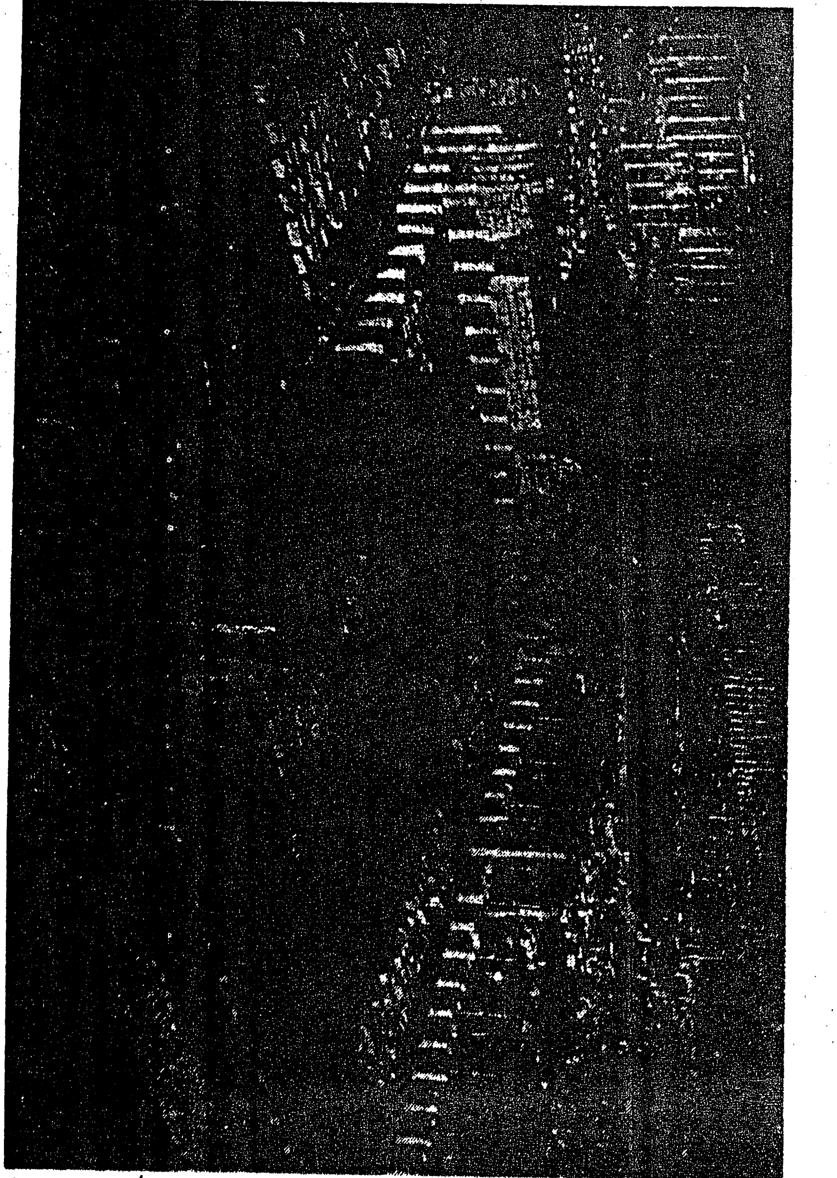


تدمري من رجال القوافل .

والتجار ، وتجار القوافل خاصة ، هم المصدر الأول لتولي المهمات العظمى في المدينة كالكهانة والسدانة وعضوية مجالس الشيوخ والوظائف العامة والقيادات وزعامة الأخويات الدينية . وأصحاب القوافل وحماتها نصبت تماثيلهم على حوامل الأعمدة في الشوارع والساحات والسوق العامة لايعلو عليهم مقام حتى مقام أذينة وزينب اللذين كان تمثالا هما على حاملين عاديين قرب المسرح : . واننا لنردد قول روستوفتسيف : « هؤلاء الأمراء التجار . . . هم سادة المدينة الحقيقيون » (٢١٠)

وفي تقديرنا أن النشاط التجاري القافلي كان يشمل أكثر سكان تدمر اذا أضفنا الى التجار وشيوخ القبائل والرجال العاملين بها القائمين على شؤون الابل والخيل والمنوط بهم أمر التفريغ والتخزين والتوزيع وأصحاب الدكاكين والعبيد والسماسرة .

وكل شيء في تدمر معد للقافلة وتسهيل مرور الابل ومن ذلك أن الشوارع التي تمر بها القوافل غير مبلطة كالشارع الرئيسي بأقسامه الثلاثة ، والشارع العرضاني المؤدي إلى بوابة دمشق والشارع المؤدي إلى البوابة الغربيةوراء المسرح. وكلها ليست مبلطة فالابل تتأذى بالمسير فوق البلاط خاصة في حمارة القيظ ، وصيف تدمر الطويل . وكذلك الأمر بالنسبة لأرض السوق العامة « الآغورا » وملحق الآغورا ومحطة الابل الواسعة حول المسرح . ثم ان الأبواب المشرعة في الآغوارا وملحقها . والمخازن العالية الأقواس مهيأة لمرور الجمال بأحمالها . وحوامل التماثيل في الشارع الرئيسي عالية ويصعب قراءة نصوصها الا من ظهور الابل وقد تكون رفعت عالياً من أجل هذه الغاية. وأكثر من ذلك اننا لنجد شيئاً خاصاً بديانة تدمر تكاد تنفرد به عن غيرها



منظر جوي للآغورا عام ١٩٦٢ .

من الديانات وهي أن بعض أربابها كانوا يمثلون على الابل والخيل خاصة في الجبال المحيطة بتدمر . . .

والنصوص التدمرية المتعلقة بالقوافل وتجارة القوافل في تدمر وفيرة نجدها في المعابد والأسواق والآغورا ولكن فيها شيئاً قليلا عن التنظيم الداخلي للقافلة مع الاسهاب فيما يتعلق بتجارة القوافل (٢١١) . على أننا نتصور بحق أن القافلة التدمرية لاتخرج في تنظيمها عن القواعد التي ظلت سائدة في بوادينا إلى وقت قريب. وتقوم على وجود عناصر أساسية في القافلة كا (لريس أو شيخ القفل) والحرس ، والكشافة ، والمكارين ، وتتبع نظام المراحل في المسير وفصلاعن حراسها تكون القافلة بوجه (أي بحماية) أحد رجالات البادية أو تدمر (٢١٢) والمفروض أن لايتعدى عليها أو يغزوها أحد لأن في ذلك « قطع الوجه » وفي هذه الحال تدب الحرب بين الغازي والحامي أو تؤدي الغرامات المنصوص عنها في نظام القوافل والقبائل . على أننا لانستبعد نظام الخوة وهي تسود عند أختلال الأمن أو في منطقة نفوذ خاصة وهي شيء من الترضية ويشابهها في ذلك نظام الهدية (أو الخدية) كما يقول الاعراب ، وهي نوع من المجاملة لفرسان عابرين وفضاً لمشكلة قبل أن تقع . ويمكن التصور بأن مجيء القافلة وذهابها كان حدثاً في المدينة له ضجة كعودة قافلة الحجيج في الايام الخوالي ، وان مراسم خاصة كانت تجري عند وداع القافلة وحين استقبالها .

كما نتصور أن وصولها بزعامة شيخ القافلة (رب شيرا) مع الحرس والعبيد والأرزاق التي تنوء بها الابل كان مهرجاناً بل عيداً من أعياد المدينة .

ونتخيل أن الناس يملأون السوق ، وكل يمني النفس بشراء أو بيع : النساء المترفات ينتظرن أثواب الحرير المدمشق الواردة من الصين واللألي والطيوب من جزيرة العرب ، والشبان يؤملون بسراويل فارس وقمصانها المطرزة . وأهل القصور تهمهم تماثيل المرمر والبرونز المذهب وزجاج الساحل الجميل . والكهنة يريدون قوارير الألباتر المعبأة بالزيوت المعطرة وعلب البخور المطعمة واذا اتفق أن تأخرت القافلة أو أتى النذير بتعرضها لخطر ترى الناس واجمين منهم من يخاف على صفقة رابحة ومنهم من يقلق على قريب أو حبيب . وفي الرجال الشجعان تثور النخوة فتسرع كواكب من الفرسان إلى مكان القافلة لنجدتها . وتصل القافلة أخيراً ورجالها متعبون شعث غبر ، وقد نجوا من غزو أو عطاء أو عاصفة بفضل قائد شجاع . . . ونعرف من هؤلاء الشجعان عددا بينهم عجيل الذي أنقذ القوافل مراراً من خطر جسيم محقق، فنصبت له عدة تماثيل في الآغورا باسم مجلس الشيوخ والشعب وفي غيرها باسم القبائل التدمرية الاربع (٢١٣) .

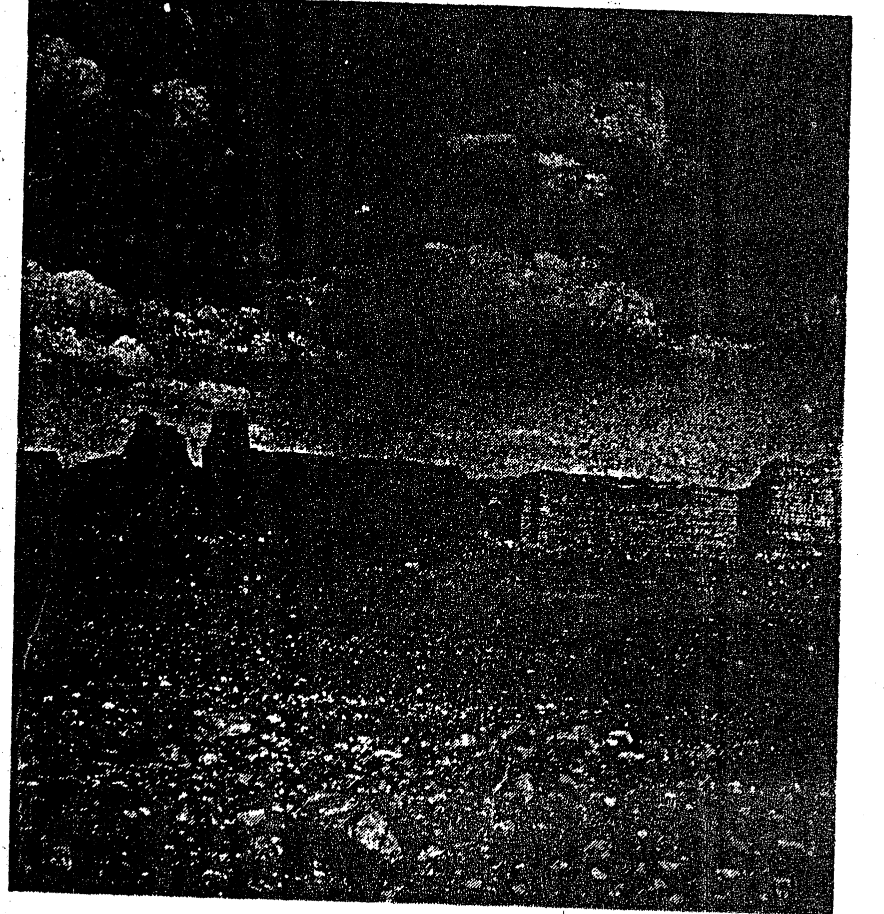
نموذج من كتابات القوافل :

القوافل تتوافد من مصر ومن قلب جزيرة العرب ومن ساحل الخليج العربي ومن مرافىء الدجلة والفرات وشط العرب خاصة، اذ فيها مراكز تابعة لتدمر ومستودعات ووكالات وجاليات لها ، كما ذكرنا ، وهي تفرغ بضائعها بتدمر وكثير من هذه المستوردات من منشأ صيني أو هندي . وتحمل ما تجمع في مستودعات تدمر من بضائع قادمة من مرافيء المتوسط وتتجه بها إلى الشرق من جديد . وعلى طوال الطريق تترك القوافل ذكريات نشاطها غير الاعتيادي .

وقد وجد الأب بوادبار في أم العمد إلى الجنوب الشرقي من تدمر وعلى الطريق المتجهة إلى هيت على الفرات ، من عهد الامبراطور انطونان التقي حوالي ١٥٠ م . كتابة تؤكد على التكريم الاستثنائي الذي قدم للوجيه التدمري سواد بن بوليدع ، بسبب المساعدات القيمة التي قدمها للتجار والقوافل والمواطنين في فولوجزياد ، بأن نصبت له تماثيل في تدمر نفسها (في الترادیون أي الآغورا) وفي مدينة خاركس في امارة خرقيدونيا وفي خان غينايس (وهو مكان أم العمد نفسه على الظن (٢١٤) .

وقد عثر في حفريات البعثة السويسرية في معبد بعلشمين على نص آخر باليونانية يكرم سواداً نفسه ، وتاريخه أقدم بثمان عشرة سنة ، وهو نموذج كامل عن كتابات القوافل في تدمر آثرنا أن نورده بنصه : « هذا التمثال على شرف سواد بن بوليدع بن سواد الرجل التقي ، الوفي لوطنه الذي ساعد في مناسبات عديدة هامة ، بنبل كرم ، التجار والقوافل والمواطنين المقيمين في فولوجزياد ، والذي يجود بنفسه وماله لمواطنيه ، فكرم من أجل ذلك بقرارات ومراسيم وتماثيل باسم الدولة وكذلك بكتب رسمية فضلا عن براءة من بوبليكوس ماريالوس القنصل الرفيع الشأن أقيم بمناسبة انقاذه قافلة كانت قادمة منذ وقت قريب من فولوجزياد من خطر جسيم كان يهددها . والقافلة المذكورة قد أقامت له أربعة تماثيل عرفاناً بقدره ونبله وتقواه. في هيكل زوس (المقصود بعلشمين) والآخر في الغابة المقدسة (؟) وواحد في هيكل آريس والرابع في هيكل آتر كاتيس، على يد شيخي القوافل حجاج بن برجبولا وتيم آرصو بن تيم آرصو ، عام ٤٤٣ بشهر بريسيوس (شباط ١٣٢ م (٢١٥) .

بقي علينا أن نعلم أن التجار التدامرة، وهم أبناء البادية ماكانوا يكتفون بمراكزهم التجارية على الدجلة والفرات والخليج العربي والبحر الأحمر ومصر وساحل المتوسط بل كانت لهم مراكب تجارية بحرية . فثمة نص يذكر تجاراً عادوا من بلاد السكيث على مركب تاجر تدمري اسمه بعلي (٢١٦) ، ونص يذكر آخرين استعاروا للقيام بالرحلة نفسها مركب التدمري حنين بن حدودان (٢١٧) ؟



من الخانات التدمرية المحصنة ببادية الشام .

الفصل السابع

الاقتصاد التدمري (٢)

١ ــ النظام المالي التدمري المعروف باسم التعرفة الجمركية

ان مركز تدمر الهام بين الشرق والغرب كان اذن يدر على تجارها أرباحاً باهظة . وكانت الامبراطورية الرومانية تشجع هذه التجارة لأن جباتها المتمركزين على نقاط الحدود كانوا على الراجح يجبون رسوماً على البضائع تعادل ربع قيمتها ، وثمة كتابات في الآغورا بتدمر تنوه بذكر « جباة الربع » (٢١٨) .

وهذه البضائع التي كانت تدفع مثل هذه الرسوم على الحدود كانت تدفع رسوماً أخرى لمدينة تدمر عند دخولها اليها وفي حال اعادة تصديرها مباشرة أو تصنيعها واعادة تصديرها . ومثل هذه الرسوم يحددها لنا القانون المالي التدمري الذي هو أهم نص تدمري بل هو أهم وأطول نص يتعلق بالاقتصاد في العالم الروماني . وقيمة هذا القانون المالي ، فضلا عن أهميته القصوى من الناحية اللغوية ، تكمن كما يقول دوفوغويه في أنه « يدخلنا في الناحية الخاصة للمدينة التجارية ويوقفنا على الحركة الكبرى للناس والحيوانات والبضائع . . . . . والمنافسة بين السماسرة والجباة وباعة الرخصة وأصحاب المشاكل والموظفين ، ذلك الجمهور الصاخب الذي يتدافع تحت الاروقة . . كما يوقفنا على الجهاز الاداري : مجلس الشيوخ ورئيسه وأمين سره والشيخين المكلفين بالسلطة الاجرائية ومجلس العشرة ووكلاء السلطة القضائية » (٢١٩) .

(آلهة الرومان) أدليس ← (هرميس) حماية التجارة – هرمز رسائل هرمز للتجارة (ماركيس) كان يشغل إعطاء التجارة

في ١٨ نيسان عام ٤٤٨ سلوقي أي في ١٨ نيسان من عام ١٣٧ م قرر مجلس الشيوخ في تدمر أن ينقش مواد القانون المالي الجديد مع القانون السابق على لوحة أمام معبد رب آسيري . وفي عام ١٨٨١ م اكتشفت هذه اللوحة جنوب الآغورا من قبل الأمير القيصري الروسي أباماليك لازاريف ونقلت عام ١٩٠١ بترخيص السلطات العثمانية إلى متحف الارميتاج ببطرسبرج (لينينغراد حالياً) حيث يعرض حالياً بين أهم آثار هذا المتحف . طول اللوحة حوالي أربعة أمتار وثمانين سنتيمتراً ، وارتفاعها متر وخمسة وسبعون سنتيمتراً : والنص المنقوش عليها مكون من أكثر من أربعماية سطر موزعة على أربعة حقول (٢٢٠) : الحقل الاول فيه مرسوم مجلس الشيوخ بالتدمرية واليونانية . والحقل الثاني يذكر القانون المالي « لمستودع » تدمر ومنابع مياهها . وهو يشكل التعرفة المالية الجديدة فيما يتعلق بالعبيد والمواد الجافة والأرجوان والزيوت المطيبة وزيت الزيتون والدهن (السمن) والمملحات والرواحل والقطعان وحق التمتع على العطارين وبنات الهوى وأصحاب الحوانيت ، والرسوم على الجلود والألبسة والمياه والمحاصيل وحيوانات الحمل ، واستخدام مياه النبعين (أفقا وآبار العمي أو أبو الفوارس) . والحقل الثالث يتعلق بالنظام المالي القديم (عام ٦٨ أو ٦٩ م) لتدمر ومياهها وملحها والقسم الأخير منشور قديم يتعلق بحل الاشكالات عند تطبيق القانون .

ان الحقل الثاني المتعلق بالقانون المالي الجديد هو الذي يهمنا هنا . ونلاحظ بهذه المناسبة أن هذا القانون لايذكر الا جانباً من مستوردات تدمر ومنتجاتها . ولكننا نعرف أن جزيرة العرب كانت تورد لتدمر اللآلئ ثم البخور ودوره هام في طقوسها ، ثم جانباً هاماً من الحجارة

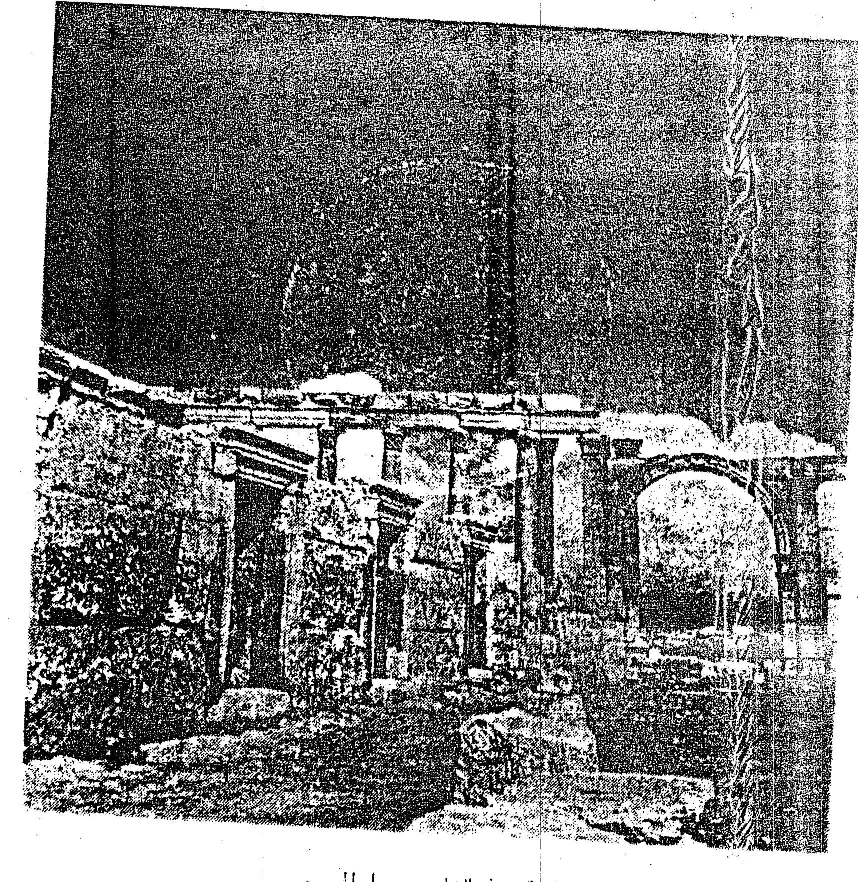
(آلهة آرهوا) لحماية التجارة اوعزيزا

الكريمة التي كانت تزين شرائط الالبسة . أما اللآلئ فكانت تأتي من منطقة الخليج العربي . وكثير من الالبسة المترفة كانت تستورد جاهزة من سلوقية الدجلة ومن بابل . ومن الساحل السوري كانت تصل الاواني الزجاجيةوالفضة والذهب.ومن لبنان ومنطقةدمشق كانت ترد الخمور الجيدة الواسعة الانتشار في الولائم الدينية.أما حوض السند فمنه التركواز واللازورد والأقمشة القطنية التي نصادفها في بعض المدافن التدمرية . ولا بد أن نذكر التوابل والاصبغة والحرير والفرو ومصادرها كشمير وهملايا والتركستان الصينية (٢٢١) . ومهما قيل في صدد القانون المالي التدمري فانه يبقى مختصاً بمدينة تدمر نفسها وليس بالتجارة العالمية ولعل هناك قانوناً آخر ينظمها في المدينة .

تدمر تأثرت بامفردات الحضارية للبابل

٢ — الأسواق

هذه البضائع التي رافقناها من مصادرها وادركنا أهميتها للمدينة والمكوس التي فرضت عليها كانت تصل إلى مستودعات ضخمة (كالملحق التابع للآغورا الذي انهينا التنقيب عنه عام ١٩٦٨) . (٢٢٢) ومن هناك توزع البضائع على الحوانيت المنتشرة داخل الآغورا وفي كل مكان خاصة شارع المسرح والساحة حول المسرح والشارع الرئيسي الطويل على كل امتداده . وهنا نجد الدكاكين منظمة واجهاتها لطيفة ولها مقاييس متقاربة . وفيها أحياناً كثيرة تمديدات مياه ونرى أمام بعضها آثار سير عربات نقل البضائع (٢٢٣) ومن هذه المحلات ماهو مرتبط ببيوت خلفه وبعضها نجد فوق ساكفه قد نقش على الحجر بخط كبير اسم صاحب الدكان مثلا (فلان بن تقيمو بن أراش ومالك بن مالك) .



دكاكين في الشارع بجوار المسرح .

أصحاب هذه الدكاكين ليسوا في أكثريتهم من كبار التجار بل يشكلون البورجوازية الصغيرة والمتوسطة : اذا صح التعبير ، وكانت لهم أخويات وجمعيات كما سوف نرى .

وليست الدكاكين وقفاً على تجارة الجملة والمفرق بل هناك حرف معدة لتلبية الحاجات اليومية . أصناف كثيرة من الباعة والحمارين

وبائعي الأغذية والأواني الفخارية والزجاجية وأصحاب الحرف . ونحن نعرف منهم من النصوص : الاطباء والعطارين والنحاتين وصانعي الجلود وصانعي القرب والحدادين وشغيلةالذهب والفضة . وتشير النصوص المعروفة إلى أن لهؤلاء نقابات وأخويات ، ولكل منها وليمة خاصة (مرزح) أو (سمبوزيون) تحت حماية سيد لها . وكان أذينة وابنه من حماة النقابات الحرفية كما جاء في النصوص المكتشفة حديثاً في تدمر (٢٢٤) .

واننا لانستطيع أن نفصل في حياة الحرف اذ ليس لدينا مستندات كافية . ولكن في اعتقادنا أنها لم تكن تخرج عن القواعد المتبعة قديماً في المهنة . فالابن غالباً يتعلم صنعة ابيه والمعلم يتدرج من أجير إلى صانع . والشيء الهام هو أن جانباً كبيراً من الاعمال الحرفية كان يقع على كاهل العبيد .

٤ — الزراعة

و من الاعمال التي يتولاها العبيد العمل في الزراعة على أن الزراعة لم تشكل أبداً عنصراً أساسياً في الاقتصاد التدمري. فتدمر مدينة تجارة وقوافل وليس في البيئة الطبيعية التدمرية مايساعد على قيام زراعة هامة خارج حدود واحة مدينة تدمر نفسها والواحات التابعة لها . على أن الناس يرددون مرويات كثيرة مبالغ بها عن غزارة المياه والامطار في عهد تدمر وانتشار الشجر في البادية كلها . وهناك من يزعم أن الانسان كان يسير في ظل الشجر بين تدمر والفرات .

في الواقع كانت الجبال التدمرية غنية نسبياً بالشجر وكان شجر البطم والصنوبر منتشراً في المناطق العالية التي يؤمن لها ارتفاعها كمية كافية من المطر والبرودة ولكن البادية نفسها لم تكن أبداً مشجرة بل

سهبية الطابع إلا أنها كانت في عهد تدمر أكثر خصباً مما هي عليه الآن . واغنى بالمراعي بسبب توازن الطبيعة الذي أخذ يختل في العهود الحديثة وبسبب الميل العام إلى الجفاف والتصحرفي البيئات التي نحن بصددها .

وغنى البادية بالمراعي يساعد كثيراً على تربية المواشي التي كانت رائجة كما نستدل من القانون المالي التدمري فالسمن الوارد إلى تدمر كثير والرسوم على جلود الغنم والماعز خفيفة وكانت الجبال التدمرية في رأي العالم شلو مبرجه . موطن تربية الخيل للجيوش التدمرية .

على أن التدمرين كانت لهم ملكيات زراعية كبيرة نسبياً تهتم بزراعة الحبوب وتأمين الاعلاف . ونرى في القانون المالي التدمري ذكراً كثيراً للحنطة والتبن المتبقي بعد الحصاد. واهتمام التدمريين بالبستنة واضح. والنبع الكبريتي قد وسّع ووزعت مياهه على بساتين المدينة . وحقوق السقي منظمة في القانون المالي التدمري . وكان سعر المياه باهظاً ، الامر الذي يجعلنا نشك في انتشار البساتين أكثر مما هي عليه الآن . أما الفواكه التي كانت تزرع في البساتين التدمرية فهي التمر والزيتون والتين والرمان والتفاح والاجاص والبطيخ (؟) ونستنتج ذلك من نقوش أفاريز معبد بل . وكان سور المدينة في اخر مراحله يضم نبعي الماء وقسما كبيرا من البساتين .

وهناك تقدير خاص للزيتون . النبات الاساسي لتدمر ؛ حتى أن ربا خاصاً يحميه هو « جد مشحيا » . ومعاصر البطم نجدها في كل مكان بتدمر ولا يخفى أن الجبال المحيطة بتدمر كانت حافلة باشجار البطم إلى وقت غير بعيد .

* * *

الفصل الثامن

الثقافة التدمرية

الفن التدمري

١ ـ أصول التقاليد الفنية التدمرية

منذ القرن الأول قبل الميلاد كان هناك فن تدمري قائم بذاته ناضج ومتطور نسيج بيئة مادية وفكرية محددة . وعلينا أن ندرس هذا الفن في بيئته تلك دون اللجوء الى المقارنة كثيرا فلا جدوى من البحث في كون الفن التدمري أدنى من غيره من الفنون العالمية أو أعلى . الأصح أن ننظر اليه بشكل موضوعي دون أفكار أو مقاييس سابقة فنرى فيه فنا واقعيا منطقيا واضحا ينبع من أعمق التقاليد الشرقية التي ترعرعت عبر التاريخ في هذه المنطقة من العالم .

هناك محاولات لابعاد كل أصالة عن فن تدمر ، فقد اعتبره بعضهم فرعاً جامدا متخلفا للفن اليوناني (٢٣٠) كما يرى البعض الآخر أنه كان فنا يشرى جاهزا من السوق . تماثيل تجلب على ظهور الابل ، وتماثيل نصفية تقتنى للموتى من سوق النحاتين كما تقتنى البزّة الجاهزة .

وفي الواقع لايخرج الفن التدمري عن التقاليد المعروفة للفن السوري عامة في القرون الميلادية الأولى وغيره من الفنون الشقيقة . فالمنحوتات التي وجدت في حمص ومنبج (المتحف الوطني بدمشق) والمنحوتات الوطنية في حوران وجبل الدروز (متحف دمشق ومتحف السويداء) والسرير الجنازي الدمشقي (حديقة المتحف الوطني بدمشق) وبعض آثار النحت في القلمون ومنطقة الزبداني حتى والتماثيل النصفية التي نعثر عليها في مقابر اللاذقية ، كلها أولا وأخيرا شرقية ذات نسغ محلي يعود لأكثر من ألفي عام قبل ذلك ونسب مع بلاد مابين النهرين

وحتى فارس والهند أوضح بكثير جدا من نسبها مع ايجه واليونان وكريت ومصر في عهد الفراعنة .

واذا كانت الظروف الاقتصادية والسياسية قد أخضعت الفن التدمري أحيانا لبعض المؤثرات الغربية ، فسرعان مانجد هذه المؤثرات تتجلى بطابع شرقي واضح .

وفي هذا المعنى يقول سيريغ في مقاله «تدمر والشرق» : «ولكن لأية درجة تمكن التأثير الغربي من تغيير الفن الموضعي والصناعات الفنية عموما (في تدمر) . ان نتيجة هذا التأثير لاشك ظاهرة . الا أنها سطحية بوجه الاجمال وهي تعطينا مثالا صالحا عن عدم الاستعداد للتأثر ليس بأسلوب أجنبي وانما بعقلية أجنبية » (٢٣١)

كما يقول في مكان آخر من المقال نفسه : « ولم يتمكن الحكم الروماني الذي دام قرنين ونصف مع كل مارافقه من احتكاك بالغرب من تغيير النحو الغريب في ترتيب الاشكال المنحوتة (ذلك النحو) الذي يشارك فيه التدمريون جيرانهم الشرقيين » (٢٣٢)

وقد رأينا في تاريخ تدمر كيف كانت تدمر عند نشأتها ذات علاقات وشيجة بمدائن الفرثيين في بلاد مابين النهرين . ويظهر أنها عرفت الفن اليوناني هناك وكان قد امتزج في عهد السلوقيين بالفن الشرقي وتأثر به تأثرا عميقا . وأصبح مقبولا لدى الشرقيين لأنه لم يعد غريبا عنهم . وحصل ذلك خاصة في مدينة سلوقية الدجلة وغيرها من المراكز اليونانية الشرقية (الهلينستية) وهي المراكز التي كان التدامرة يحتكون بها بصورة دائمة .

كان الفن التدمري اذن عند نشأته محليا متأثرا بالفن الفرثي المعاصر الذي نضج من معين التقاليد البابلية والآشورية والسورية عموما ، كما استقى من الفن اليوناني الذي استشرق . وعلى هذا تجلت في الفن التدمري الروح الشرقية كخط عام أساسي . كما سنرى بعد قليل .

وعند وصول الرومان الى تدمر ، يبدو أن أهتمام التدمريين اتجه نوعا ما فيما يتعلق بالمخطط العمراني للمدينة وتنظيم باحاتها وشوارعها وحماماتها ومسرحها والهياكل المركزية في معابدها نحو التقاليد اليونانية — الرومانية مباشرة ، الأمر الذي حصل من قبل أيضا في انطاكية ودمشق مثلا . « لكن على الغالب لم تؤثر هذه التغييرات كثيرا في أذهان التدمريين » (٢٣٣) فاذا كان المخطط العمراني العام للمدينة يونانيا — رومانيا وكذلك التيجان والاعمدة وبعض التفاصيل الاخرى ، فان الآثار الفنية ، بالمعنى الاصلي للكلمة . كالكثرة الساحقة من الزخارف البالغة الغنى ، ظلت ذات أسلوب شرقي أصيل . وأكثر التماثيل والمنحوتات الدينية والمدينة والصور الجدارية بقيت إلى حد كبير خاضعة لقاعدة التوجه إلى الامام والاعتماد على الخطوط الواضحة والتأكيد على الوجود الروحي لكل شخص بمفرده في كل تركيب فني دون الاهتمام بالتأليف الدراماتيكي لكل موضوع من المواضيع .

ولعل من المفيد أن نورد رأيا جديرا بالاهتمام يدعم ماذهبنا اليه من مذهب في الفن التدمري ، تقول ماري موريهات في مقالها عن النحت القديم في تدمر : « ان أقرب الاساليب الفنية شبها بالاسلوب الفني التدمري القديم في غرب الفرات ؛ نجدها في عدد من الاساليب المحلية التي ازدهرت

في القرون الميلادية الثلاثة الاولى . ألا وهي الفن المحلي في سورية الداخلية . والنحت النبطي في شرق الاردن وجنوب سورية . والفن القبطي في مصر . فان اختلفت هذه الفنون نوعا فهي تتشابه بصورة عامة » (٢٤٣)

٢ ـ النحت التدمري المدني والديني

النحت هو ولا شك أبرز آثار الفن التدمري ولا نغالي اذا قلنا أن المعروف من تلك الآثار حتى الآن يكاد يكون نحتا كله . كان الفنانون التدمريون يعالجون الحجر بسهولة ويسروثقة وبعض زخارفهم توحي بأنها منفذة على الخشب لا في الحجر .

والذي سهل مهمة النحاتين التدمريين أن جبال تدمر القريبة غنية جدا بأنواع عديدة من الحجر الكلسي منها ماهو ضارب الى الصفرة طري نسبيا سهل المعالجة ، وأقدم المنحوتات التدمرية نفذ معظمها على هذا النوع من الحجر . وهناك نوع آخر ناصع البياض قاس جدا شديد التبلور أشبه بالمرمر ولكنه خال من اللمعان . ونجد أيضا نوعا ثالثا في مثل قساوة النوع الشديد البياض . ولكنه يضرب الى اللون الوردي . وبين هذا وذاك نماذج ثانوية قليلة الاستعمال . كما أن النحت على المرمر قليل في تدمر على ماظهر حتى الآن . والنماذج القليلة التي اكتشفت من تماثيل المرمر ومنحوتاته لاتساعد على القطع برأي في مسألة استيرادها جاهزة أو صنعها في تدمر .

أما الجص وعجينة الجبس فاستعمالها مقتصر على تزيين الافاريز والنوافذ وبعض التفاصيل الصغيرة الاخرى وفي بعض النواحي التطبيقية .

سقف المحراب في الهيكل المركزي بمعبد بل .

ولسوء الحظ لم يعثر في تدمر الا على أجزاء طفيفة من تماثيل البرونز التي تتحدث عنها النصوص . وهي على كل حال تشهد بمهارة التدمريين في معالجة هذا المعدن وصبه .

آ ـ أقدم المنحوتات التدمرية (٢٣٥) :

ان التنقيبات التي تمت في ١٩٣٨ . ١٩٣٩ ، في باحة معبد بل ، كشفت عن أقدم المنحوتات التي وجدت حتى الآن في تدمر . وهي تعود لبناء معبد أقدم في مكان معبد بل هدم عند بناء المعبد الجديد . واستخدمت بعض منحوتات المعبد القديم مقلوبة في بلاط المعبد الجديد . وقد يعود عهدها لحوالي القرن الأول ق . م ، اذ عثر بينها على حجر يحمل كتابة تدمرية مؤرخة عام ٢٦٩ سلوقي (٤٤ قبل الميلاد)

كما أن هناك منحوتات قديمة أخرى تتبع للمعبد الجديد وهي عبارة عن نقوش بارزة جدارية نحتت حوالي عام ٣٤٣ سلوقي (= ٣٢ بعد الميلاد وهو عام تكريس معبد بل) وهي تختلف عن بقية منحوتات المدينة وملونة لترى عن بعد .

وأقدم منحوتات المعبد القديم وأسلمها هي منحوتة تمثل موكبا يتقدم نحو كاهن يحرق البخور وهو متجه للأمام في وضع مألوف في مشاهد التقدمات في دورا أوربس وتدمر ، والموكب مؤلف من كاهن يقدم تاجا أو اكليلا تتبعه امرأتان تتوشح كل منهما بعباءة فوق رأسها والأولى تحمل مبخرة والثانية كأسا . ونجد على منحوتة أخرى موكبا مماثلا تقريبا . وهناك منحوتة ناقصة نقش عليها رجل يحمل سعف نخيل .

هيجان تدمري في منحوتة من الطور العتيق .

هذه المنحوتات القديمة فيها صفات مشتركة : ثياب بسيطة مثناة على الاذرعة كالاساور ، والثنايا في بقية أجزاء الثوب على العموم منظمة بشكل محوّر غير طبيعي،الجسم الى الامام والرأس وحده هو الذي يحدد اتجاه الحركة،الوجوه حليقة، والانف متصل بخط واحد مع الجبهة، والعيون محددة جفونها بوضوح ، والشعر خطوط متوازية ، وتجاعيد الرقبة عبارة عن قوسين متوازيين .

كما وصلتنا من هذه الفترة القديمة منحوتات أخرى تمثل رجالا وآلهة يمتطون أحصنة وجمالا . وأخرى تمثل هرقل والأسد وربة شمسية والالهين عغلبول ويرحبول ، ويلاحظ أن الآلهة في هذه المنحوتات لاترتدي الثياب الحربية التي تمثل بها في المنحوتات الاحدث عهدا .

ان المنحوتات التي ذكرناها وما يماثلها تنتمي الى مجموعة منسجمة قوية التعبير في مظهرها التحويري المتصلب ، وهي تتشابه على كل حال بالخطوط الكبرى مع آثار الفن التدمري المتأخر .

والفنانون التدمريون في الفترة القديمة لاينحتون عدة مستويات في المنحوتة بل يكتفون بمستوى واحد وثنيات الثياب لديهم لاتتمشى مع العضلات والحركة . وفي المنحوتة بعدان فقط لاثلاثة ابعاد.فاذا أضفنا التلوين الذي كانوا يستخدمونه فوق النحت نجد أنفسنا ازاء صورة ملونة أكثر مما هي لوحة منحوتة .

وسنلم بالأدوار الأخرى للنحت التدمري عند الحديث عن النحت الجنازي.

ب ـ النحت المدني :

لم تصلنا من النحت المدني نماذج كثيرة، فالتماثيل المعدنية منها،نظراً لارتفاع قيمتها ، قد ذوبت في عهد انحطاط تدمر ليعاد استعمالها في نواح

عملية أجدى أوأوغرت جنود اورليان ومن تلاهم فانتهبوها. والتماثيل الحجرية قد حطمت ولاشك انتقاماً من تدمر فهي تذكرها بعهد ازدهارها وأمجادها أوذهبت من الأوابد التي هدمت وحطمت شر محطم .

وعلى كل حال فان النماذج القليلة الباقية منها قلما تكون كاملة فهناك جذوع دون رؤوس أو بالعكس ، اللهم الا التماثيل شبه الكاملة التي اكتشفت في حفريات معبد بعلشمين (٢٣٦)

ان النماذج المذكورة وان كانت غير كاملة فانها تعطينا صورة واضحة عن النحت المدني ، عن المئات من التماثيل التي كانت في شوارع المدينة ومعابدها وميدانها « الآغورا » وفوق أعمدتها التذكارية ، تخلد المقدمين بين التدامرة من شيوخ قبائل ورؤوس وأعضاء مجالس شيوخ وموظفين وقادة وكهنة الخ . . وبينها ولاشك أباطرة وقادة رومان.

ان تماثيل أولئك الاشخاص هي غالبا بالحجم الطبيعي أوأكبر قليلاً أوأدنى منه ، وأسلوبها تقليدي رسمي (كما هي الحال الى حد ما في صور الشخصيات الرسمية في زماننا) فالأشخاص يمثلون بهيئة وقار ، قاماتهم مائلة قليلا نحو الوراء ، وثيابهم طويلة تصل حتى القدمين وهي كثيرة الثنيات ، أما أن تكون على النسق الفرثي (قميص وسراويل مزركشة) أوبالزي المحلي (ثوب طويل فوقه عباءة تدور بالعنق) وهي في الغالب تنتعل « صنادل » وأحيانا أخفافا وجزمات . وتكون اليد اليمنى على الصدر ملقاة على طرف العباءة الملتف ، أما اليسرى فمسدلة الى الجانب تحمل على الغالب غصناً من النبات أو رقاً ملفوفا .

واذا كانت هذه التماثيل تخضع لأسلوب واحد أواسلوبين دون مراعاة الخصائص الجسدية لاصحابها فعلى الراجح ان رؤوسها ، التي

تكون قطعة واحدة مع التماثيل أوتركب تركيباً ، هي رؤوس الاشخاص المكرمين أنفسهم بأعمارهم وملامحهم . ويدل لباس الرأس غالباً على مهنهم فالكهنة مثلا يعتمرون بقلنسوات اسطوانية وتكون خاوياً من أية زينة أومحلاة بأكاليل نباتية مضفورة ، والاكاليل اشكال حسب رتبة كل كاهن . والمدنيون حاسرو الرؤوس ومنهم من يتوج بأكاليل الغار وغيره .

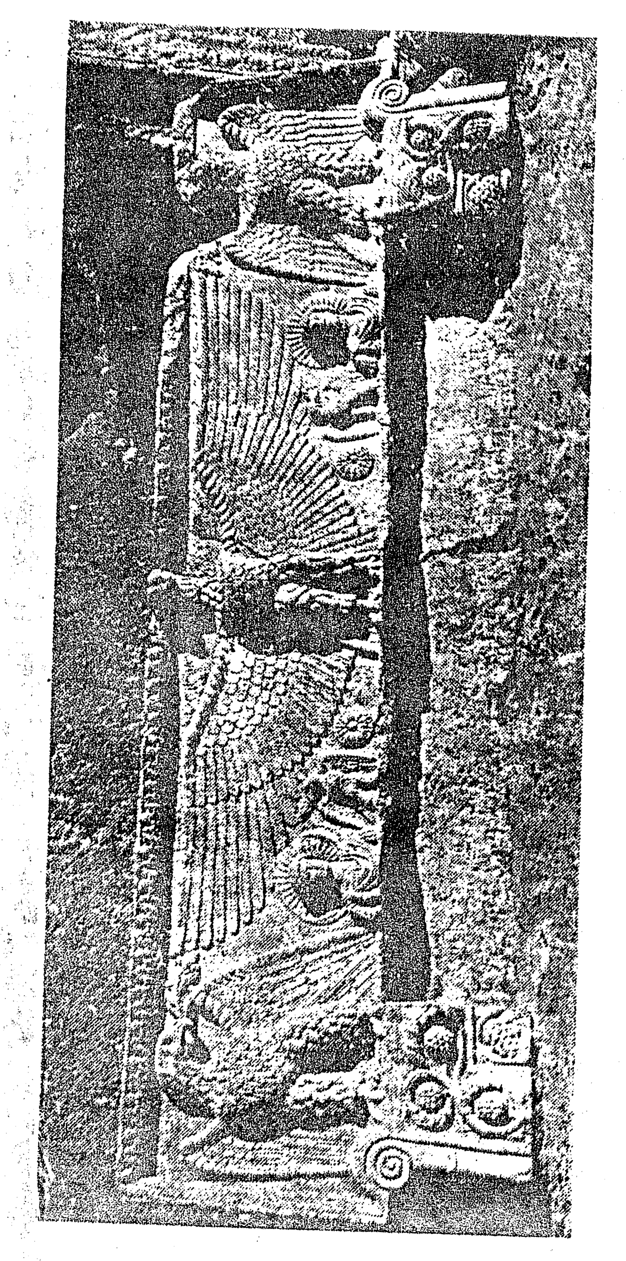
وكما ألمحنا من قبل ، توضع هذه التماثيل بالدرجة الأولى على حاملات مثبتة في الاعمدة (consoles) ومنها مايكون على قاعدة عادية وبعضها يعتلي أعمدة تذكارية وهناك في تدمر حالياً بضعة أعمدة من هذا النوع (٢٣٧) هذا وفي بعض الحالات القليلة كان التمثال ينحت في العمود نفسه .

جـ ـ النحت الديني :

ان المنحوتات الدينية التدمرية التي وصلتنا كثيرة لحسن الحظ ويمكن ردها الى الفئات الرئيسية التالية :

١ ـ مشاهد أرباب منفردة أومجتمعة ، منقوشة في جدران المعابد أوأفاريزها أوسقوفها ، ومنها ماهي محاطة بمحاريب وأطر مزخرفة ، وتكون أحياناً شديدة البروز كأنها تماثيل ملصقة بالجدار .

٢ ـ مشاهد التقدمات الدينية وفيها عادة شخص أوشخصان أحياناً ، يؤججان محرقة بخور وفي المشهد صف من الأرباب واحد أواثنان أوأكثر جنباً الى جنب حسب الأهمية،الآله الرئيسي في الوسط ويليه الأيمن الخ . وهذه المشاهد تضم أحياناً آلهة على خيول وجمال وحيوانات خرافية . وكان التدامرة يقدمون هذه المشاهد ، منحوتة على ألواح ، كنذور



منحوته بعلشمين من روائع الفن التدمري

وقرابين للآلهة توضع في معابدها خاصة في الجبال المحيطة بتدمر (٢٣٨) .

٣ ــ مشاهد أرباب ومتعبدين بأوضاع مختلفة منقوشة على مذابح نذرية تهدى للمعابد .

ويتجلى في هذه المنحوتات مفهوم التدمريين عن الألوهية كما تتوضح بعض طقوسهم الدينية كما سوف نرى .

وقد بذل الفنان التدمري جهده في تمييز معبوداته واخراجها بأكثر مايستطيع من جمال وقوة وجعلها أحياناً تسوق العربات الحربية وتلبس الدروع وتمتطي صهوات الجياد وظهور الأبل وتشرع الرماح وتتمنطق بالسيوف وترمي بالسهام وتسير مواكب وتقف صفوفاً ، وفي هذه الناحية مجال كبير للابداع في حدود امكانية العصرورغبة المتعبدين . ولايستطيع أحد أن يتهم التدمريين بأنهم كانوا يشترون هذه المنحوتات الدينية جاهزة من السوق ، وخاصة وأن فيها قدراً ملحوظاً من التنويع والطرافة .

د ــ النحت الجنازي

ان الكثرة الساحقة من المنحوتات التدمرية تدخل في الواقع في فئة المنحوتات الجنازية . ومصدرها الوحيد هي المدافن (راجع العمارة التدمرية) وهي تتقدم القبور بمثابة شواهد ، وتعرف بالتدمرية بكلمة « صلم » = صنم وأحياناً « نفشا » أي النفس ، وإطلاق كلمة « نفشا » على الشاهدة معروف لدى أكثر الساميين وتعني أحياناً القبر . وفي هذه الشواهد رمز لحضور الميت مع أسرته في لقاء أبدي ، والمنحوتات الجنازية فئات عدة :

١ ــ التماثيل النصفية وهي في الواقع بين التمثال النصفي والنقش

البارز . وبصورة عامة يكون قسمها الخلفي عبارة عن لوح مستطيل ارتفاعه أكثر من عرضه يثبت في واجهات القبور .

٢ ــ الألواح ويكون في الغالب ارتفاعها أقل من عرضها وعليها مشاهد جنازية أوشخصان متصلان أومنفصلان ضمن دوائر (٢٣٩) .

٣ ــ الشواهد بالمعنى الأصلي للكلمة وهي صغيرة الحجم أومثلثة أومستقيمة من الأعلى ، وعليها أشخاص وقوفاً أوأطفال من الجنسين .

٤ ــ واجهات التوابيت والسرر الجنازية وعليها مشاهد من الولائم الجنازية ومن حياة الموتى في هذا العالم وبعض أفراد اسرة الميت أو كلهم . هذا وأن الأبحاث التي تعالج فن النحت التدمري تعتمد اعتماداً كلياً على المنحوتات الجنازية وهي الوحيدة التي توفرت له فلذلك رأينا ايرادها في هذا الفصل .

قسم انغولت في كتابه المسمى « دراسة عن النحت التدمري » (٢٤٠) عهود النحت التدمري الى ثلاثة :

الأول ــ يمتد حتى آخر النصف الأول من القرن الثاني الميلادي ، ويختص بأن النحاتين كانوا فيه يمثلون عيون الأشخاص بدائرتين متداخلتين ولايرسمون حواجبهم ، والذكور منهم حليقون . ويتركون شعور النساء تسترسل على أكتافهن ، ويضعون مغازل وخيطاناً في أيديهن . ويزينون صدورهن برصائع شبه منحرفة وآذانهم بأقراط على شكل عناقيد العنب .

الثاني ــ يقابل النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي وتتلخص الصفات الفنية لتماثيله بما يلي : العيون دوائر في وسط كل منها نقطة ، الحواجب ظاهرة . الرجال ملتحون ماعدا الرهبان . النساء يمسكن بأطراف أوشحتهن وحليهن سداسية الشكل .

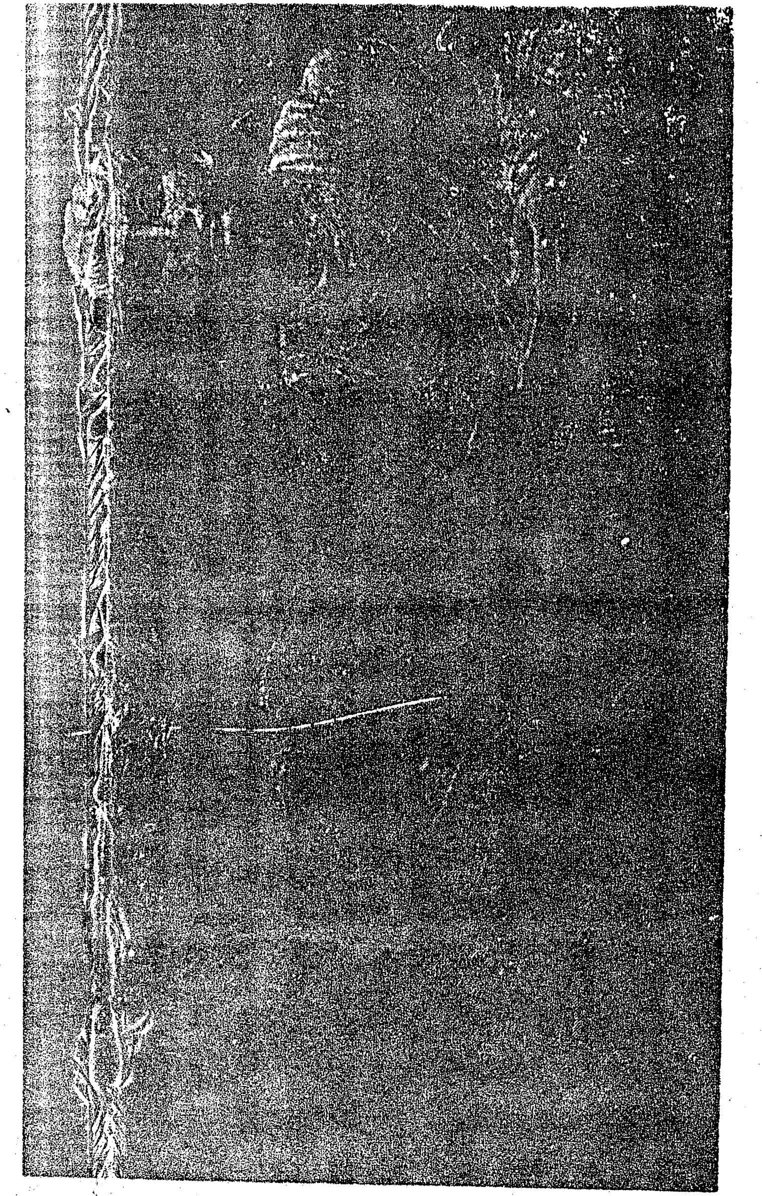
الثالث – يقابل النصف الأول من القرن الثالث الميلادي ، والأشخاص الممثلون في تماثيله النصفية وألواحه منحرفون بعض الشيء عن محاورهم ، ويتطلعون الى أحد الجانبين ، والنساء يزحن أوشحتهن بأيديهن ويكثرن من التزين بالحلي .

وقد نحت المسز مكاي نحو الاستاذ انغولت في بحثها عن الحلي التدمرية فأكدت جانباً من الصفات التي ذكرناها (٢٤١) .

ومنذ الوقت الذي وضع فيه انغولت نظريته عن تاريخ النحت التدمري أدت أعمال التنقيب الى التعرف الى عهد قديم يعود للقرن الأول قبل الميلاد والنصف الأول من القرن الأول الميلادي.وقد ألمعنا الى هذا الأمر في الفقرة الخاصة بأقدم المنحوتات التدمرية كما أن هذه التنقيبات الجديدة قد تستدعي اعادة النظر في كثير من الأفكار والفرضيات عن النحت التدمري (٢٤٢) وقد لاحظنا بمناسبة تنقيبات مدفن شلم اللات في تدمر بأن تماثيل هذا المدفن كثيراً ماتخالف ماورد في نظرية انغولت (٢٤٣)

وهناك أيضاً ملاحظة ثانية في هذا المجال ، وهي هل تمثل التماثيل النصفية والالواح الجنازية أشخاص أصحابها فعلا ؟ فقد ألمح البعض أحياناً الى أن كثيراً من هذه المنحوتات كان يهيؤ سلفاً عند النحاتين وعند الطلب يوضع عليه اسم المتوفى ويستعمل . وقد يكون هذا الأمر محتملا في بعض الأحيان ولأسباب مادية في الغالب . ولكننا نؤكد على أن القاعدة العامة هي تمثيل الأشخاص بذاتهم جهد المستطاع .

واذا ماألقينا نظرة على أكثر من أربعمائة منحوتة جنازية أخرجتها تنقيبات المديرية العامة للآثار بين ١٩٥٧ – ١٩٧٥ نرى أن بالإمكان تحديد هذا الموضوع تماماً . لاشك في أن بعض تفاصيل المنحوتات تقليدية



زبدا التدمري في الوليمة (مدفن زبدا – تدمر) .

مكررة فأوضاع الأشخاص محددة ببضعة أوضاع وكذلك الالبسة والزينة وأسلوب النحت لايتنوع كثيراً . فمن هذه الناحية نجد أن النحت تقليدي مثلي . أما الوجوه فهي واقعية تختلف في الغالب اختلافاً يدل على أنها تماثيل وجوه أشخاص بذاتهم .

نجد مثلا في مدفن شلم اللات الآنف الذكر أن زبدعته المشارك على المدفن غير جميل ، أنفه كبير ، نظرته صارمة قاسية . لم تكن غاية الفنان أوأهل الميت تصوير شخص جميل بقدر ماكانت غايتهم ايجاد صورته الحقيقية . الشبه ملموس بين أحد أبنائه وحفيده . ثم ان المنحوتات الجنازية في هذا المدفن وفي غيره تمثل أحياناً شيوخاً وسيدات مسنات ، تجاعيدهم ظاهرة . وهناك مثلا سيدة تقول الكتابة وراء كتفها انها عاشت ٢٣ سنة ونجد فعلا أن وجهها نضر فتي ممتلىء ، ونحس أنها قصفت قبل الأوان . حتى أننا أحياناً نستطيع تحديد السن الى حد ما في التماثيل النصفية واقامة صلة النسب بينها بسهولة .

ولنأت على وصف موجز للتماثيل النصفية الجنازية والالواح والشواهد التي تزخر بها المتاحف والمدافن : رجال من الكهنة والتجار وأرباب القوافل والمحاربين والهجانة والكتاب من جميع الاعمار بثياب محلية أو يونانية أو فارسية . والاخيرة كثيرة الزخرفة يتمنطقون بالسيوف ويمسكون بعض العناصر الرمزية ، أو الكؤوس والقصعات ومنهم الحليق والملتحي ، ولكن الكهنة دوما حليقون ، على رؤوسهم أو فوق مذابح الى جانبهم ، قلنسوات اسطوانية بأكاليل وبدونها حسب الرتب . ونساء من جميع الاعمار قلما يكن بدون لباس رأس وهن بثياب مطرزة مزركشة وأوشحة تغطي الرأس وتتدلى على الكتفين ثم



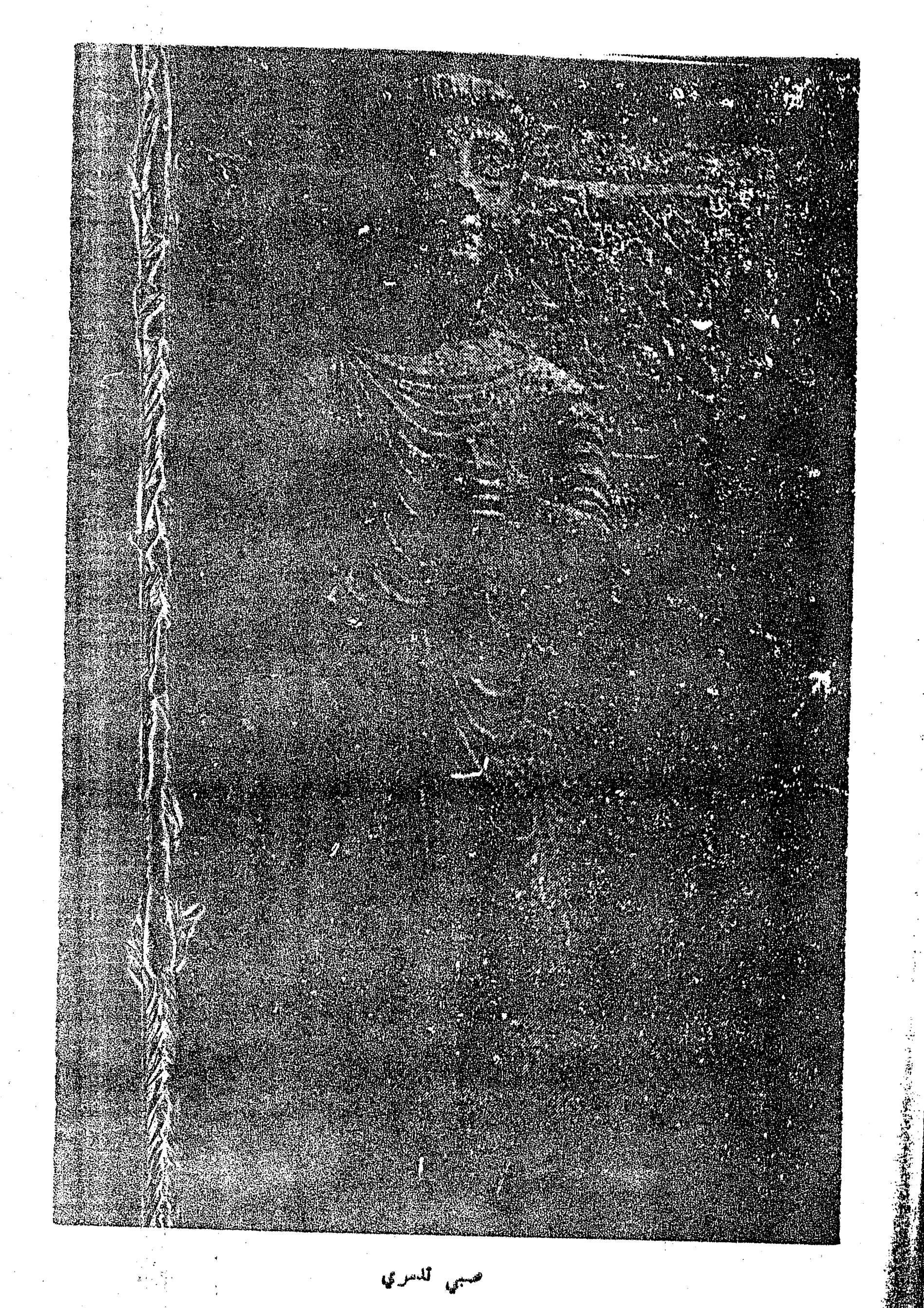
صبية تدمرية

الذراعين وتحتها عمرة مزينة أحيانا بعقد وعصابة مطرزة . الحلي كثيرة ، عقود وقلادات قد تبلغ الخمسة أو الستة في اليدين ، وأقراطا في غاية الجمال (يقول العرب أذن تدمرية) والنساء يمسكن بالمغزل والدرارة أو بأطراف أوشحتهن أو بعناصر أخرى بعضها غير معروف ، ونجد مع النساء أحيانا أولادهن (طفل أو طفلة أو اثنان ، وفي مدفن شلم اللات عثرنا على تمثال امرأة مع ثلاثة أطفال) . وتصوير الاطفال ، سواء كانوا منفردين على ألواح خاصة أو مع أمهاتهم أو آبائهم أحيانا ، أمر غريب في الفن التدمري . فالطفل والطفلة يمثلان بشكل رجل أو امرأة قصيرين ، لايفرق الطفل عن الرجل الا بصغر الحجم ، ولايتناسب حجم الطفل على كل حال مع حجم والدته فنراها كأنما وضعت قزما على ذراعها . ويميز الاطفال في جميع المنحوتات الجنازية التدمرية بحمل عناقيد العنب والطيور وبعض مشاغل الطفولة الاخرى .

وأحيانا يكون على اللوح المنحوت شخصان : شقيقان ، أخ وأخت ، زوج وامرأته ، نادبة مكشوفة الصدر تحيط بذراعيها فقيدا أو فقيدة . ولا يندر ان يكون هناك اكثر من شخصين .

وبعض التماثيل النصفية والالواح ملونة : الحلي والفصوص بألوانها الاصلية ، والحواشي المطرزة كذلك . ويصبغ بؤبؤ العين والحاجب بالاسود ، والشفتان والاظافر بالاحمر (عثرنا في مدفن شلم اللات على تمثال نصفي لصبية شفتاها ملونتان بماء الذهب وكذلك حواشي غلالتها ووشاحها) .

وكل المنحوتات الجنازية تقريبا تحمل وراء أحد الكتفين أسماء أصحابها كاملة مسبوقة أو متبوعة بعبارة « حبل » التي تعني « أسفاه » .



صبي تدمري

ومع الإسماء نجد أحيانا أعمار الموتي أو تعريفا بهم . وهذه الكتابات منقوشة وملونة بالاحمر . ولا مجال هنا للتفصيل في هذه الناحية .

وعلى الشواهد الصغيرة المكتشفة في القبور الفردية التي كانت كثيرة حوالي القرن الاول الميلادي وظلت كقاعدة عامة في مقابر المدينة المخصصة للطبقـــة الفقيرة ولكل من لايتيسر له بنــاء مدافن عائليـــة خاصة لاسباب شتى . في تلك الشواهد التي تكتشف أحيانا قليلة في بعض المدافن أيضا نجد مشاهد تمثل صور الموتى وأمامها أو وراءها ستار الموت مسدلا ومعلقا من طرفيه بزهرتين أو بسعف النخيل ، وكثيرا مانجد على الشاهدة ستارا معلقا فحسب مع اسم المتوفى (٢٤٤)

وأخيرا ان السرير الجنازي في المدافن التدمرية بأنواعها هو عبارة عن مشهد عائلي في وليمة جنازية ذات طابع طقسي ورمزي ، فالميت هنا يشترك مع أفراد اسرته في طعام مشترك وبيده كأس أو قصعة وهو متكيء على طنفسة وتحته فراش من الدمقس ويليه أحيانا أبوه أو ابنه أو أخوه ، وامرأته جالسة عند قدميه غالبا ، وبينهما الاولاد وقوفا .

وهذا المشهد محمول على سرير بقائمتين مفروزتين رشيقتين ، والفراغ بين القائمتين هو واجهة تابوت عليها ضمن دوائر أو بدونها تماثيل نصفية تمثل بعض أفراد الاسرة ، أو مشاهد من حياة الميت قبل موته كما في جناح مقاي في مدفن عنتتان .

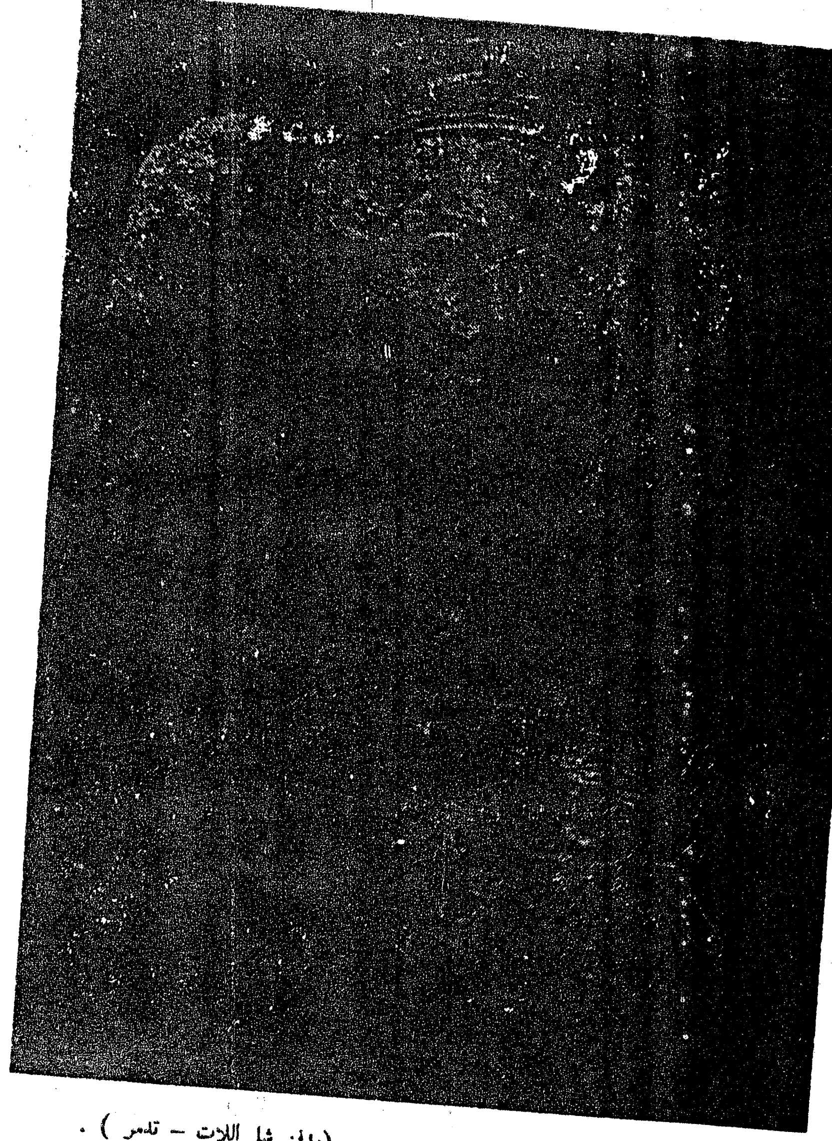
وتقام السرر في أماكن رئيسية من المدفن . والقاعدة العامة أن يكون في المدفن سرير واحد لصاحب المدفن أو للمشترك فيه (مدفن شلم اللات) وهناك أحيانا ثلاثة سرر مجتمعة في صدر جناح رئيسي من المدفن (مدفن

يرحاي) تعود لصاحب المدفن ولافراد الاسرة الرئيسيين جيلا بعد جيل. ويجعل السرير في بعض الحالات في شرفات معدة في واجهة المدافن — الابراج (مدفن ايلابل ، مدفن يلميكو ، مدفن كيتوت) (٢٤٥)

ولن نفصل في شرح أصل هذه السرر ورموزها وأنواعها الثانوية . ونكتفي فيما يلي بوصف أحد هذه السرر اكتشفناه في مدفن شلم اللات في وادي القبور بتدمر (راجع الجنازي) :

« في الجانب الايسر من هذا الدهليز (دهليز الجناح الرئيسي في المدفن) ، بين عضادتين حجريتين قبو أمامه سرير جنازي ، وعلى الاصح واجهة سرير جنازي من حجر الجير القاسي ، طوله ١٧٠ سم وعرضة ٧٧ سم ، عليه فراش مثني ومزركش بثلاثة أشرطة مؤلفة من حبيبات تتوسطها أوراق نباتية وزهرات داخل دوائر ، ورأس هذا الفراش مزين بجذع حصان وعنقود عنب وفيه دوائر في منتصفها صورة نصفية لفتى أجعد الشعر . وبين رجلي السرير المفروزتين بشكل جميل أربعة تماثيل نصفية تمثل في الوسط شابين أجعدي الشعر ، وعلى الجانبين فتاتان ترتدي كل منهما وشاحا وعمرة ملفوفة وعصابة مطرزة ، ولها قرطان كرويان مدليان ، وعنقها مزين بعقد حباته كبيرة . والغريب أن الشابين والفتاتين متشابهون تماما ، وواضح أنهم أشقاء .

وفوق السرير الآنف الذكر مشهد وليمه جنازية منحوت من الحجر الجيري القاسي أيضا يضم أربعة أشخاص ، الاول رجل ملتح شارباه مفتولان ، حول رأسه اكليل مدور من النبات تتوسطه صورة نصفية لكاهن ، وهذا الرجل يستند الى وسادتين مطرزتين بأوراق نباتية ، يحمل فوق اصابع اليد اليسرى اناء مزينا بخطوط هندسية ، وهو يرتدي الرداء



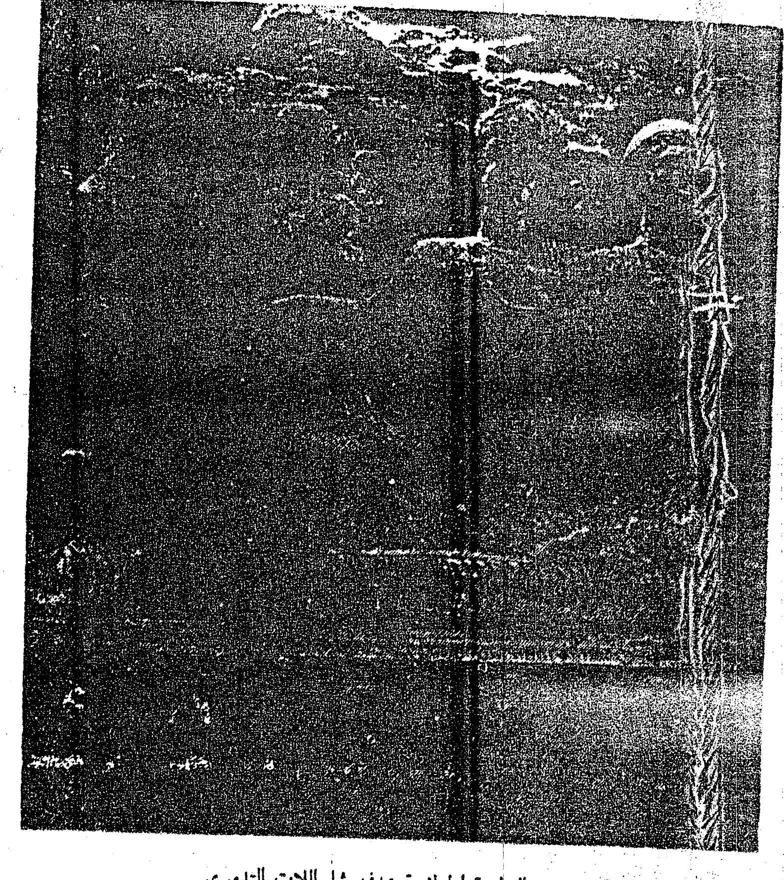
سيدة تدمرية وأطفالها (مدفن شلم اللات – تدمر) .

التدمري التقليدي الطويل ، ويليه كاهن حليق يعتمر بقلنسوة الكهان وحولها اكليل مدور من النبات في وسطه صورة نصفية لكاهن بقلنسوة ، وهو يستند ايضا الى وسادتين متقدما قليلا . وفوق أصابع يده اليسرى اناء مماثل للاول . وذراعه الايمن عار . ويمسك في راحته الموضوعة فوق الركبة غصنا من النبات . وساقه اليسرى مثنية تحت الساق اليمنى المغطاة بالرداء الطويل حتى القدم الذي ينتعل خفا مقوسا معقودا بشريط . ووراء هذا الكائن يقف فتى يافع في الوضع التقليدي التدمري ، ملامحه جميلة مطابقة لملامح الشابين الممثلين على السرير . وفي آخر المشهد تجلس سيدة تدمرية بوشاح وعمرة وعصابة مطرزة ، شعرها مرفوع من الجانبين ، قرطاها كرويان ، عنقها محلى بعقد حباته كبيرة ثوبها الطويل معلق عند الكتف برصيعة مستديرة . وهذه السيدة تشبه من حيث الهيئة واللباس والزينة الفتاتين الممثلتين على السرير . والراجح أن المشهد يضم وجيها من وجهاء الاسرة المشاركة على المدفن . وهو يبدو مع أخيه وأصغر أبنائه ثم زوجته وعلى السرير : كما قدمنا ، ابناه وابنتاه ، وانه ليدور في خلد المرء ازاء هذا المشهد والسرير ، أن عائلة الميت ماثلة في هذه الوليمة تصله بعالم الاحياء وتؤنس غربته الطويلة .

الصور الجدارية الملونة « الفريسكات »

ان ما اكتشف في تدمر من هذه الصور قليل جدا بالقياس للمنحوتات . ولا بد أنها كانت كثيرة في بعض المعابد (٢٤٦) والدور الخاصة ولكنها زالت مع الاسف ، فليس لدينا حاليا سوى بعض المدافن كمعين لمعرفتنا بهذا الفرع الهام من فروع الفن التدمري .

وجدت أول « الفريسكات » المعروفة في تدمر في مدفن الاخوان



مشهد الوليمة الجنازية بمدفن شلم اللات التدمري

الاخوان الثلاثة (٢٤٧) وبعدها ظهرت فريسكات أخرى خلال التنقيبات التي أجراها انغولت بين ١٩٢٤ الى ١٩٢٨ في بعض مدافن المقبرة الغربية أيضا (٢٤٨) ويمكن أن نضيف اليها بعض الفريسكات ذات الاسلوب التدمري ، فهي من آثار الفن التدمري الصريحة (٢٤٩)

نلاحظ أن هذه الفريسكات المذكورة وإن كانت تحمل شيئاً من طابع الروح الهلينستية في التفاصيل . فانها تنبع من التقاليد الشرقية القديمة ، وخاصة احاطة المواضيع بخطوط غامقة واضحة رغبة في التحديد والابراز وهو تقليد شرقي عريق موجود في الرسوم الآشورية المكتشفة في تل برسيب وحتى في رسوم القصر الملكي في مدينة ماري (من أول الألف الثاني قبل الميلاد (. وهي شرقية أصيلة بخضوعها لقاعدة التوجه إلى الامام والنظرة الثابتة البعيدة ، وفي أوضاع الأيدي والاقدام وثنيات الثياب وفي الزخارف التي تشبه السجاد .

وقد نفذ هذه الفريسكات فنانون محليون على الغالب ، كما يتضح من الاسلوب ، وذلك على طبقة من مونة الجير ملساء جافة . واستخدموا في ذلك ألوانا مركبة من الاكاسيد المعدنية المحلولة بالماء . وبعض العينات القليلة التي تم تحليلها بينت خلو هذه الالوان من المواد العضوية .

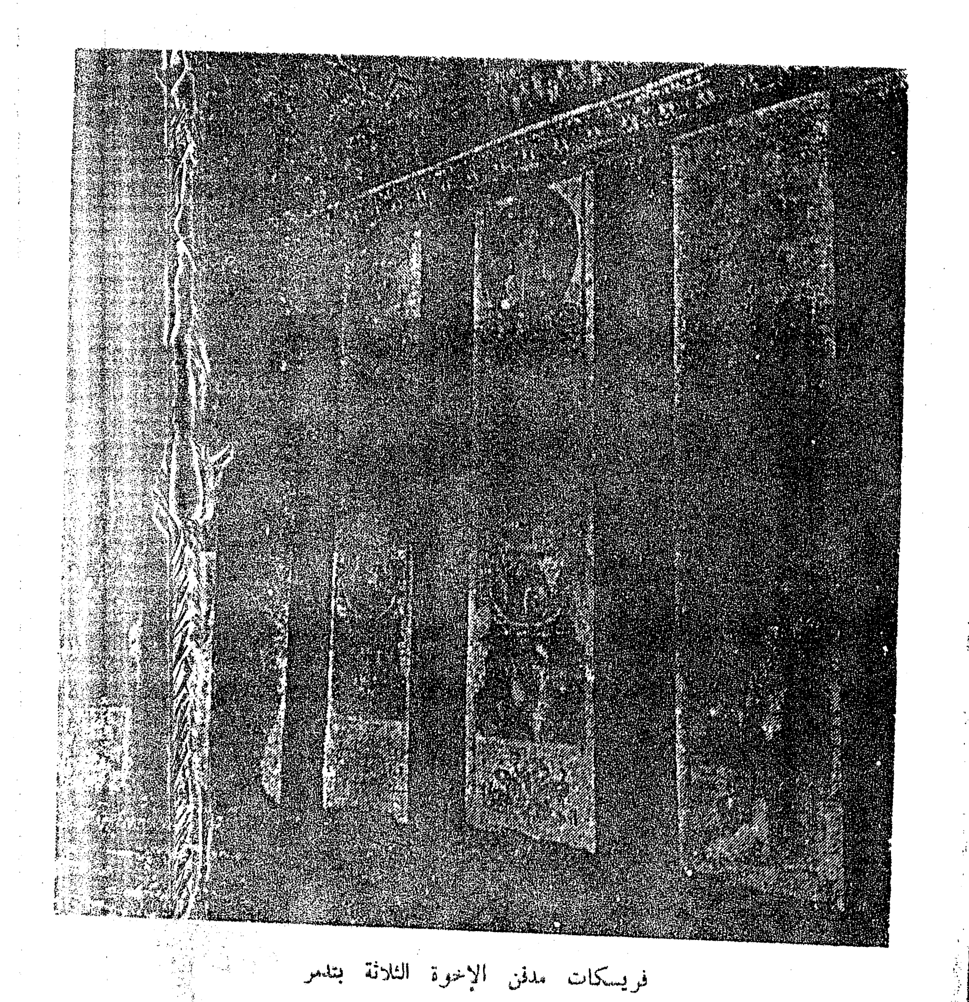
ان الفريسكات في مدفن الاخوان الثلاثة تعود لأوائل القرن الثالث الميلادي . وهي تملأ جنبات الغرفة الداخلية في الجناح الرئيسي منه (العضائد بين المعازب والصدر . وعقد السقف ، والقوس) . اللون الغالب فيها هو الاحمر يليه الاخضر ثم البني والازرق والاسود. على العضائد بين المعازب صور نصفية ضمن دوائر تحملها ربات نصر مجنحة فوق كرات وتحتها صور حيوانات . العقد مزين بأشكال هندسية سداسية .

والقوس محلاة بأغصان نباتية محورة والعضادتان اللتان تحملانها مغطاة كل منها بأغصان الكرمة . وفي صدر الجناح مشهد يمثل أخيل وقد رآه عوليس متخفيا بثوب بين بنات ليكوميد ملك سيروس اللواتي يسررن عنه همومه التي سببتها نبوءة موته في الحرب . ولما رأى أسلحة عوليس ثارت حميا النزال في نفسه فرفع مجنه ليخوض غمار الحرب . وآخيل هنا يرمز الى النفس التي ترتدي على الارض ثيابا مستعارة تنزعها عند الموت .

أما في جناح مقاي من مدفن عتنتان فنجد صورة اثنتين من ربات النصر وشخصا مضطجعا والى يساره امرأة وهما في وضع الوليمة التدمرية المعروفة . وقد زخرف عقد السقف بأشكال هندسية دائرية وبيضوية ونبات وحيوان وجزع رجل عار . الالوان السائدة زرقاء وحمراء وصفراء.

وهناك في مدفن حيران نسر مبسوط الجناحين ، وهو في سورية في ذلك الوقت طير الشمس المكلف بحمل الارواح . وقد لون بالبني وعلى رأسه وجناحيه خطوط حمراء . وفوقه اكليل أحمر وأوراق الفاتح خضراء . وتحته والى يمينه غصون خضراء أنيقة . كما نجد في هذا المدفن صورة نصفية لرجل ضمن دائرة (كما في مدفن الاخوان الثلاثة) يحملها من جانبيها طفلان مجنحان يحملان الاكاليل وسعف النخل رمزا للخلود والانتصار على قوى الشر . أما حيران صاحب المدفن وزوجته فكل منهما مصور على حدة واقفا مكتنفا بأغصان الكرمة بأوراقها الخضراء وعناقيدها البنفسجية . وقد لونا باللون البني ولكن قميص الزوجة أخضر جميل محلى بحاشية حمراء .

ولا تخلو اللوحة التي تعود للقرن الثالث وتمثل ديونيزوس (باخوس)،



فريسكات مدفن الإخوة الثلاثة بتدمر

في أحد مدافن هذه المقبرة المعروف بمدفن ديونيزوس، من تأثيرات يونانية واضحة ولكن أساليب التنفيذ تدمري شرقي .

ولن نتعرض بالتفصيل للرسوم الجدارية في دورا أوروبس ولكن لابد من التذكير بان صورة ربة النصر في مدفن الاخوان الثلاثة . وهي مسددة باللون الاسود ، والالوان المستعملة فيها الاحمر والاخضر والاصفر . واللوحة المعروفة بتقدمة « كنون » وأولاده . المعروضة في قاعة دورا أوربس في المتحف الوطني بدمشق (٢٥٠) عميقة الصلة بمنحوتات التقدمات التدمرية : الاوضاع تقليدية ، العيون ثابتة الى الامام . والاشخاص واقفون على صفين ومحددون تحديدا واضحا ، وكل يحتفظ بفرديته رغم قيامهم بعمل مشترك .

وفي نهاية هذا الفصل نجد من المناسب التأكيد على أن الفريسكات التدمرية ذات شأن كبير في دراسة تاريخ الفن، اذ أنها توضح بجلاء التأثيرات الشرقية في التصوير اليوناني — الروماني وهي بمثابة مصدر للفن البيزنطي المقبل . والعلاقة بينها وبين الفسيفساء والفريسكات والايقونات المسيحية في ذلك العهد لا يمكن نكرانها .

أن هذه العاصمة الصحراوية التي التقت فيها المؤثرات الشرقية والغربية خلقت فنا خاصا بالغ الأهمية من وجهتي النظر الأثرية والفنية اذ أنه بمثابة فن بيزنطي قبل عشرات السنين من قيام بيزنطة .

العمارة التدمرية

لن نستطيع في هذه الدراسة أن نوفي موضوع العمارة التدمرية

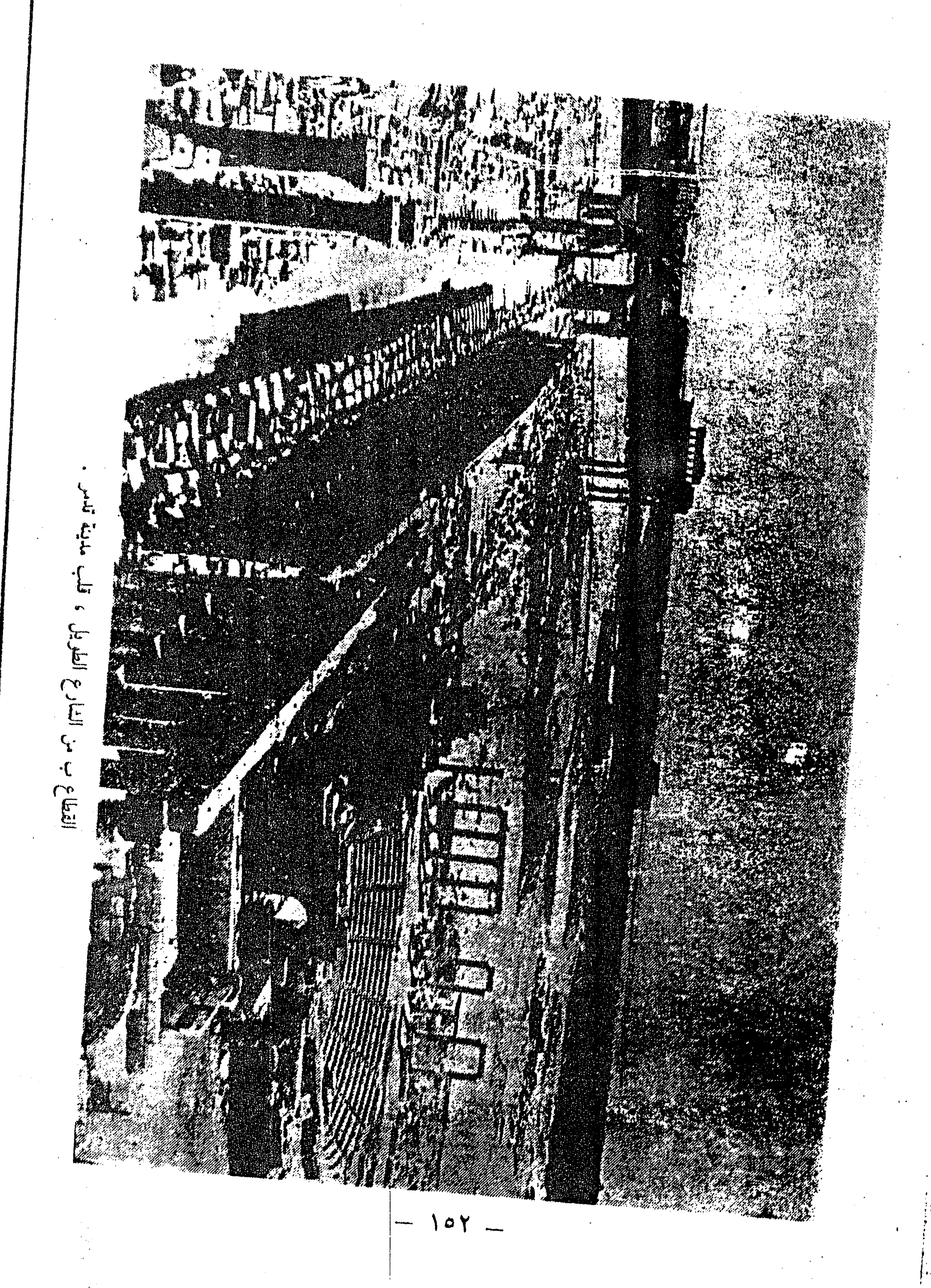
بعض حقه من البحث . فالأوابد التدمرية التي ما تزال قائمة هي كثيرة وجلها يحتاج لمزيد من الدراسة والتنقيب (٢٥١) . ولذلك نكتفي في هذا الفصل بالمامة قصيرة عن العمارة التدمرية وعرض سريع لبعض منجزات المعماريين التدمريين الأفذاذ .

آ — المخطط العمراني لتدمر ومبانيها العامة :

أن مدينة تدمر كما تبدو لنا الآن تتبع إلى حد كبير المخطط العمراني اليوناني — الروماني المعروف في مدائن سورية خلال العهدين الهلنستي والروماني (انطاكية ودمشق وبصرى) وليس هناك شيء من الغرابة في هذه الظاهرة التي نجدها في وقتنا الحاضر واضحة في كل المدن الحديثة التي أخذت تشابه بعضها في الشرق والغرب ، سعيا وراء سهولة المواصلات واسباب الصحة ومتطلبات الحياة الحديثة المختلفة .

لكن تدمر في عهدها الأول لم تتبع مخططا عمرانيا محددا بل تجمعت بين نبع أفقا ونبع المياه الحلوة . ولها مركزان رئيسيان أولهما معبد بل القديم والثاني عند التقاء طريقي حمص ودمشق في المكان المعروف حاليا بالساحة البيضوية ، وكانت أكثر بيوتها في الغالب من اللبن أو الآجر وبعض الحجر .

ومع ازدهار تدمر الاقتصادي والسياسي خلال القرن الاول الميلادي أخذت المدينة تتسع وتنتظم بشكل رائع منذ أواخر ذلك القرن ، فامتد الشارع العرضاني المعروف بطريق دمشق وازدان بالاروقة ووصل عن طريق الشارع الطويل إلى مركز جديد للمدينة في مكان « التيترابيل » وهي المصلبة التي يتقاطع عندها شارعا تدمر الرئيسيان . وشيدت « التيترابيل » من اربع دكات ضخمة فوق كل منها أربعة أعمدة



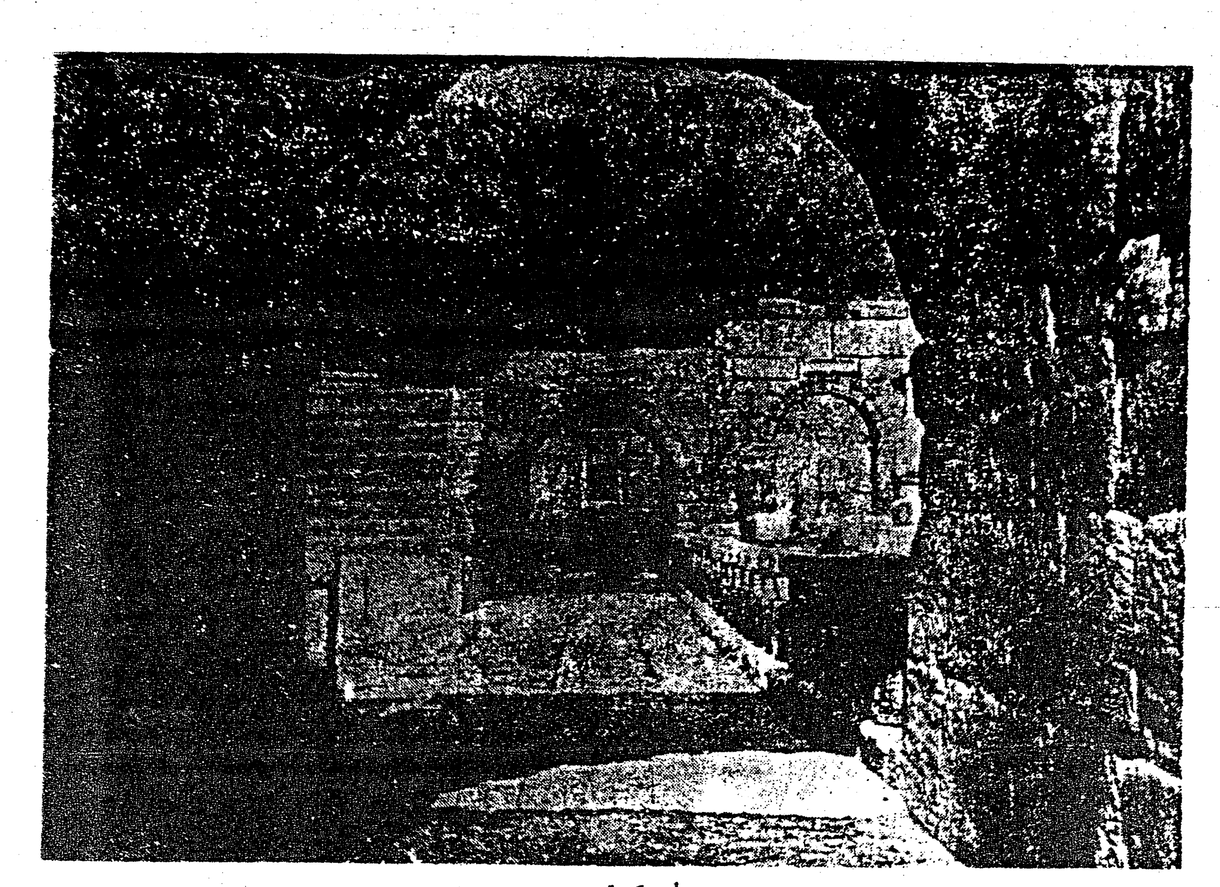
القطاع ج من الشارع الطويل ، قلب مدينة تدمر .

انيرغتية بينها تمثال وفوق الاعمدة تيجان كورنثية تحمل نضداً مزينة بأفاريز وأطناف غاية في الذوق .

وعلى مراحل ثلاث خلال القرن الثاني والثالث امتد شارع تدمر الطويل من جهتي « التيترابيل » وبلغ طوله حوالي كيلو مترونين من على جانبيه بالاروقة التي تظلل المحلات التجارية والمشاة . وكان في نهايته من الجهة الشمالية للمدينة هيكل الموتي وهو مدفن جميل له واجهة مثلثة مزينة بزخارف نباتية تخلب الألباب بدقتها والحياة التي تترقرق فيهـا . كما جعلت للشارع البوابة المعروفة بقوس النصر وهي ذات ثلاثة مداخل معقودة فوق أقواس وحافلة بأروع النقوش الهندسية والنباتية وشيدت هذه البوابة بعد منتصف القرن الثاني بمخطط مثلث بحيث تنحرف بالشارع الطويل ٣٠ درجة وتحوله بلطف جنوبا نحو معبد بل ، الامر الذي يشكل حلا عمرانيا في غاية الذوق لمشكلة المنعطفات .

ومن هذا الشارع الرئيسي تتفرع طرقات مستقيمة تؤدي إلى بيوت المدينة (التي تظهر للعيان في خرائب تدمر بعض باحاتها الداخلية المحفوفة بالاعمدة ومن حولها الأواوين والغرف(٢٥٢) كما تؤدي إلى معابد المدينة ومنها معبد بعل شمين .

وبين البوابة والمصلبة نجد الحمامات المعروفة بحمامات ديوقلسيان(٢٥٣) والتي أنجزنا التنقيب فيها منذ وقت قريب وظهرت بأقسامها المكتشفة ضخمة رحبة تحتوي على الاحواض الباردة والمقاصير الحارة والفاترة وردهة الرياضة ولها مدخل جميل يشغل عرض رواق الشارع زينت واجهته بأعمدة الغرانيت . واذا ما سرنا قليلا نجد في الجهة الاخرى



مدخل « أوركستر » مسرح تدمر .

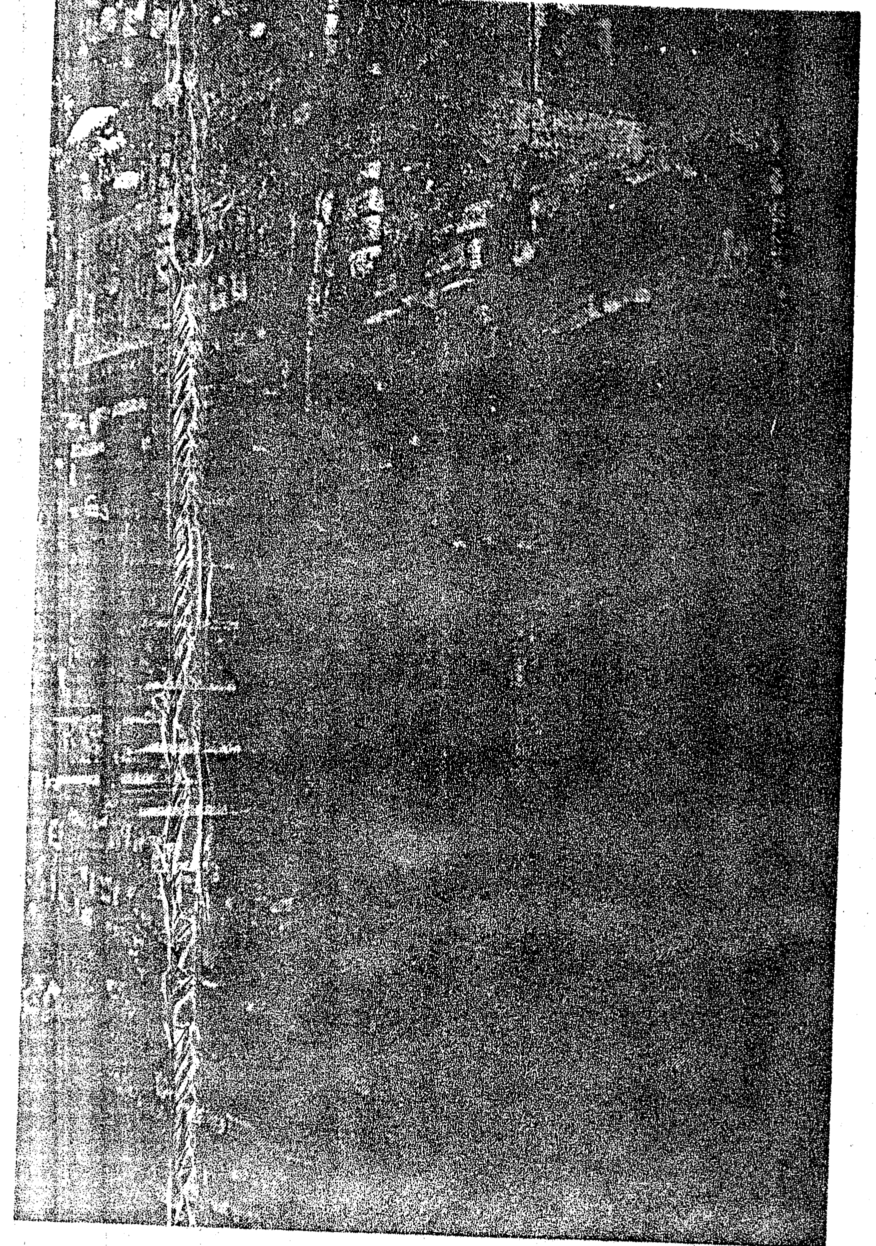
البوابة المعروفة بقوس النصر وفي الأفق تظهر قلعة ابن معن .

من الشارع مسرح تدمر الذي بني في النصف الاول من القرن الثاني الميلادي على الطراز الروماني وهو في وضعه الراهن يكاد يكون سليما . وقد كشفته المديرية العامة للآثار والمتاحف عام ١٩٥٢ فاتضح أنه مبني على مستوى الارض المجاورة بشكل نصف دائري ورواقه الخارجي هو نفس رواق الشارع الطويل . وهو من حيث وضعه العمراني بالنسبة للمدينة غاية في التوفيق والجمال . وهو بحد ذاته آبدة من أجمل الأوابد تبهج النفس بادراجها المتوازية ومداخلها المحكمة وبمنصة التمثيل الرحبة (٤٨ X ١٠ م) المزينة بالاعمدة الرشيقة .

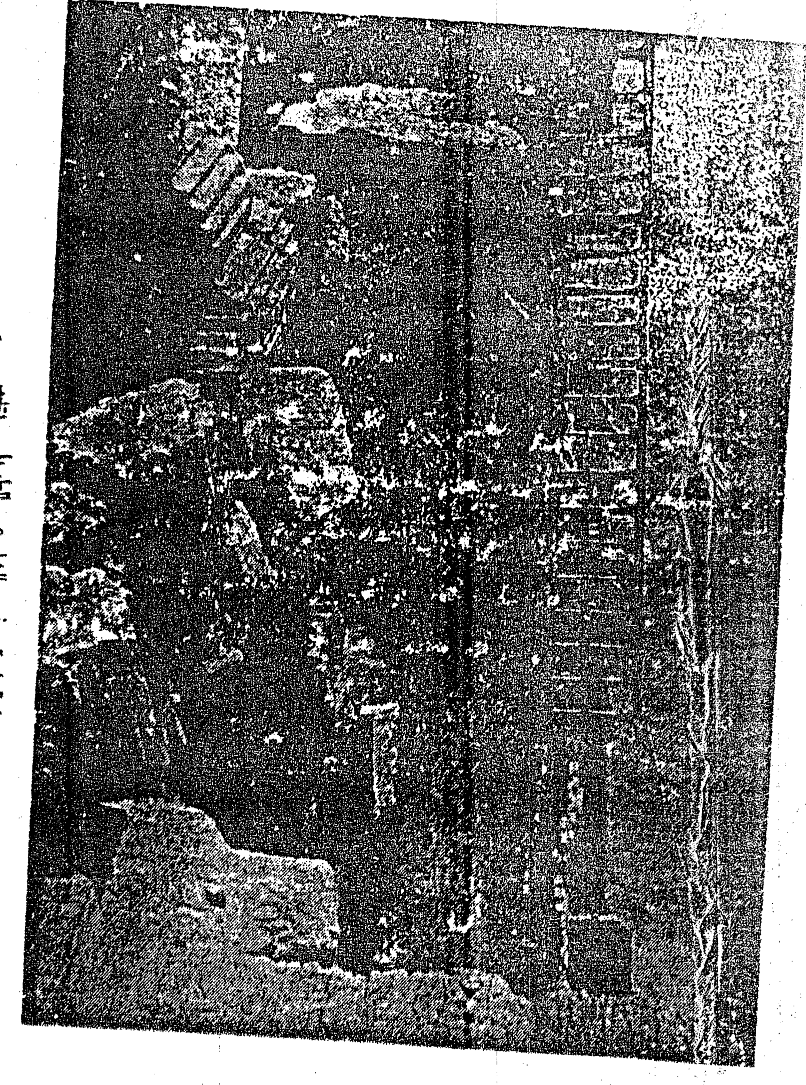
ويحف بالمسرح رواق بشكل قوس يؤدي إلى بناء مجلس الشيوخ أو المجلس البلدي وهو يضم في صدره ردهة للاجتماعات فيها مسطبة بشكل نضوة حصان لجلوس الاعضاء .

والى الجنوب الغربي من المسرح هناك « الآغورا » أي الميدان حيث تعقد الاجتماعات العامة ، وهذا البناء هو من منجزات القرن الثاني . مشاد على الطراز الايوني ، يتألف من باحة مربعة واسعة (٨٤ x ٧١ م) تظلله أربعة أروقة محمولة على أعمدة . وله أحد عشر بابا وفيه سبيلان للماء ومنصة للخطابة . وكانت أعمدته تحمل حوالي مائتي تمثال : في الرواق الشمالي تماثيل أرباب الوظائف . وفي الغربي تماثيل العسكريين وفي الجنوبي رؤساء القوافل .

وفي الزاوية الغربية من الميدان بناء أو هيكل للموائد الدينية يتوسط جدرانه مدماك محلى بافريز جميل من الزخرفة الهندسية المعروفة بال « Grecques » . وكانت هناك على طول الجدران مساطب توضع عليها الطنافس والحشايا لجلوس المدعويين .



منظر جوي لحمامات تدمر .



استراحة في الشارع الطويل بتدمر .

ولا ننس البناء الملقب بمعسكر ديو قلسيان الذي يشغل رابية في الطرف الشمالي من المدينة . اننا لن نخوض في تحقيق هوية هذا البناء (٢٥٤) ولكن نتحدث عن القصر الملقب بهيكل الاعلام فيه فهو في رأي البعض قصر اسرة الزباء . بناء ضخم تتصدره حنيّة ، يشكل بتيجانه الكورنثية الغنية وبعضاداته وواجهاته المخرمة بالزخارف النباتية الدقيقة معجزة في فن النحت والنقش والزخرفة . ويكاد الانسان لا يصدق أن مثل هذه الاوراق والزهور المتفتحة والعناقيد الناضجة قد قوّرت فعلا في الحجر فكأنها طرزت تطريزا .

والمدينة محاطة كلها بسور من عهد زنوبيا مدعم بابراج مربعة أو دائرية بين كل اثنين منها قرابة أربعين مترا ، وهناك من قبل زنوبيا سور قديم ومن بعدها تعديلات على السور لا مجال للتطويل في شرحها .

هذا ومهما حاولنا في هذه العجالة أن نوفي العمارة التدمرية المعروفة حقها(٢٥٥) خاصة وأعمال التنقيب تزودنا يوما بعد يوم بنماذج جديدة عنها وبخصائص طريفة فيها .

ب — العمارة الدينية (المعابد)

تتجلى في العمارة الدينية التدمرية تقاليد العمارة الشرقية واضحة ، فاذا اغفلنا بعض التفاصيل كالتيجان والاعمدة نجد المخطط العام للمعبد التدمري شرقياً عريقاً : صحن مقدس هو عبارة عن باحة ذات شكل رباعي محاطة بأربعة جدران وحولها أروقة وفي وسطها الهيكل المركزي الذي هو بيت الاله الذي يحتوي على تمثاله وسدنته ، وفي الباحة حوض للتطهر والمذابح للتقدمات .

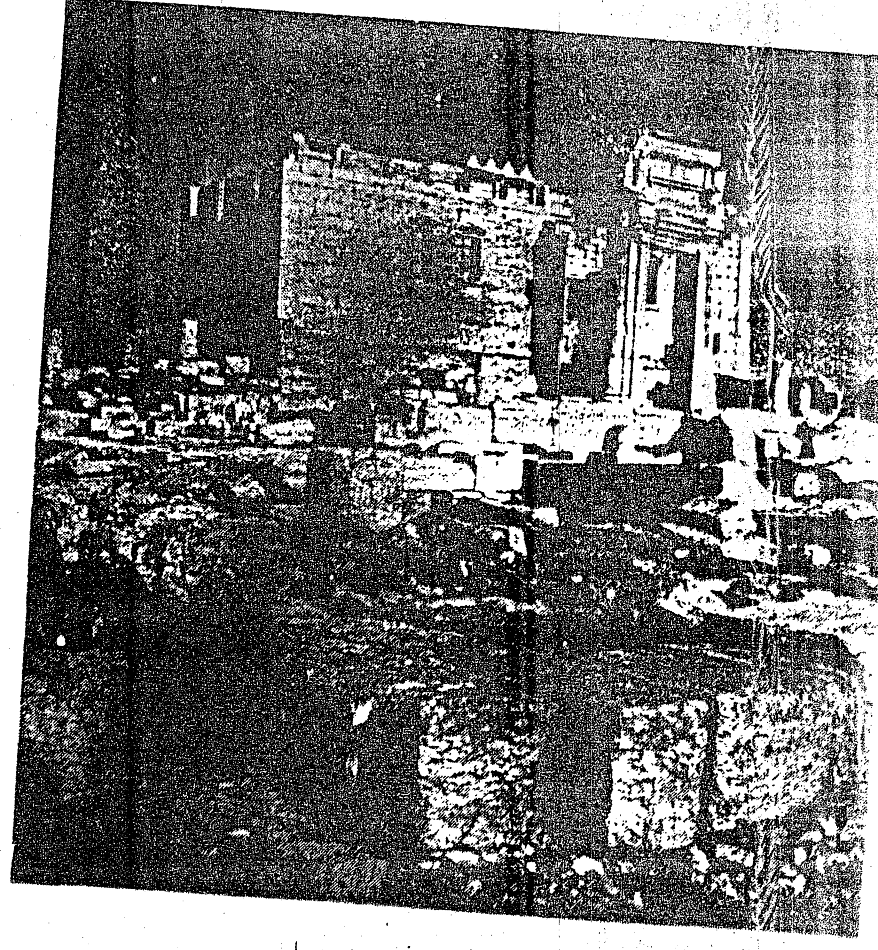
صورة جوية لمعبد بل عام ١٩٦٢ .

وسنجمل البحث على معبد بل (الذي هو أيضاً هيكل كبار الآلهة التدمرية يرحبول وعغلبول وملكبل) ليس كأكبر آبدة دينية في تدمر بل في كل الشرق القديم إلى حد ما .

يقوم المعبد الحالي على نشز اصطناعي عال . وقد شيد على انقاض معبد سابق يحمل الاسم نفسه، يعود لما قبل الميلاد، ألمحنا اليه سابقاً .وقد كرس الهيكل المركزي للمعبد الجديد عام ٣٢ بعد الميلاد وظل المعماريون والفنانون التدمريون يزينون ويوسعون ويجددون فيه جيلاً بعد جيل حتى آخر أيام تدمر .

صحن المعبد عبارة عن باحة مربعة رحيبة (حوالي ٢٠٥ × ٢١٠ م) يدخل اليها صعوداً بدرج عريض إلى بوابة فخمة أمامها رواق ولها مداخل ثلاثة كانت تغلق بأبواب من البرونز المذهب . وكان في طرفي البوابة برجان مزينان بشراريف مسننة « ميرلونات » ، وفي ذلك أسلوب عمراني شرقي قديم نجده خاصة في مباني العرب الانباط كما نجده في معبد عمريت (جنوبي طرطوس) من القرن الخاص قبل الميلاد ومن قبل في المباني الفارسية والآشورية .

ولصحن المعبد مدخل آخر يمر منحدراً تحت أرض الرواق الغربي لتدخل منه الحيوانات المعدة للاضاحي . وحول الصحن من جهاته الثلاثة أروقة مزدوجة ، أما الجهة الغربية فرواقها أعلى من الاروقة الاخرى ولكنه غير مزدوج .وكان هناك ...
الكورنثية الواسعة الانتشار في ذلك الحين ...
الأعمدة حاملات للتماثيل التي كان ...
وجميع واجهات الأورقة من الداخل والخا...

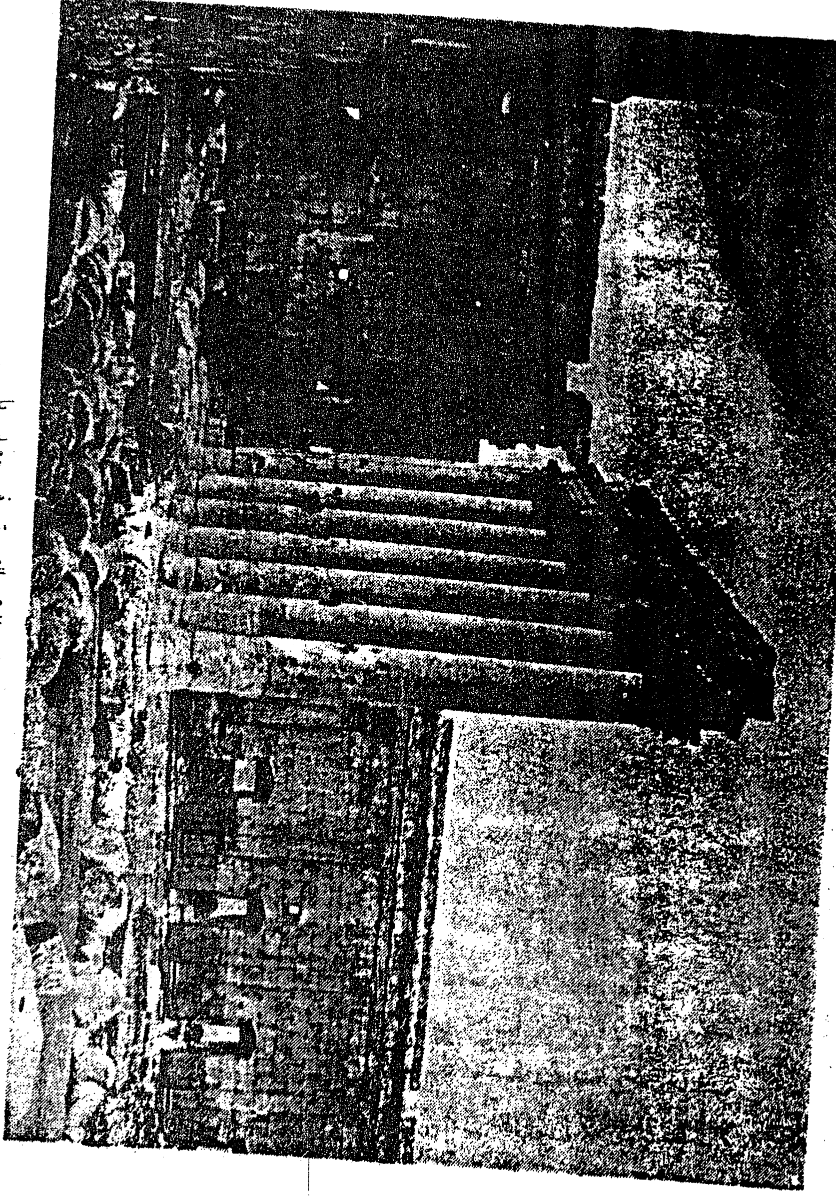


الهيكل المركزي في معبد بـــل

كانت تتوجها الشراريف المسننة . كما أن تحت الأروقة محاريب وأطر فيها منحوتات تمثل مواضيع دينية مختلفة عرضنا لها سابقاً .

أما الهيكل المركزي المستطيل الذي هو لؤلؤة هذا المعبد وواسطة العقد في هذه المجموعة العمرانية الوضاءة فكان بالاصل فوق دكة مدرجة ثم جعلت الادراج بشكل منحدر . وباب الهيكل مفتوح في الجدار الجانبي المقابل لمدخل المعبد. والهيكل محاط من جميع جهاته برواق محمول على اعمدة باسقة مخددة كانت تتوج بتيجان كورنثية من البرونز المذهب (٢٥٦) ، وفوقها افريز نقشت عليه صور جن مجنحة تحمل أكاليل مضفورة بالفواكه . وتحمل سقوف الاروقة جسور هائلة من الحجر محلاة بأطر من التزيينات النباتية الرائعة وعليها نقوش بارزة تمثل مشاهد دينية منها غعلبول وملكبل في ثيـــاب عسكرية أمام مذابح محملة بالفواكه ومنها مشهد الطواف الشهير الذي يبدو فيه تمثال الاله محمولا على جمل في قبة حمراء وفيه نساء محجبات ، وهناك أيضاً الآلهة التي تشهد الصراع مـــع الافعوان . وفي الرواق أمام مدخل الهيكل الرئيسي بوابة هائلة غنية بزخارفها . أما سطح الهيكل فهو بالاصل سثمي مزين بالشراريف المسننة وبأربعة أبراج يصعد اليها بأدراج من الداخل لاجراء بعض الطقوس فوق سطح الهيكل .

وفي داخل الهيكل محرابان شمالي وجنوبي : الشمالي منهما كان يضم صور الآلهة التدمرية الرئيسية ، وسقف المحراب مؤلف من حجر واحد محفور على شكل قبة نقشت عليها الكواكب السبعة وحولها البروج الاثنا عشر . أما المحراب الجنوبي الذي كان يؤوي



الزاوية الشمالية الغربية من هيكل بل .

تمثال الاله بل الذي كان يحمل في المواكب فقد سقف بحجر واحد ، نقذت عليه مجموعة زخرفية غاية في الاعجاز في وسطها زهرة متفتحة ضخمة ضمن دائرة يضمها اطار هندسي جميل ، وحول ذلك مثلثات ومربعات ومسدسات متناسقة في داخلها مختلف أنواع الزهور . وان هذه العناصر الزخرفية المتساوقة الباذخة وثيقة الصلة بمستقبل الفن الزخرفي العربي الرائع .

ج — المدافن :

المدافن التدمرية مجال حلّق فيه الفن التدمري عامة وفن العمارة خاصة ، واذا كانت بعض المدافن المصرية والصينية قد عرفت بضخامة بنيانها وامتداد متاهاتها وبكنوزها وأثاثها الجنازي ، فالمدافن التدمرية اشتهرت بروعتها الهندسية وحلولها المعمارية التي هي على جانب كبير من الذوق والتوفيق .

ولعل من الظلم اطلاق كلمة المدفن في هذا المجال ، فالمدفن التدمري بنماذجه الثلاثة التي سنتحدث عنها ، خلو من رهبة المقابر . هو أشبه بدارة أنيقة سكانها من الحجر الناصع مجتمعون ومتجاورون ، على الأرائك متكؤن في لقاء سرمدي وفوقهم الاقواس المزهرة والافاريز المكللة . أبواب المدافن من الحجر ولكنها توحي بأنها خفيفة كأبواب الخشب وعليها دقاقات . وكل شيء في خارج المدفن يوحي بمظهر البيت « بيت الابدية » « بت عالمـا » كما يدعوه التدمريون . والنصوص أكثر من أن تعد في هذا المجال (٢٥٧)



الأسرة التدمرية في الوليمة الجنازية .

١ — المدفن — البرج :

وهو أول نماذج المدافن التدمرية وأقدمها . مظهره الخارجي كالبرج المربع تماما واذا كانت المدافن الابراج قد عرفت في سورية خاصة في منطقة الفرات الأوسط وحمص وحوران فان المدفن — البرج التدمري هو بصورة قاطعة من مبتكرات المعماريين التدمريين . كما أن تدمر تنفرد بأنها تضم عشرات من الامثلة المتنوعة في مقابرها الاربع المعروفة وحتى في ذرى أحد الجبال القريبة . والمدفن — البرج مرتبط بتدمر ارتباطا وثيقاء وهو أول ما يلفت نظر زائرها .

مرّ هذا النوع من المدافن بمراحل متعددة من التطور. والنماذج العتيقة منه ، التي تعود لما قبل الميلاد وللنصف الاول من القرن الاول الميلادي ،كانت من حيث حجرها وتفاصيلها المعمارية على جانب من البساطة. ومعازب الدفن فيها مفتوحة نحو الخارج . وحوالي نهاية القرن الاول الميلادي ازدادت المدافن — الابراج جمالا وسعة واتقانا وأصبحت تضم في داخلها أربعة أو خمسة طوابق وتتجاوز العشرين مترا في ارتفاعها وتتسع لمئات من القبور الجدارية وذا أحيانا طابق تحت الارض . ويعرج إلى الطابق بأدراج ملتوية وفي جنبات كل طابق معازب وتوابيت عليها بعض المنحوتات والأسرة الجنازية . وصار المدفن — البرج يكسى من الخارج بالحجارة الكبيرة المنحوتة وله قاعدة مدرجة وفي واجهته الرئيسية شرفة بارزة جميلة فيها منحوتات تمثل صاحب المدفن وأهله ومعها لوحة مكتوبة تؤرخ المدفن . والطابق الارضي الذي يؤدي اليه الباب مباشرة يكون عادة أغنى الطوابق ، يبهج النظر بعضائده الكورنثية المخددة ، وأفاريزه المزخرفة الملونة ،

وسقفه المجزع الملون بالألوان الضاحكة والمحلى بالنقوش الشديدة البروز .

وأحسن النماذج الباقية في تدمر عن المدفن – البرج في أعلى مراحل تطوره هي مدفن ايلابل (١٠٣ بعد الميلاد) ومدفن يمليكو . وكلاهما في وادي القبور الشهير وقد سميا باسم مؤسسيهما . ومدفن ايلابل المعروف في تدمر باسم قصر العروس مؤلف من أربعة طوابق بارتفاع حوالي ٢٠ مترا تقريبا . الطابق الأرضي منها جميل ، سقفه ملون وأطرافه مزينة بالعضادات الكورنثية المخددة وبتماثيل أعضاء الأسرة . والطوابق الأخرى أبسط شكلا والثاني منهما مزين بشرفة كان فيها سرير جنازي .

٢ – المدفن – البيت :

ظهر هذا النوع من المدافن منذ القرن الثاني الميلادي ، وهو شديد الشبه بالبيت ، بطابق واحد ، وهناك نماذج عديدة منه في وادي القبور والمقبرة الجنوبية الغربية ، أوضحها هو مدفن مارونا (المعروف بقصر الحية) في المقبرة الشمالية وقد رممته المديرية العامة للآثار والمتاحف ، ومن أغناها مدفن عيلمي وزبيدا (٢٥٩) في المقبرة الغربية وهو يتسع لقرابة ثمانين شخصاً . ويمكن اجمال وصفه بأن له مدخل جميل غني بالنقوش بباب حجري ذي درفتين وراءه دهليز ينفتح على باحة فيها أربعة أعمدة تحمل رواقاً يدور بجوانب البناء والسقف مجزع غني بالزخارف الهندسية . وحول الباحة على طول الجدران مساطب جعلت فيها معازب كل منها يضم ثلاثة قبور فوق بعضها ، وفوق المساطب منحوتات جنازية تمثل أصحاب المدفن مع عائلاتهم .

٣ – المدفن الأرضي : (٢٦٠)

وقد انتشر هذا النوع في القرنين الثاني والثالث الميلاديين ، ونقدر أن هناك مئات منه في جميع المقابر التدمرية ، ظهر منها عام ١٩٥٨ حوالي عشرين قبراً دفعة واحدة في المقبرة الجنوبية الشرقية .

أحسن النماذج المعروفة في تدمر من المدافن الأرضية هي مدفن الاخوان الثلاثة ومدفن يرحاي المعاد في المتحف الوطني بدمشق ، ومدفن شلم اللات ومدفن طاعي وخاصة المدافن التي أعادتها واستعادها المديرية العامة للآثار والمتاحف إلى حالتها الاصلية في تدمر نفسها .

المدفن الارضي محفور في الطبقة الصخرية بشكل حرف T مقلوب ، وهناك نماذج أبسط أو أكثر تعقيداً من ذلك كأن يكون هناك في المدفن جناح واحد (مدفن بولبرك) أو جناح لم يحفر أو فيه أربعة أو خمسة أجنحة بدلا من الثلاثة .

ينزل إلى المدفن الارضي بدرج مستقيم أو منعطف وأحياناً بمنحدر غير مدرج . الدرج أو المنحدر يوصل ، على عمق قد يبلغ حوالي سبعة أمتار ، إلى باحة مزينة بعضائد بارزة قليلا عن الجدارين الجانبيين . وفي واجهة المدفن الخارجية نافذة حجرية مخرمة للانارة والتهوية ومعها لوحة التأسيس وتحتها ساكف منروز أحياناً بعدة مستويات وعليه نص أو نصوص الاشتراك على المدفن . تحت الساكف باب بدرفة أو بدرفتين يدور بجرن ويفتح نحو الداخل وقد نحتت فيه حقول مستطيلة مزينة بأشكال هندسية على مستويات عدة . وتنحت في الابواب رؤوس أسود أو حيوانات خرافية فيها حلقات تقليداً لدقاقات الابواب العادية .

وراء الباب درجتان أو ثلاثة ينزل بها إلى باحة داخلية تتوسط جناحاً رئيسياً في صدر المدفن وجناحين جانبيين . سقوف الاجنحة منحوتة في الصخر الطبيعي بشكل سرير مقلوب ومطلية بالمونة الجصية وبعضها مغطى بالفريسكات . مداخل الاجنحة وبعض اقسامها أحياناً معقودة بأقواس تتوسطها زهرة مركزية وفيها حقول مزخرفة .

وتحفر في جدران الاجنحة صفوف متوازية من المعازب العميقة وفي كل معزبة حوالي ستة قبور فوق بعضها . يسجى في كل قبر أحد الموتى ويغلق من دونه بتمثاله النصفي كما أوضحنا من قبل . وبين المعازب عضادات أو أنصاف أعمدة متوجة بتيجان كورنثية أو ايونية وتكون الاخيرة ماونة . ويدور فوق المعازب عند بدء انحناء السقف طنف بارز من الجص أو الحجر مزين باللسينات المتدلية أو غيرها من الزخارف .

وفي صدر الجناح الرئيسي وأحياناً في الاجنحة الفرعية تابوت أو اثنان أو ثلاثة فوقها مشاهد جنازية منحوتة كما فصلنا من قبل في فصل النحت الجنازي التدمري .

وفي المتحف الوطني بدمشق يتأمل الزائر في مدفن يرحاي المعاد بناؤه تحت الارض نموذجاً مثالياً للعمارة المتقنة الفاخرة التي وصل اليها المعماريون التدمريون في القرن الثالث الميلادي .

* * *

الفصل التاسع

الدين والمعتقدات التدمرية

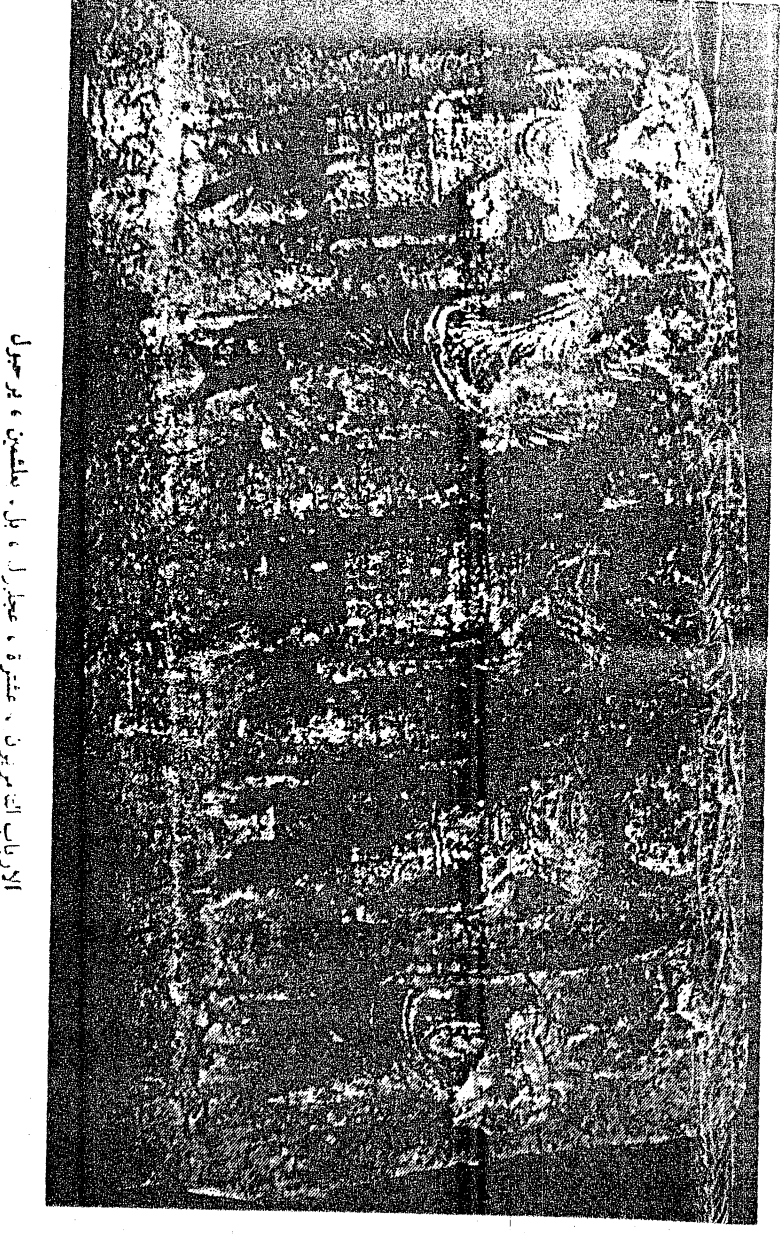
١ – مجمع الأرباب

سوف نرى في هذا الفصل أن جانباً كبيراً من الارباب التدمريين يعود إلى الديانات العربية القديمة كاللات والعزى ومنوة وشمس ورحم ورضو وشيع القوم . والعنصر الرافدي هو هام أيضاً كالأرباب بل ونبو وعشتار ونرغال . كلما اتحدت أرباب التدمريين وامتزجت ببعض أرباب اليونان والرومان كزوس وأبولون وأثينا وهرقل . وقد بدأ هذا الامتزاج في الرافدين وسورية منذ فتح الاسكندر المكدوني للشرق وتأسيس دولة السلوقيين . ولا تخلو الديانة التدمرية من تأثيرات أخرى كما سوف نرى . وليس عدد الأرباب التدمريين بالقليل اذ أن عددهم قد يقارب الستين .

وأرباب التدمريين ، وان كانت شاكية السلاح ترتدي الدروع وتضرب بالسيوف والرماح فانها تنزع إلى الرفق وتصفها النصوص بالرحمة والطيبة (رحمنا ، شكريا ، طبيا الخ) (٢٦١) .

بل – ومهما كانت الاجتهادات حول رأس الأرباب التدمريين فمن المؤكد حتى الآن أنه الرب « بل » ، (وهو بل – مردوخ البابلي نفسه) وهو يعادل زوس – جوبيتر لدى اليونان والرومان (٢٦٢)

وللأب جان ستاركي فرضية تقول أن بل حل في العهد البابلي الجديد (٦١٢ – ٥٣٩ ق . م) محل الرب بول (٢٦٣) الذي كان



الارباب التدمريون ، عشترة ، عجلبول ، بل ، بعلشمين ، يرحبول

ربما تدمرياً أصليا وهو نفس بعل الرب السامي المعروف الذي ظل محتفظاً باسمه في الرب بعلشمين . وقد كان بول رأس الأرباب التدمريين . وعندما حل بل محله بقي بول في أسماء بعض الأرباب التدمريين مثل عجلبول (رب القمر) ويرحبول (رب الشمس) وفي بعض أسماء الاعلام التدمريين مثل زبد بول وبولبرك وبولنا وأسماء العشائر التدمرية مثل بني جديبول وبني متابول . وليس من المستغرب أن يكون اسم الرب بل يلفظ بشكل بل أو بول وذلك بدلالة استعمال أسماء تكتب بشكلين مثل بل عشتور=بول عشتور ، وبلبرك = بولبرك(٢٦٤) وقد ظن البعض أنه رأى اسم الرب بول مستقلا في نص تدمري محرر باليونانية ظهر معنا في أعمال ١٩٥٩ (٢٦٥) والقطع بهذا الامر غير ممكن حالياً لأن كلمة بل ترد في النصوص التدمرية — اليونانية مضافة بالشكلين بيلوس و بولوس (ملك بيلوس . عجليبولوس) .

وعلى أية حال أن بول أو بل — مردوخ الذي هو بعل والمساوي لزوس — بيلوس الماجستوس (أي الجليل) هو رأس مجمع الأرباب التدمريين ورأس الثالوث التدمري الشهير بل يرحبول وعجلبول ، وله أكبر معابد المدينة بل أكبر معابد الجزيرة العربية والشرق .

وقلما تذكر النصوص الرب بل وحيداً وانما تقرنه في الغالب بشريكيه الأصغرين اللذين اتينا على ذكرهما . كما أنه يمثل في المنحوتات معهما في أكثر الاحيان وفي تدمر وحتى خارج تدمر (٢٦٦) حتى أن معبده عندما كرس بشكله الجديد في العام ٣٢ م كرس له وليرحبول وعجلبول (٢٦٧)

وهذان الشريكان يرحبول (الشمس) وعجلبول (القمر)

يقابلان مبدئياً « سول » و « لونا » اللذين يحفان بجوبيتر وفي اعتقادنا ليس الثالوث التدمري الاساسي ببعيد عن هذه التركيبة اللاتينية . على أن الرب بل يمثل في المنحوتات مع عدد كبير من الأرباب ومع ملكبل وشمس وحتى مع بعلشمين منافس الرب بل الاساسي (٢٦٨) هذا فضلا عن تمثيله مع قرينته المعروفة باسم « بلتي » ومع الربة عشتارته .

ودوماً يكون بل في الوسط ، في صف الأرباب التدمريين الذين يمثلون كالجنود في نسق واحد وبل يكون دوماً بالزي العسكري كالعديد من الأرباب التدمريين (٢٦٩) وشعره مصفف بشكل مستدير حول وجهه مثله في ذلك مثل يرحبول وعجلبول وملكبل وشمس ، وتنتشر منه أشعة الشمس ولكنه يمتاز عنهم بأن له قلنسوة صغيرة اسطوانية مقولبة غالباً. ونجد معه أحياناً كرة في اليد اليسرى. وهو يرتدي ثوباً قصيراً فوقه درع مضفورة مميزة له (بينما دروع الاربابتكون دروعاً عضلية .) وهو يتمنطق بسيف ويستند باليد اليمنى إلى رمح أو صولجان . أما قرينة بل ، سواء بلتي أو عشتارته ، فترتدي عادة ثوباً طويلا فضفاضاً كأكثر الربات التدمريات .

يرحبول —

أما يرحبول الذي يمثل الشمس في ثالوث الرب بل فأمره مستغرب فاسمه يدل على القمر (يرح يعني قمر أو شهر) رغم أنه رب الشمس وهذا الأمر لم يزل موضع جدل . وهو يرتدي الزي العسكري . وهو رب النبع أيضاً . ويرى الأب ستاركي بأنه كان بالأصل من أرباب الراحة في زمن الأموريين باسم يرح ثمّ امتزج بالرب بول (بعل) عند مجيء الآرامين(٢٧٠) .

عجلبول —

وعجلبول مثل سابقيه يمثل بالزي العسكري ولكنه يتميز علاوة عن الأشعة الشمسية بهلال ينطلق من الخلف على جانبي عنقه (وفي احدى منحوتات القرن الأول نجد الهلال على جبين عجلبول) وعجلبول كما ذكرنا يمثل القمر سواء مع ثالوث بل أو مع ثالوث بعلشمين حيث يكون شمس الرب الشمس .

ملكبل —

ويقترن غالباً عجلبول بالرب ملكبل واسم ملكبل يعني ملاك الرب بل أو رسوله وملكبل إذا مثل وحيداً يكون أحياناً على عربة وقد يجر هذه العربة فهد أو أربعة غريفونات (٢٧١) كما يمثل كرب شمسي في ثالوث الرب المجهول وقد يحل أحياناً محل يرحبول في ثالوث الرب بل . وهو يرتدي غالباً سراويل وقمصيا وأحياناً رداء عسكرياً . وله صفتان رب شمس من جهة وراعي الحقول والقطعان في الواحة من جهة ثانية . وقد تكون تلك أقدم مهماته .

عجلبول — وملكبل —

وعجلبول وملكبل يعرفان باسم « الأخوين المقدسين » ويمثلان معاً في المنحوتات(٢٧٢) . وقد اقترن اسما ملكبل وعجلبول منذ القديم . فعلى جابية حجرية عثرنا عليها خلال تنقيبنا لشارع المسرح الآخير وجدنا نصاً يجمعهما منذ العام ٢٩ بعد الميلاد(٢٧٣) ولهما معبد مشترك ليس ببعيد عن مكان الاكتشاف . وهناك ذكر لكهنة عجلبول وملكبل وسرج فخارية تحمل اسميهما وأخوية دينية تلتم حول هذين الربين ولا

نستبعد أن تكون غرفة المائدة في زاوية الشارع الرئيسي – شارع المسرح مخصصة لتلك الأخوية .

نبو :

يخيل الينا أن من الأنسب أن نتحدث عن نبوونحن في صدد الحديث عن أسرة بل فهذا الرب الذي أسعدنا الحظ باكتشاف معبده وتحقيق هويته وانجاز التنقيب فيه(٢٧٤) هو بالأصل الابن البكر لمردوخ ، بل واسمه في البابلية«نبيوم»التي تعني النبي أو الرسول وهو كاتب الأرباب الذي يسجل المقادير في اللوح المحفوظ وهو سيد القلم وكان له حظوة في الرافدين ومن ثم في سورية حيث كان يقترن مع بل في الجزيرة والشمال.وتدل على شعبية في تدمر أسماء الأعلام الكثيرة المركبة مع اسمه : برنبو نبو جدي نبوزبد نبو يدع الخ والعديد من البطاقات الفخارية التي تحمل صورته وهو في تدمر وسورية كلها كما في الرافدين يوحد بأبولون لتشابه مهماتهما في مجمع الأرباب فهما مسؤولان عن الهواتف الربانية التي تحدد المصائر البشرية وإذا ورد اسم برنبو في التدمرية فيقابله نحو « أبو ليناريس » وهناك أمثلة أخرى لايتسع لها المجال . ويقترن نبو في تدمر على البطاقات الفخارية مع بل أو يرحبول وعجلبول وهرقل/ نرغال ويمثل حاملا القيثارة أو في الزي التدمري الشرقي . وقرينته هي نناي أرتميس ، وله أخوية دينية خاصة بعبادته وعيده في السادس من نيسان(٢٧٥)

بعلشمين

والرأس الثاني لمجمع الأرباب التدمريين هو دون شك الرب بعلشمين (سيد السموات) ومهماته وصفاته قد تختلط بمهمات الرب بل، إذ أنه يعتبر أيضاً سيد الخلود وسيد العالم وهو يمثل بملابس مدنية وعسكرية جاثياً أو واقفاً ومن رموزه حزمة السنابل كرب للخصب والزوبعة كرب

للعواصف والمطر . وإذا كان الرب بل قبل كل شيء سيد الأجواء السماوية والمصائر البشرية المرتبطة بها فان بعلشمين مثل الرب حدد هو رب العاصفة والأمطار الخيرة(٢٧٦) ويوصف بأنه سيد العالم كما يوصف بالطيب والكبير والمثيب والرحمن ، وهذه الألقاب انتقلت فيما بعد إلى الرب المجهول الذي يسمى بالتدمرية « لبريك شمه لعالما » يعني « الذي يورك اسمه إلى الأبد » الرحمن الرحيم(٢٧٧) الذي قدمت له المئات من المذابح الصغيرة ذات المباخر . كما وصف بأنه الرب الأحد . وهذا الرب المجهول غلبت شعبيته في تدمر على شعبية كل رب آخر منذ منتصف القرن الثاني الميلادي حتى سقوطها حوالي أواخر القرن الثالث الميلادي . والبعض يرى في ذلك اتجاها نحو التوحيد(٢٧٨) . والأمر الذي يقف عثرة دون تأكيد ذلك هو وجود نصوص تدمرية تذكر الرب المجهول مع الربين عجلبول وملكبل (الأخوين المقدسين) (٢٧٩) كما أن مما يتعارض مع اعتبار « الرب المجهول » وبعلشمين رباً واحداً هو أن معبد بعلشمين ظل يعرف باسمه حتى آخر أيام تدمر . ومن ناحية ثانية أن المذابح المهداة إلى « الذي بورك اسمه إلى الأبد » أي « الرب المجهول » لم يعثر عليها عند معبد بعلشمين بل بصورة رئيسية عند نبع « افقا » وكذلك في الرابية المشرفة على تدمر والمعروفة بمعسكر ديوقلسيان . ونأمل أن توضح أعمال التنقيب المقبلة هذه النقطة الهامة كما أوضحت غيرها من قبل .

٢ – الأرباب العربية

إن اللات والعزى (عزيزو) ومنوه ورحم وأرصو (رضو) وشيع القوم هي أرباب عربية رئيسية لاشك فيها . وثمة أرباب عربية ثانوية مثل منعم وسلمان ومعني وأجل وسعدوأسعد وأسد (أو أشر) وأسلم

معبد بعلشمين .

وذور حلون . وفي هذا يظهر الأثر الكبير الذي كانت تمارسه المعتقدات الوثنية العربية على تدمر وبشكل أخص على أقاليمها منذ القرون التي سبقت الميلاد وقد ذكرنا ذلك في البحث عن أصل التدمريين .

اللات

وتتخذ اللات تلك الربة العربية الشهيرة أحياناً صفات الربة آثينا — ميترفا وتوحد بها وذلك أمر واضح من النصوص المزدوجة ومن أسماء الأعلام (وهب اللات = اثينودورس) كما تتحد أحياناً صفاتها الخاصة وحيوانها الأسد كما تظهر في البطاقات(٢٨٠) وتحمل أحياناً السعف ولها رموز أخرى كالنجم المثمن . والدليل القاطع على شعبيتها كثرة أسماء الأعلام المركبة مع اسمها في تدمر واقليمها (تيم اللات = عبداللات . ووهب اللات = هبة اللات . وشلم اللات = سلام اللات . وكذلك جد اللات ونصر اللات وسعد اللات وأمة اللات . وللات صفات ربة محاربة فتبدو مع الترس وقد تعتمر خوذة حربية . ومن المعروف أن معبد اللات موجود في الحي الغربي الذي يعرف بمعسكر ديوقلسيان بتدمر وثمة نص على ساكف يذكر بناءه من أحوال الربة اللات(٢٨١) وقد كشفت البعثة البولونية عنه عام ١٩٧٥ ووجدت فيه تمثالاً رائعاً لأثينا / اللات يعتبر من أروع وأندر التماثيل لتلك الربة(٢٧٢) كما عثرت أمامه على تمثال أسد بارتفاع أكثر من ثلاثة أمتار ونصف هو من أجمل منجزات النحت .

أرصو وعزيزو حماة التجارة

أما الثاني أرصو (رضو) وعزيزو (العزى ؟) فهما كوكبا الصباح والمساء ومن أرباب القوافل المحببة ويمثلان في احدى المنحوتات التدمرية من اقليم تدمر(٢٨٣) راكبين . الأول يعتلي البعير والثاني يمتطي

الحصان ومعهما رمحان مشرعان. وأرصو يعادل عند بعض عرب الشمال كالنبطيين والصفويين ربة التي هي رضو أما عزيزو فلعله هو العزى (وهي انثى أيضاً) أو الرب السوري المعروف بالاسم نفسه والذي كان يعبد في الرها مع الرب منعم .

منوة

ومن الأرباب العربية منوة ربة المصير المحتوم . التي تماثل نوعما الربة نمسيس وهي ممثلة في احدى البطاقات جالسة وبيدها الصوجان (٢٨٤) وقد تم الكشف عن معبد لها ولقرينها (؟) بلحمون في قمة جبل المنطار خلال تحريات قام بها هناك الاستاذ دومنيل دوبويسون (٢٨٥) .

ومن الأرباب العربية الشهيرة شيع القوم الرب النبطي رب القوافل الصاحي الذي لايشرب الخمر (٢٨٦) .

ونجد في اقليم تدمر الشمالي الشرقي ، جبل شاعر وجبل المراة مجموعة من الأرباب العرب الخيالة كأبجل الذي نعرف معبدا له في خربة سمرين (٢٨٧) بجبل شاعر وهو ممثل في منحوتة جديدة نشرناها مؤخرا (٢٨٨) وأشر (أو أسد) ومعن والهجان سعد (أو سعر) ويسمى شلومبرجه . هذه الأرباب « أرباب السهوب » ويقول إنهاليست وثيقة الصلة بالواحة ـ المدينة (٢٨٩) ولكننا نعرفها في المدينة في أكثر من مناسبة . على أن الأصح أن نقول أنها معبودات العشائر التي لم تستقر بعد في المدينـــة ومنهم الأرباب الواردون عن طريق التجارة من كل حدب وصوب .

٣ ـ الأرباب الآخرون

ومن هؤلاء الأرباب الواردين من كل جدب لايصح أن نغفل ذكرا

الربة السورية الشهيرة ربة منبج (هيرابوليس) المعروفة بالربة السورية (دياسيرا ـ اترغاتيس) التي كانت عبادتها منتشرة أيضا في تدمـــر ، كما في غيرها من أقاليم سورية . ولكن زوجهاحدد لم يعثر له على ذكر حتى الآن في تدمر كما ألمحنا من قبل . وهناك من الأرباب نرغال البابلي الذي وحد مع هرقل وشدرفا رب الشفاء ورمزه العقرب (٢٩٠) . وقد عثرنا خلال أعمال التنقيب التي قمنا بها في الشارع الرئيسي بتدمر بجوار القوس المعروف بقوس النصر على فقرة عمود من النوع القديم عليها نص يذكر الربة الفارسية الأصل انهيت (٢٩١) التي ورد ذكرها من قبل في البطاقات الفخارية . ويمكن اضافة أسماء أرباب كثيرين ورد ذكرهم وذكر معابدهم في النصوص ولم نعثر لها على أثر بعد مثل آريس/مارس رب الحرب وهناك ذكر الربة المصرية ايزيس (٢٩٢) وغيرها كثير من الأرباب . ولكننا نكتفي بهذا القدر لنعطي فكرة عن وفرة الأرباب التدمريين والتأثيرات الـكثيرة التي خضعت لها الديانة التدمرية بسبب وضع تدمر الجغرافي والاقتصادي .

وبودنا ، قبل أن نختم معالجة موضوع مجمع الأرباب التدمريين أن نؤكد على صعوبة تمييز الأرباب التدمريين بعضهم من بعض في كثير من الاحيان وتمييزهم أحيانا عن الناس العاديين . وان المرء ليتساءل ازاء صور الخيالة والهجانة فيما اذا كانت تمثل جنودا أو أناسا عاديين أو أربابا . فالشبان التدامرة كثيراً ماتكون شعورهم كشعور الأرباب وأزياؤهم كذلك وفي ذلك كله صعوبة جدية ثم إن رموز الأرباب قد تلتبس فلم يكن هناك تحديد دقيق لهذه الرموز دوما .



الربة إشتار في أروع المنحوتات التدمرية .

الجن في تدمر :

قد لايختلف مفهوم الجن لدى التدمريين عن مفهومها في الجاهلية والاسلام فالجن في تدمر على ماتبين حتى الآن هي عبارة عن كائنات أدنى من الأرباب على الراجح وهي « قريبة » (شبيبا) وطيبة (طبيا) كما ظهر معنا في النصوص التي كشفناها حديثا في شارع بعلشمين وفي جوار معبد نبو (٢٩٣) وقد تكون الجن حامية لقرية أو قبيلة أو زراعة كجن بيت فصئل وهناك مجادلات حول كون الجن اسم علم لرب معين أم اسم جنس (٢٩٤) وقد كتب لنا المرحوم شلومبرجه يسأل عن وجهة نظرنا في هذا الموضوع كعرب، واختصاصيين بالشؤون التدمرية فأجبناه بأن أي عربي لايجادل في كون الجن ، الجنة الجني الجنية أسماء جنس فكما أن هناك اسم انس هناك اسم جن وهي بالعرف والدين مخلوقات ترانا وتسمعنا ولا نراها (قل اوحي الي أنه استمع نفر من الجن . . . .) وفي الجاهلية الجن معروفون ولكنهم أدنى مرتبة من الأرباب .

* * *

الفصل العاشر

الاسرة التدمرية

١ ـ المسكن التدمري

ان نماذج البيوت التدمرية التي نعرفها من قبل . أو التي نقبنا عنها مؤخرا ليست كثيرة ، ولكنها كافية لاعطائنا فكرة واضحة نوعا ما عن البيت التدمري ، حوالي القرن الثاني بعد الميلاد .

ولا نظن أن كل بيوت التدمريين الأحرار كانت مثل الفيلا الرائعة القائمة شرقي معبد بل والتي نزلت أرضيات غرفها بالفسيفساء وبلطت باحاتها بالبلاط الجميل وزينت جدرانها بزخارف الجص النادرة ، وهي تتفيأ بظل معبد بل رب الأرباب التدمريين وتتفتح على بساتين الواحة (٢٩٥) . كلا فبيوت اللبن كانت كثيرة وآثارها منتشرة خاصة على ضفة الوادي الغربية في مقابل الآغورا .

ان البيوت التي نعرفها هي بيوت الميسورين والأغنياء وهي لاتخرج في مخططها عن مخطط البيت الشرقي : مدخل بدهليز وباحة ذات أروقة محمولة على أعمدة كورنثية أودورية وفي الباحة أحواض ماء وزهور وتماثيل وتكتنفها الغرف . والغرفة الرئيسية موجهة للشمس . هناك أحيانا أكثر من باحة وطابق ثان يطل حتما نحو الداخل . والغالب أن يكون الطابق الثاني من اللبن أو الآجر ولا يبعد أن يكون هناك مدماك واحد أو أكثر من الحجر والمداميك الأخرى من اللبن والآجر . وتطلى البيوت بالمؤنة الجصية وتحدد الجدران وتؤطر بالزخارف الجصية . وفي أحيان

كثيرة هناك صور جدارية لطيفة . وفي البيوت بئر أو أكثر حسنة التنسيق مع بلاط الباحة . وثمة خوابي للزيوت والخمور وأفران .

وقد وجدنا القليل جدا من الأثاث . ولكن يمكن أن نستنتج من المنحوتات والمقارنات ، وجود أرائك وكراسي قابلة للطي وطنافس مزركشة وبسط لطيفة وسرج نحاسية وفخارية مزينة بأشكال نباتية وحيوانية وكتابات . وهناك علاوة على ذلك تماثيل وقدور وكؤوس . ومن المؤكد أن بعض البيوت فيها مصليات ومكتبات واسطبلات وقسم للعبيد .

٢ — الزوجة

ان نظام الأسرة في تدمر ، كما هي الحال في النظام العشائري العربي والروماني في ذلك العصر كان يتركز على رب الأسرة بالمعنى الواسع أي « Paterfamilias » . وهو حجر الزاوية في البيت يزيد قدره بزيادة سنه واتساع عدد أفراد أسرته وحرمه وعبيده . وهو السيد المطلق على اسرته ولا رادّ لمشيئته . على أننا نستنتج مما لدينا من منحوتات وصكوك ، ان الزوجة على الرغم من سيادة الرجل كانت ترث وتورث والأمر ظاهر خاصة في لوحات تأسيس المدافن واقتسامها ، ومن ذلك مثلا ماورد في لوحة تأسيس مدفن شلم اللات بن مالكو من أن « بيت الأبدية هذا عمله شلم اللات بن مالكو بن دنيس . . . . ومن بعد موته شارك ابنه حنبل وزوجته فوشتينا بنصف المدفن زبد عته بن حنبل بن دينيس » فهي هنا وارثة ولها حق التصرف بالارث .

ولم يكن الزواج باثنتين معروفا ولكن حالة واحدة نعرفها من مدفن

بولبرك الذي نقبنا عنه عام ١٩٥٨ ، نجد فيها في مشهد الوليمة الجنازية على سرير بولبرك سيدتين كتب بقرب كل منهما « أنت بولبرك » أي أي زوجة بولبرك (٢٩٦) ولكننا لاندري ان كانت هاتان الزوجتان قد تعايشتا معا في كنف الزوج أو حلت الثانية بعد موت الأولى . وعلى الرغم من حسن وضع المرأة وتصويرها في المنحوتات وذكرها وضمها في مشاهد الأسرة فانها — على ماظهر حتى الآن — لم تكن تتولى في الحياة العامة على مايبدو أية مسؤولية ماعدا الملكة زينب وإذا كانت المرأة التدمرية ذات زي ودل وقلائد وأقراط وأطواق وذوائب وعصائب ورصائع ، خاصة في القرن الأول ومطلع الثاني ، فإنها متمسكة بمغزلها ودرّارتها (٢٩٧) وتمثل دون استثناء تقريبا عند قدمي الرجل المضطجع في الوليمة ولكن قد تتقدم على ابنها (٢٩٨) .

٣ — الأولاد

التدمري والتدمرية يتزوجان في سن مبكرة على الراجح ، والزواج بالأقارب ليس هو القاعدة العامة ، بل انه قليل . ونحن لم نقم بعد باحصاء دقيق في هذه الناحية . ولكن يخيل لنا من استعراض جداول الأنساب في الأسر أن «الغريبات» كن كثيرات وكما ذكرنا في بحث الفن النحت التدمري يظهر الأولاد الصغار بشكل البالغين ، فالطفل حتى ان كان رضيعا على ذراع أمه ، فهو يمثل بهيئة الرجل وبزيه فيبدو بشكل رجل قصير والأمر كذلك بالنسبة للطفلة فهي امرأة قصيرة ولكن لباس رأسها مختلف أو غير موجود . وعلى هذا فان تمييز الأطفال يكون بأشياء ترمز لهم من عناقيد عنب أو طيور (حمائم غالبا) وأشياء أشبه بالحقائب المدرسية وغير ذلك (٢٩٩)

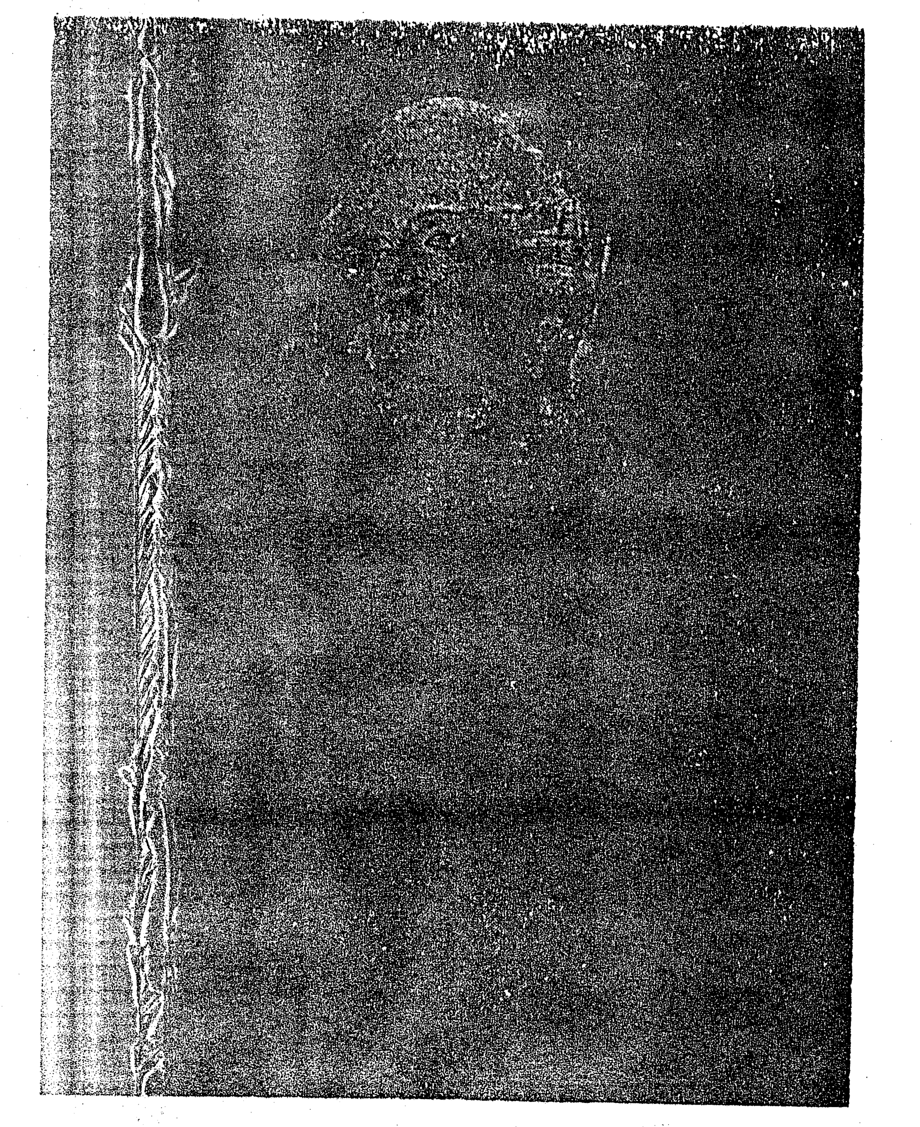
ومهما كان هذا التمثيل مجافيا للمألوف فإن مجرد تمثيل الأطفال مع الكبار في الولائم الجنازية أو على سواعد امهاتهم أو لوحدهم . يدلنا على جانب كبير من الاهتمام بالأطفال . والقاعدة العامة استنتاجاً من شجرات النسب هي أن الولد البكر يحمل غالبا اسم الجد أو أب الجد . وليس ذلك بالمضطرد على أية حال . وكان شابو قد ذكر أن الابن الثاني يحمل اسم جده لأمه (٣٠٠) ولكننا شخصيا لم نعثر على شواهد كافية لتأييد ذلك .

ويحب التدمريون لأولادهم أسماء يبسطونها ويدلعونها ويصغرونها أو يتوددون بها مثل وهبي وسعدي وتيمي وعويد وحبيبة (٣٠١)

٤ – شيء عن الزي والزينة

على الرغم من غزارة الحلي الظاهرة في المنحوتات التدمرية فان ماعثر عليه من الحلي خلال أعمال التنقيب قليل جدا . والمدافن التي بقيت سليمة حتى الآن لانجد فيها من حيث زينة المرأة والرجل الا أشياء عادية ، كالأقراط والخواتم البسيطة . وتعليل ذلك أن التدمريين أصلا ليست عندهم فكرة عن حياة مادية بعد الموت . ثمّ انهم تجار يحسبون لكل شيء حسابة فليس من المعقول أن يتركوا ثروات تضيع عليهم في رفات الموتى . واذا كانت المتاحف لم تحظ بمثل هذه الكنوز فان المنحوتات التدمرية قد أعطت عنها فكرة واضحة جدا . ومن يتصفح الصور المرافقة يتحقق من ذلك . وقديما تغنى العرب بالأذن التدمرية كناية عن جمال الأقراط .

كما أن الشاعر بودلير قد تغنى بالحلي المضيعة من تدمر القديمة (٣٠١ مكرر) وان كنا لانستطيع في هذا المجال أن نفي الموضوع حقه فيحسن



فاتنة تدمرية في أتم زينتها – مدفن شلم اللات .

بنا على الأقل أن نذكر أن تمثال سلمه بنت تيم آرصو في متحف ني كارلسبرغ في كوبنهاغن يمثل هذه الحسناء بسبعة عقود ، وأكليل معقود بثلاثة صفوف ، وسوارين في كل معصم ، ماعدا الرصيعة والخواتم (٣٠٢) . وفي تنقيبات مدفن شلم اللات ظهر معنا تمثال الفتاة مارتي حفيدة مؤسس المدفن وهي تحمل خمسة عقود وقلادات متعانقة ، ولها سواران ، وخمسة خواتم اثنان منهما في اصبع واحد (٣٠٣)

وتورينا المنحوتات علب المجوهرات ، وبعضها يحمله العبيد (٣٠٤) وتكون هذه الحلي في التماثيل ملونة أحياناً بماء الذهب وببعض الألوان الأخرى تمييزاً للحجارة الكريمة . كما نجد تخطيط الحواجب وتكحيل الجفون وأحمر الشفاه بأكثر من لون. وهناك حالة وجدنا فيها طلاء الشفاه بماء الذهب (٣٠٥) ولتصفيف الشعر أساليب كثيرة كالتجعيد والضفائر والرفع والذوائب المشذبة على الجبين والصدغين.

ولقد زودتنا المنحوتات بمعلومات وفيرة عن أزياء الكهنة التدمريين الكهنوتية ، وقلنسواتهم التي تشبه قلنسوات الكهنة الفينيقيين (٣٠٣). والقلانس مبطنة وهي غالبا من اللباد أو مافي حكمه . وعلى القلنسوات شعار قد يرمز الى رتبة الكهنة . فهناك قلنسوات خالية من أية زينة وأخرى مزينة باكليل من أوراق النبات تتوسطه زهرة .وأخيرا قلنسوات يتوسط اكليلها تمثال نصفي يمثل كاهنا . وكانت الزينة من البرونز وقد تأكد لنا ذلك من كشف تمّ معنا في الشارع الطويل (٣٠٧) . ومع ذلك نجد كهنة دون قلنسوات . ومعاطف الكهنة يغلب عليها (خاصة في القرن الأول الميلادي) أن تكون حواشيها مطرزة أو منزلة . وكذلك ياقة القميص وطرف الكمين . وعلى الخصر زنار عريض كما سنرى في الفصل التالي .



كهنة تدمريون في منحوتة من الطراز العتيق (معبد لبو)

والكهنة حليقون دوما . أما الرجال العاديون فهم حليقون أو ملتحون وشعورهم مجعدة أو مموجة وهم يرتدون عادة زيا محليا بسيطا أو زياً يونانيا أو فارسيا.وان اللباس البسيط أو غير المخيط الذي كان يرتديه رجال تدمر على مختلف مستوياتهم قد حل محله فيما بعد لباس يتألف من قميص قصير اشبه بالسترة وتحتها سراويل وأخفاف معتوفة حافلة جميعا بمطرزات غنية جدا منزلة بالحجارة الكريمة ونصف الكريمة مما كان مألوفا في بلاط فارس (٣٠٨)

أما النساء فلباسهن التقليدي عباءة أو وشاح ينزل من الرأس الى الكتفين ثمّ يلف كامل الجسم وهو مثبت في الجهة اليسرى من الصدر برصيعة أو « شكله » . وعلى الرأس تحت الوشاح عمرة أو حطة ملفوفة تحتها عصابة مطرزة . وتحت العباءة ثوب بكمين طويلين أو قصيرين . وطراز الثوب واحد تقريبا بتعديل في جيب الرقبة وبعض التفاصيل والزخارف . وتحت الثوب يبدو أحيانا ثوب آخر أو غلالة . ونادرا نجد ، سيدات دون عمرة الرأس ، بطاقيات أو دون شيء . وما ندري ان كن من غير السكان الأصليين . هذا والأطفال من الذكور يرتدون ثوبا فضفاضا يشده حزام في الوسط ، أمّا البنـات فأثوابهن طويلة ضيقة .

★ ★ ★

الفصل الحادي عشر

التدمريون في مناسباتهم الاجتماعية

١ — العيد

أن يوم السادس من نيسان هو يوم العيد السنوي في تدمر ، وهو يوم له جلال وقدسية على ما يظهر . وفي ٦ نيسان تمّ تأسيس وتكريس معبد بل(٣٠٩)الذي هو أكبر معابد المدينة وبيت أربابها . وهناك كتابة يونانية تسمى يوم ٦ نيسان اليوم الطيب(٣١٠). واننا سنصف الاحتفال الديني بهذا العيد في معبد بل نفسه. واذا كان بل ربا رافديا بالأصل، فان أكثر المتحمسين له ، وبناة بيته في طوره القديم والجديد ، هم من القبائل العربية . ثمّ إن الطقوس الأساسية التي كانت مكرسة له كالطواف والموكب هي عربية خالصة كانت شائعة في عهد الوثنية .

لنتصور هذا المعبد بحرمه المركزي الشاهق ، بأعمدته المذهبة التيجان وصحنه الرحيب الذي يبلغ أربعين ألف متر مربع (٣١١) لنتصوره بأبوابه المذهبة (٣١٢) وكؤوسه وصوانيه ومباخره الذهبية (٣١٣) ، وقد وافته القبائل من كل حدب وصوب . ودخل تحت أروقته الشاسعة وفي صحنه عشرات الألوف من المتعبدين شيبا وشبانا ونساء وأطفالا . وقد ارتدوا جميعا أفخر ما لديهم من الثياب ، وتطيب الرجال وشذبوا من لحاهم ورجلوا شعورهم . وازينت النساء . وقد تجمع باعة التحف والطيوب والايقونات والزهور والمآكل الشعبية .

وأمامنا مئات الكهنة (القمرا أو الأفكلا) ، على رأسهم الكاهن

الأكبر لمعبد بل أكبر شخصية دينية في المدينة(٣١٤)وهم حليقو الرؤوس واللحى ، يرتدون الملابس البيضاء ومنها المطرزة والعقيق والتوباز والزمرد وفوقها معاطف مثبتة إلى الكتف الأيمن . ولهم زنانير عريضة مرصعة وهم يعتمرون بقلانس اسطوانية عليها أكاليل بسيطة أو مزهرة أو مصورة(٣١٥)وبأيديهم البخور وأباريق الزيت المعطر والنخيل والآس . وها هم الكهنة الكبار المولجون بقدس الأقداس ، وها هم الكهنة المرتلون والعازفون والمصفقون والمولجون بالناس والأعمدة ؟ (٣١٦) ثمّ العرافون والخدم،ثمّ نرى زعماء البيوتات التدمرية ورجال الدولة وكبار الزوار وممثل روما .

واذا نظرنا إلى الجهة الغربية نرى النذور من المواشي تدخل على المنحدر وتتجمع الناس للنظر ا..ا وهي تتدافع لتصل الى المذبح الكبير الذي ستطل الدماء فيه وتسيل قنوات ، قرابين مقبولة ونذورا مستوفاة . ورائحة البخور والند والآس والأرز والطيوب الفاغمة المتصاعدة من المباخر والمذابح تملأ جوّ نيسان الدافيء.والخمور المحلاة بالعسل تراق على اسم الأرباب . وأواني الطقوس وآلاتها تغسل في الحوض المقدس .

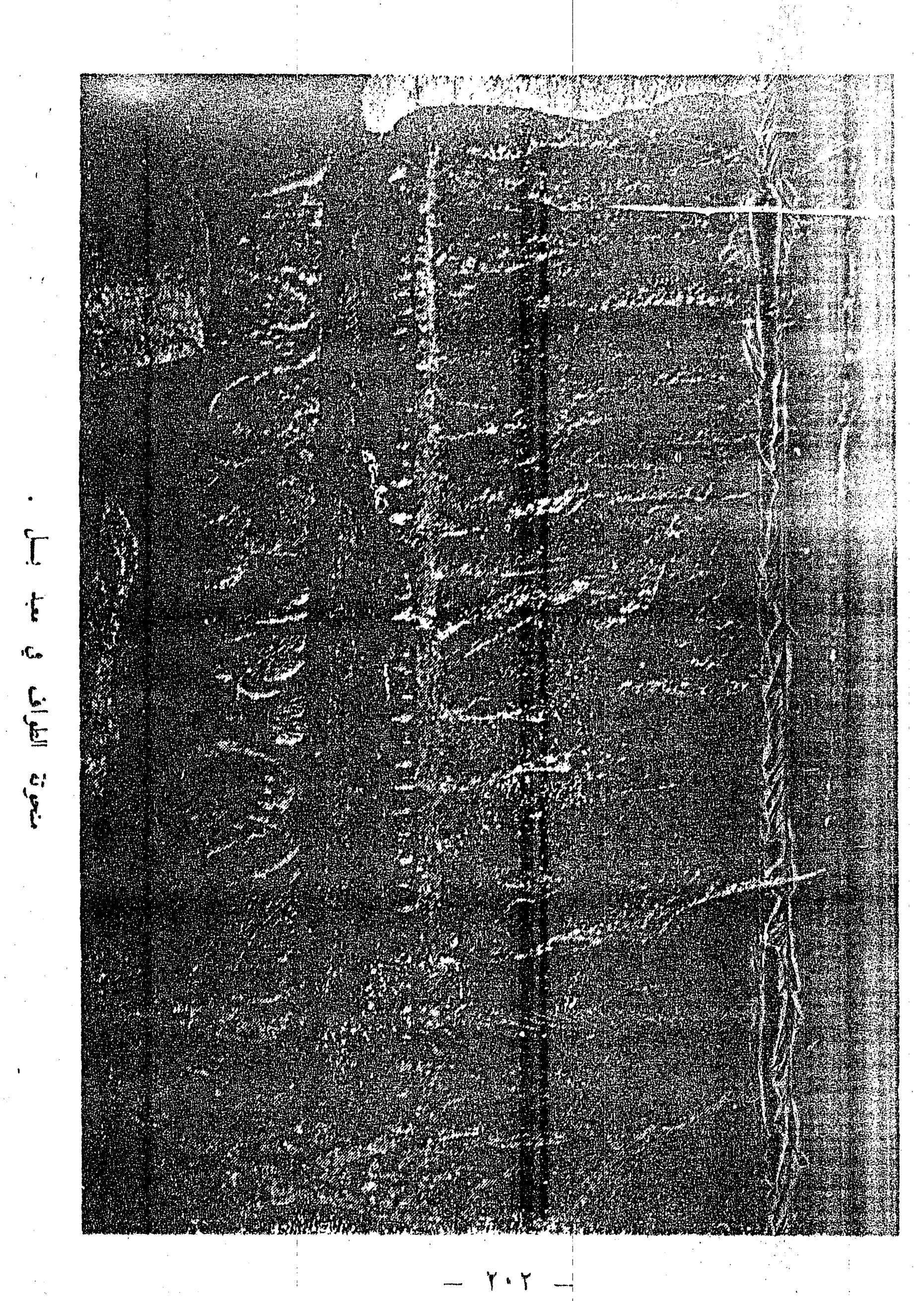
واذا كنا لا نستطيع استعادة سير الطقوس وترتيبها فان هناك طقسا أساسيا معروفا في العيد هو الطواف الذي يثير حماس الجمهور . وهو يتضمن انزال صنم الرب من محرابه في يمين الهيكل المركزي وحمله على سرير مذهب ، والنزول به على منحدر الهيكل إلى الباحة . والمرجح أنه كان يحمل بعد ذلك على جمل كريم ويطاف به حول الهيكل ووراءه نساء محجبات وسدنة.ولقد عثر على مشهد لهذا الطواف منقوش على جسر حجري كبير كان في سقف رواق المعبد . وهذا

المشهد يمثل جملا عليه قبه حمراءيقوده سادن وأمامه وخلفه رجال، رافعو الأيدي (٣١٧) .

ان هذا المشهد مطابق لما نعرفه عن الطقوس العربية قبل الاسلام، وطابعه العربي.كما يرى سيريغ،لا شك فيه(٣١٨) وكان الجمل في الطقوس العربية القديمة يحمل قبة حمراء من أدم فيها الصنم المعبود أو حجر البتيل ليطاف به . وقد قال الأب لامنس : « انني أعرف قلة من الديانات اتخذت فيها مواكب الطواف مثل هذه الأهمية البالغة ... والحج نفسه لم يكن آخر الأمر الا موكبا طويلا فيه مراحل » . وبمناسبة دراسة قام بها فرانز كومون لدمى فخارية تمثل موكبا دينيا على ظهور الجمال ذكر الأب لامنس أن هذا التقليد تؤكده رواية عن اجراء لقريش في موقعة أحد . ثمّ يذكر أن موكبا من النساء كان يواكب القبة أو الخيمة المقدسة وأن الواقدي في المغازي أخبر أن القرشيين قرروا قبل الذهاب إلى أحد ، أن يأخذوا النساء . . . ثمّ يضيف قائلا : إن في ذلك برهانا جديدا على أننا بصدد تظاهرة دينية . . إلى أن يقول أخيرا أن البتل المحمولة والقباب التي هي بمثابة بيت الرب قد أسهمت في اشاعة تقليد المواكب الدينية وهي لا تسير الا مواكبة رسميا بالكهنة والسدنة والكاهنات (٣١٩) .

٢ — الوليمة

إن الأضحيات التي كانت تذبح بأيدي كهنة مغتسلين متطهرين يحملون سكاكين خاصة ويتبعون اجراءات دقيقة ، سوف تولم عليها وليمة مقدسة في غرفة المائدة ، لا يدخلها الا الكهنة الكبار وعلية القوم ، والدخول لهذه الوليمة ببطاقات صغيرة من الفخار وقلما



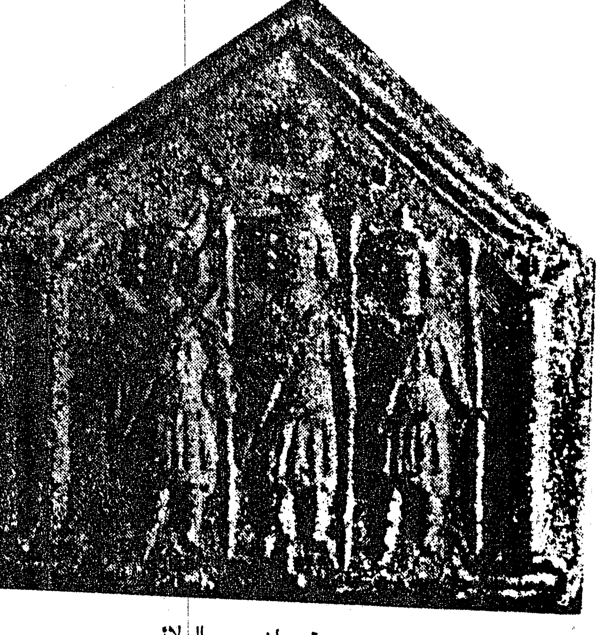
منحوتة الطراف من معبد بل .

تكون من المعدن أو الزجاج عليها صورة الرب أو رمزه واسم مقدم الوليمة ورموز شتى وتحمل البطاقة أحيانا كمية الطعام والشراب المخصص لكل ضيف(٣٢٠) . وفي الوليمة كان المدعوون يستلقون على طنافس فوق، مقاعد حجرية بموازاة الجدران. والمقاعد مصفوفة بشكل نعل الحصان وفتحته نحو الباب وفي الصدر يجلس رئيس المائدة المعروف باسم « رب مرزحا » (Symposiarque) في اليونانية أي رئيس وليمة دينية وهو هنا الكاهن الأكبر لمعبد بل . وفي القاعة عدد من المباخر والمذابح من الحجر والمعدن وفي احدى زوايا المكان جرن حجري كبير كالجابية (جباتا في التدمرية) فيه كمية هائلة من الخمر يغرف منها للمدعويين الذين يحتسونها بكؤوس ضخمة تمسك باليدين وثمة زقاق للخمر كانت مستخدمة أيضا (٣٢١) .

أن الوليمة في تدمر لها دور أساسي . واننا لنعرف الكثير من قاعات الولائم في معبد بل ومعبد بعلشمين وفي الشارع الرئيسي وفي الآغورا ولا نعرف ما اذا كان هناك فارق بين ولائم المعابد وولائم الأخويات(٣٢٢) خارج المعابد، وفي اعتقادنا أن ولائم كثيرة دينية وقبلية واجتماعية كانت تجري بالمدينة في هذه المناسبة وغيرها من المناسبات .

٣ — المسرح

أن مسرح تدمر في وضعه الراهن هو مسرح صغير ولا يدل على أن مثل هذا النشاط في وجهيه الثقافي والترويحي كان واسع الانتشار في تدمر . ثمّ أن هذا المسرح الذي لم يكن ليتسع — حسب ما نراه منه الآن — لأكثر من ألف شخص ، كان يؤدي وظيفتين أساسيتين هما



بطاقة فخارية تدمرية لحضور الولائم .

التمثيل وصراع الوحوش ونزال المصارعين فهو مسرح وحلبة في وقت واحد .

ان منصة التمثيل واضحة وهامة . ومن ناحية ثانية ثمة مدخل للوحوش والمصارعين في صدرالمدّرج وآثار قضبان الشباك التي تحمي المتفرجين لم تزل ظاهرة في الحواجز(٣٢٣) . وليس ثمة ما يدل على أن هذا المسرح قد استخدم للاضطهاد الديني اذ أن التدمريين كان تسامحهم الديني ظاهرا وزينب عطفت على المسيحية وحمت بولس الشميساطي اسقف انطاكية وكانت الجالية المسيحية في وضع مناسب حتى سقوط تدمر (٣٢٤) .

مدرج مسرح تدمر مع مدخل الوحوش في الصدر

وإذا كنا لا نستطيع أن نعطي فكرة عن نوعية المسرحيات التي كانت تقدم في المسرح فاننا نود أن نذكر أنه روى عن زينب أنها وجدت على تاجر في المدينة ، فأمرت بوضعه في المسرح لتنوشه الوحوش الضارية أمام الجمهور . وبينما كان هذا الجمهور متوفز الأعصاب والتاجر المقيد في الحلبة يرتعد جزعا فتح الباب ودخل منه ديك . . . فكان ضحك الجمهور فوق الوصف وكان هذا العقاب من ناحية ثانية دلالة على أصالة ذهن زينب ورهافة حسها وروح النكتة اللاذعة الذكية لديها .

٤ ـ المآتم

الانطباع الأولي أن متوسط عمر التدمريين لم يكن طويلا ووفيات الصغار والشبان مألوفة . على أن الأمر يحتاج إلى دراسة متخصصة . الشيء المؤكد ـ بنتيجة التركيز على العناية بالمدافن وتنوع تلك المدافن وجمالها وازدهار النحت الجنازي ـ أن الموت كان يشغل حيزا كبيرا من نشاط التدمريين اليومي . ويتصور الانسان أن صناعة التجهيز للحياة الأخرى كانت رائجة وأن هناك أخويات متخصصة بهذا الشأن ، وحوانيت كثيرة تهتم بالموكب ومن ثمّ بالدفن وتجهيز القبور بالشواهد .

وواضح جدا من المنحوتات التدمرية وجــود الندب واللطم وشق الأثواب وتجريح الصدور وعرض الميت على الأهل والأصدقاء وهناك في بعض المدافن بعض الجثث المحنطة محفوظة بقدر متوسط(٣٢٥)

ومن أبرز المظاهر في تكريم الموتى بتدمر الوليمة الجنازية التي

تتم في مناسبات معينة ويشترك الأهل بأكل طعام معين (على روح الميت اذا صح التعبير) وهناك وضع الزهور(٣٢٦)أمام القبور واستعمال النخيل لحمل الستار الذي يفصل الأموات عن عالم الأحياء (٣٢٧) .

وفي النصوص مايدل على أن المساس بحرمة الموت كان يعتبر جريمة منكرة تستحق اللعنات (٣٢٨).على أن فتح القبور لم يكن مغريا فعلى الرغم من غنى التدمريين تجد مالديهم من أثاث جنازي بسيطاً لا يستحق عناء المغامرة وقد ألمحنا لذلك من قبل .

وان ألوف النصوص التي تحفل بها المدافن والمتاحف لم تزودنا الا بالقليل عن الجانب الروحي لموضوع الموت لدى التدمريين . على اننا يمكن أن نلمح من المنحوتات والصور بعض آثار الأفلاطونية الجديدة والمسيحية في نبذ الجسد واعتبار الموت انتصارا وأن الانسان يعيش في الحياة الدنيا مرتديا أثوابا مستعارة . . . (٣٢٩) .

وأخيرا لقد أدت الكشوف في السنوات الأخيرة إلى القاء ضوء جديد على هذه الناحية الهامة من حياة التدمريين وهي تستحق الدراسة بكثير من العناية والافاضة .

★ ★ ★

الفصل الثاني عشر

الجديد في تدمر

ان تدمر . تلك المدينة المتفردة التي تضم حضارة هي في رأي الأب ستاركي « واحدة من أكثر حضارات الشرق الأدنى أصالة وأخذا بمجامع القلب(٣٣٠) لم تنقطع . منذ حوالي قرنين عن الجود علينا بالكشوف الأثرية والكتابية والمعمارية ولكنها في بحر السنوات العشرين الأخيرة زادت عطاء اثر أعمال التنقيب الوطنية التي تتركز فيها على الشارع الرئيسي والحي الرسمي والأسوار ووادي القبور والمقبرة الغربية والجنوبية الشرقية فضلا عن التنقيبات السويسرية في معبد بعلشمين والبولونية في الحي المعروف بمعسكر ديوقلسيان .

منذ ١٩٥٧ وحتى ١٩٧٧ تمّ رفع أكثر من مائة ألف متر مكعب من الأتربة والأنقاض في تدمر . وظهرت معنا من الغياهب مبان عديدة على جانب كبير من الأهمية(٣٣١)ومنها : معبد نبو والحمامات والتدلاع الأوسط من الشارع الرئيسي ، وملحق الآغورا (السوق العامة) ومعبد القياصرة (؟) والساحات الرحيبة وغرف الموائد وهياكل حوريات الماء وعشرات المدافن التدمرية بأشكال مختلفة وطرز متباينة . ولا ننسى الكشف عن جانب كبير من الأسوار التي تنسب عادة إلى زينب ملكة تدمر . وأخيراً يجدر بنا أن ننوه بأهمية اظهار معبد اللات من قبل البعثة البولونية ، هذا المعبد الذي كان معروفا موضعه من كتابة سابقة فكشف عنه في العام ١٩٧٤ وظهر فيه تمثال اللات / اثينا الذي قد يكون نسخة مما صنعه النحات اليوناني الشهير فيدياس لتلك الربة كما ظهرت منحوتة الأسد التي أتينا على ذكرها .

ومن الجديد في تلك المدينة الواحة التي لم تزل محط أنظار العالم الأثري والسياحي ومركز اهتمام المؤرخين والمعماريين . ظهور حقائق جديدة على أصلها ومخططها العمراني وسكانها وحياتها اليومية . واكتساب نصوص ومنحوتات جديدة تلقي أضواء ساطعة على ديانتها وأسماء أعلامها .

لقد تحدثنا من قبل كثيرا وبالتفصيل عن مواسم التنقيب في تدمر وسير عملياته فلا حاجة للعودة لهذه التفاصيل ولكن لا بد من أن نذكر أن العمليات الوطنية كانت تمولها المديرية العامة للآثار والمتاحف وتم أكثرها في نطاق ما يعرف باسم « المشروع التدمري الاستثنائي » .

ومنذ بداية الأعمال الجديدة والواسعة يتم في تدمر موسم أو موسمان كل عام وبعض المواسم يدوم بضعة أشهر وقد عهدت المديرية العامة للآثار والمتاحف لنا بادارة أكثر هذه المواسم ومعنا بصورة رئيسية الاستاذ نسيب طيبي والاستاذ خالد الأسعد وسابقا السيد عبيد الطه فضلا عن اعتمادنا على نخبة طيبة من الفنيين بينهم السيد علي الطه والعديد العديد من العمال المخلصين الذين هم الجنود المجهولون في كل عمل جليل .

اثر التحريات الأثرية في المواقع ماقبل التاريخية في جرف العجلة وثنية البيضاء ووادي الأحمر(٣٣٢)تأكد لنا أن معبر تدمر الجبلي وجروفة الآخاذة لم يكن مسكنا للانسان منذ العصر الحجري القديم فحسب ولكنه كان كذلك مركزاً من مراكز الصناعة الحجرية الآشولية واللفلوازية الموستيرية ؛ واذا كان انسان بادية الشام منذ الأصل صيادا

جوالا فلعله كان أيضا صيادا ساكن كهف في الجبال الكلسية المحيطة بتدمر حين كانت تلك الجبال مكسوة بالغابات طرائدها وفيرة سهلة .

ويتضح لنا أن هذا الانسان استقر في العصر الحجري الحديث (النيوليتيك) حوالي الألف السابع قبل الميلاد في واحة تدمر قرب ينابيعها الكبريتية في بدايات الزراعة وتربية المواشي .

وبرهاننا على ما تقدم أن واحة ترمر تضم بضعة أكمات (تومولي) تعود للحجري الحديث نعثر فيها على نصال وسهام من الصوان من النماذج المميزة لهذا العصر في سورية .

واذا كانت هذه الأكمات العائدة للعصر الحجري الحديث معروفة فان التل الأثري الذي يضم بقايا مدينة تدمر في عهود البرونز والحديد (الفترة الأكادية والفترة العمورية والفترة الآرامية) لا تظهر بمثل هذا اليقين . ومع ذلك فان الفرنسي دومنيل دوبويسون يعتقد أن تلك البقايا موجودة تحت المرتفع الذي يقوم عليه معبد بل (٣٣٣) .

ولما كنت قد لاحظت عن كثب الأسبار التي قام بها العالم المذكور المرخص من المديرية العامة للآثار والمتاحف فانني متأكد من وجود كسر فخار ولقى صغيرة تعود للعهد العموري ولكني لم أجد منشآت ترتبط بها هذه اللقى . فباحة معبد بل الرحبة (٢٠٠ X ٢٠٠ م = ٤ هكتارات) قد سوّيت على الأقل مرتين الأمر الذي قلب طبقاتها رأسا على عقب وكوّن عقبة أمام كل دراسة طبقية سليمة . فمثلا هناك على السطح وعلى عمق مترين أو ثلاثة أمتار كسر الفخار التدمري المألوف ذي اللون الطحيني أو الضارب للخضرة المشط أو المحزز الذي ساد

في تدمر منذ القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن الثاني بعد الميلاد . وهذه الكسر تصاحبها أحيانا قليلة كسر نادرة من القصاع المعروفة بالميغارية والبرغامية التي تعود للعهد الهلنستي بين الثالث والأول قبل الميلاد .

وفي المستقبل قد يكون تنقيب منهجي واسع في باحة معبد بل قدينا بتقديم الشاهد الحاسم حول النقطة التي تشغل بالنا ألا وهي : ماذا يوجد تحت معبد تدمر الكبير ، أهي أطلال المدينة التي ذكرتها النصوص المسمارية من مطلع الألف الثاني قبل الميلاد أم هو ببساطة تراكم معابد فوق بعضها نعرف منها الآن المعبد من المعهد التدمري الهلنستي والمعبد الآخر من العهد التدمري الروماني ؟ (٣٣٤) .

منذ العهد التدمري الهلنستي ، كانت تدمر ممتدة بين النبع الكبريتي المعروف قديما باسم أفقا (أي النبع في الآرامية) ومعابد بل ومعبد بعلشمين والنبع الموجود في الحي الشمالي الغربي (٣٣٥) . وكانت مبانيها وحتى مدافنها مشيدة ، في قسمها الأعظم ، باللبن وغيره من المواد القابلة للزوال مع الزمن (٣٣٦) وكانت المعابد والآغورا (السوق العامة) وبعض المباني العامة مقاييسها أصغر من الذي نعرفه الآن في تدمر وأقسامها الرئيسية مشيدة بالحجر الكلسي الأصفر الطري ومزينة بزخارف ذات اسلوب طبيعي تتساوق فيه الزخارف الشرقية مع الزخارف الهلنستية . وان موقع معبد بل وكذلك موقعا معبد نبو ومعبد بعلشمين قد زودتنا بتيجان أعمدة طريفة وأشرطة زخرفية لذيذة تعود لهذا العهد ولهذا الأسلوب .

ولم يكن لتدمر مخطط عمراني كلاسي كأفامية أواللاذقية (أي لم تكن تتمتع بتقسيمات شطرنجية وشارع طولاني (دوكومانوس ماكسيموس)

يتقاطع مع آخر عرضاني (كاردو ماكيموس) الخ . ولكن فيما بعد عدّل مخططها لينطبق بحدود الممكن على مثل هذا المخطط . ولسوف نرى كم من التعديلات قد تعاقبت بهدف اعطاء تدمر المظهر اليوناني — الروماني الذي يخيل لنا أنه كان لها أصلا . ان تدمر لم تعرف مايسمى بالكاردو (أي الشارع العرضاني) أما مايعرف فيها باسم الدوكومانوس (أي الشارع الطولاني) هو ترتيب عمراني متأخر لقلب المدينة أخذ بعين الاعتبار وجود مبان هامة قديمة لايمكن المساس بها كمعبد نبو والحمامات مثلا فداراها جهده . كما أن قطاعين من هذا الشارع كانا بالأصل طريقين تؤديان الى معبدين (٣٣٧) .

ان قسما من قطاع الشارع الرئيسي الممتد بين معبد بل والقوس (المسمى عادة بقوس النصر) والذي نقبناه عام ١٩٦٣ ، والقطاع الأوسط من الشارع بين القوس الآنف الذكر والمصلبة (المعروفة باسم الترابيل (والذي كشفناه بين ١٩٥٧ — ١٩٦٢ . قد أوضحا أن انشاء الشارع الرئيسي يعود لعهد الأسرة السيفيرية (الليبية — السورية) في نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الثالث الميلاديين . وقد تطلب انشاؤه جهودا كبيرة استهدفت اضفاء وحدة بين الشارع الجديد والشوارع العرضانية الضيقة المنصبة فيه والموجودة أصلا (٣٣٨) فقد لاحظنا خلال أعمال التنقيب كما لاحظ المهندس اوستراش الذي عمل الى جانبنا فترة خلال مشروعنا الاستثنائي الأمور التالية :

١ — ان مايعرف بقوس النصر والمصلبة قد شيدا في النقطتين اللتين يغير فيهما الشارع اتجاهه فليس الأول قوس نصر بالمعنى المعروف وليست الثانية بمصلبة فالقوس حددت له وظيفة عمرانية واضحة تستهدف اخفاء

انحراف الشارع . كما أن المصلبة قد تكون بناء تذكاريا أوعنصرا عمرانيا يقصد به املاء الفراغ في مكان انحراف الشارع واضفاء الجمال على منظور المدينة (٣٣٩) .

٢ — ان عرض الأروقة وتباعد الأعمدة وارتفاعها وعمق المخازن تتغير من قسم الى آخر تبعا لوضع المنشآت التي كانت موجودة من قبل .

٣ — ان الشوارع العرضانية التي يتراوح عرضها بين خمسة أمتار وخمسة أمتار ونصف ليست هي دوما عمودية على الشارع الرئيسي وقد استخدمت عدة أساليب للتوفيق بين هذه الشوارع العرضانية والشارع الجديد ومنها توسيع مابين الأعمدة أوانشاء قواعد في المداخل أواقامة أعمدة ضخمة تزيينية أوتذكارية أمامها أووضع عضائد في زوايا المباني ومن ناحية ثانية نلاحظ أن الشوارع العرضانية منشأة على أبعاد غير متساوية .

٤ — وأخير يلاحظ وجود نوعين من الأروقة : رواق يكون جزءا مكملا للبناء الذي يقوم أمامه (كما هي الحال في رواق الحمامات ورواق المسرح والسيزاريوم (؟) ورواق هو جزء من أروقة الشارع (ومن ذلك الرواق القائم خلف معبد نبو والذي اقتضى انشاؤه أخذ قسم من باحة المعبد .)

ولسوف نلقي بعض الضوء على عدد من المباني القائمة على طرفي الشارع ونناقش بايجاز أهم القضايا التي تثيرها .

★ ★ ★

ان معبد نبو هو ولاشك أهم هذه المباني . واننا لنجد أن أسماء الاعلام

التدمرية تحفل بأسماء مركبة مع اسم الرب نبو ومن هذه الأسماء نبوزبد (نبو أعطى) برنبو (ابن نبو) زبد نبو (عطية نبو) نبو شوري (نبو حصني) نبو لا (نبو اله) (رفا نبو) شفانبو وعلى البطاقات الفخارية التدمرية اسم هذا الرب وصوره . ولكن حتى العام ١٩٦٣ لم يكن أحد يظن أن له معبدا خاصا في تدمر .

ونبو هو الابن الشهير للرب بل — مردوخ ، وكاتب الأرباب كان موكلا بمصائر البشر . وقد وحد أحيانا بالرب هرمس أوبالرب هرقل ولكن الرب الذي يوحد به عادة هو أبولون . اذ أنه مثله رب الهواتف الربانية والحكمة . وقرينته في تدمر كما في بابل هي الربة البابلية ناناي الموحدة بالربة أرتميس والتي تملك معبدا في دورا أوروبس (الصالحية) وتدمر (؟) .

واذا كان نبو في بلاد الشام آنئذ أكثر الأرباب الرافديين شعبية فمن البديهي أن يكون كذلك في تدمر حيث الأثر الرافدي كان قويا نتيجة علاقات اقتصادية وسياسية طويلة .

وكان الى الشرق من مسرح تدمر وقرب القوس المعروف بقوس النصر نشز من الأرض قامت البعثة الألمانية خلال الحرب العالمية الأولى باجراء أسبار فيه وعرفت أثر ذلك بوجود معبد فيه كما درس العالم فيغاند مخططه بشكل تقريبي عن طريق التصور والمقارنة وسماه بالمعبد الكورنثي وقدر أن يكون مكرسا للربة اترغاتيس الربة الشهيرة المعروفة باسم الربة السورية (٣٤٠) .

وفي الواقع أن معبد نبو الذي بعثناه منهجيا من قلب الأتربة والرمال له مخطط يختلف اختلافا بينا عن المخطط الذي تصوره فيغاند . وعلاوة

على ذلك اتضحت فيه تفاصيل وعناصر معمارية لم يتصور فيغاند وجودها عندما وضع مخططه منذ خمسين عاما .

وفي بداية التنقيب أخذت تظهر معنا رؤوس لربات النصر كما عثرنا من ثمّ على تمثال لمرقل ـــ نرغال فكانت نسبة المعبد لأحد الأرباب صعبة بسبب ذلك . ولكن في الثاني والعشرين من تشرين الأول ١٩٦٣ أسعدنا الحظ بكشف حسم الاشكال . وهذا الكشف هو عبارة عن نص تدمري يذكر تقدمة للرب نبو الطبيب المحسن (لنبو طبا وشكرا) ثمّ عثرنا على نص ثان وثالث ولربما رابع (٣٤١) وكلها تذكر الرب نبو .

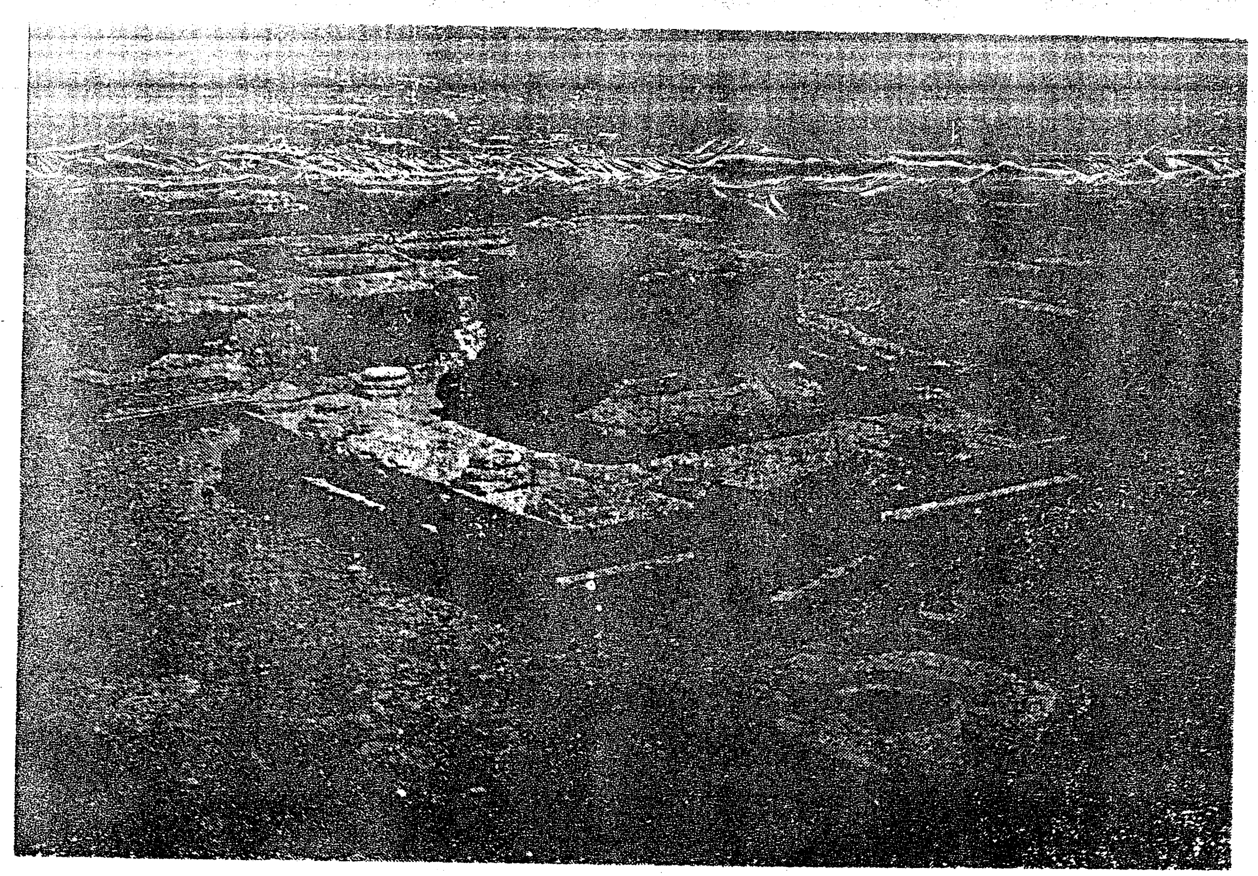
وبنتيجة دراسة النصوص العديدة : التدمرية والتدمرية ـــ اليونانية ومنها عشرة نصوص مؤرخة أو قابلة للتأريخ ، عرفنا أن بناء معبد نبو بدأ من الهيكل المركزي (الحرم) في بحر النصف الأول من القرن الأول الميلادي وأخذ في التوسع والتطور حتى نهاية القرن الثاني الميلادي ومن ثمّ عرف المصير الذي عرفته مدينة تدمر في أواخر القرن الثالث . ومن ناحية ثانية عرفنا من النصوص أن اسرة ايلابل التدمرية الثرية مالكة المدفن ـــ البرج الشهير في وادي القبور والتي تتمتع بالمواطنية الرومانية وتنتسب انتماء الى عشيرة سرجيا . وهذه الأسرة أسهمت اسهاما كبيرا في بناء معبد نبو .

ولا يخرج مخطط المعبد عن مخطط المعابد السورية : سور خارجي داخله صحن وفي منتصفه حرم . ولكن سوره يشكل شبه منحرف غير منتظم (٨٥ X ٧٨ X ٤٤ X ٦٠ م). ويخيل الينا أن ثمّة مبان أقدم حالت دون تطوره بشكل منتظم (٣٤٢) .

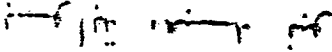
يدخل المرء المعبد من بوابة فخمة في الجنوب شكلها شبه منحرف أيضا مزودة برواق خارجي وثلاث غرف متصلة مباشرة بالأروقة الداخلية للمعبد وكانت هذه الأروقة (قبل قطع الرواق الشمالي عند انشاء الشارع الرئيسي) تشكل ممرا مرتفعا يدور بالصحن . وكانت جدران هذه الاروقة تحمل لوحات نذرية ومنحوتات معلقة فضلا عن اللوحات الجدارية (الفريسكات) والزخارف الجصية . وطراز أعمدة الاروقة هو نادر في تدمر كما أن نضد هذه الأعمدة مختصر فليس فيه سوى الجوائز (الأرشيترافات) التي كانت تحمل السقف مباشرة .

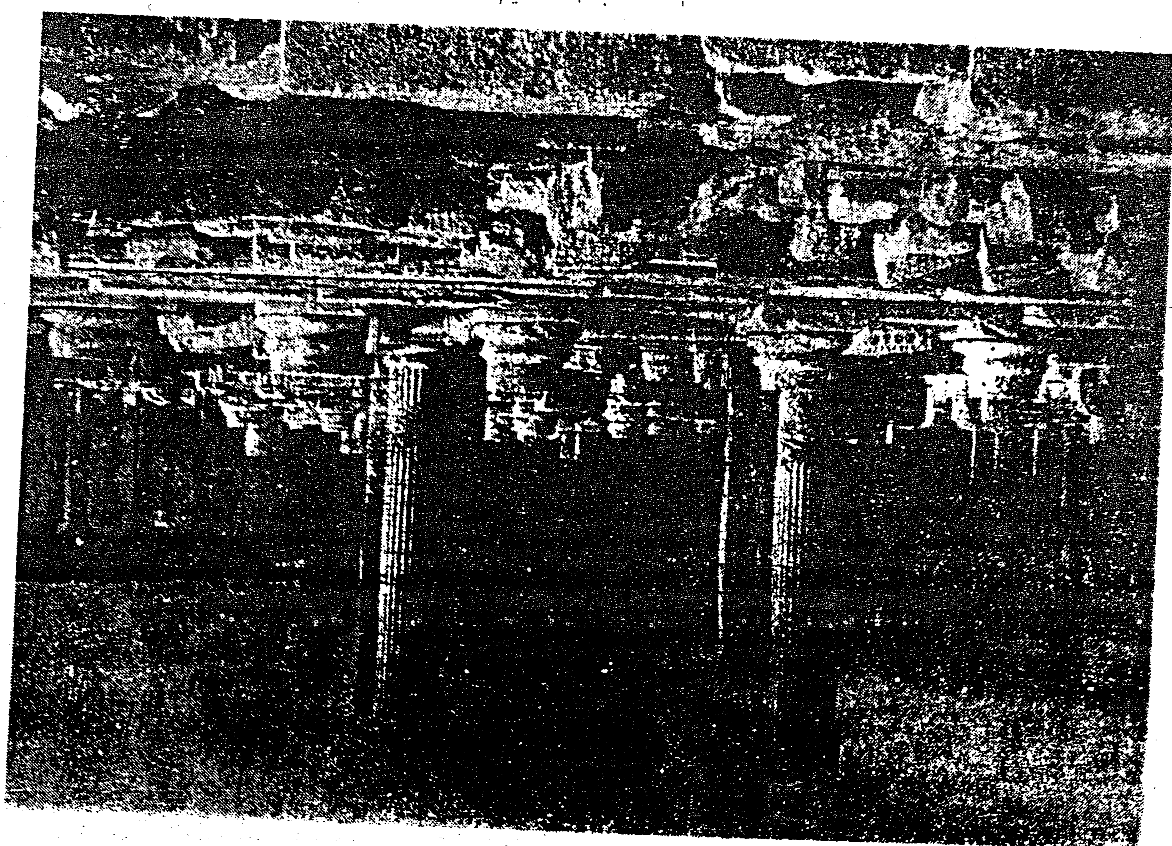
والصحن غير مبلّط بل مفترش بالتربة القاسية بسبب (الدحل) أو لطول المسير فوقها . ومن العناصر الطقسية التي يمكن تبينها خزان ماء (؟) على عنقه حلقة حجرية « خرزة » ضخمة.ومن الواضح أن الماء هنا يستخدم لتطهر الكهنة قبل القيام بالطقوس . وأمام الحرم نجد الأقسام السفلية من بنيان جميل مشيد بالحجر الكلسي الأبيض الناصع : وهو عبارة عن قاعدة حجرية مربعة ضلعها ٤,٣٠ م في كل ركن من أركانها قواعد لثلاثة أعمدة لطيفة وفي الوسط كتلة مكعّبة وكان ذلك كله مستوّحاً بنضد من طراز نهاية القرن الثاني الميلادي وهو مؤلف من حجر واحد فيه الجائز والافريز والطنف . ونحن لا شك ، بصدد عنصر معماري يشبه المذبح الفخم الموجود في باحة معبد بعل البقاع (جوبيتر) في بعلبك . وقد قام الأب ستاركي مؤخرا بدراسة عناصر مماثلة وجدت في مواضع أخرى من لبنان (٣٤٣).

الحرم هو أهم الأجزاء في معبد نبو وهو مشيد على قاعدة



المذبح في باحة معبد نبو .





(بوديوم) مقولبة ارتفاعها ٢,١٥ م . ويتجاوز طول الحرم العشرين متراً وعرضه ينوف عن تسعة أمتار وهو موجه بالطول شمالا — جنوبا وبابه ينفتح في الجهة الجنوبية أمام البوابة . وهذا الحرم يحيط به رواق مستمر محمول باثنين وثلاثين عمودا من الطراز الكورنثي . ويصل الانسان إلى مستوى باب الحرم بدرج عريض محصور بين بدانتين متقدمتين . وفي صدر الحرم من الداخل بقايا محراب لصنم وبقربه ما يدل على وجود درج صاعد بسطح الحرم كما هي الحال في حرم معبد بل وفي أكثر المعابد السورية الوثنية ، وبصورة عامة أن ترتيب هذا الحرم تشبه ترتيب حرم معبد زفس وأرتميس في جرش ومعبد مجدل عنجر في لبنان (٣٤٤) .

وانا لنعرف الآن عدداً من المعلومات الجديدة في المعبد كارتفاع أعمدة الأروقة الخارجية وتوزيع تيجان الأعمدة والمخطط الصحيح للبوابة وترتيب القسم الأمامي من الحرم والمذبح بين الحرم والبوابة وعناصر الزينة داخل الأروقة والشراريف المدرجة الحماسية التي كانت تعلو الصف العلوي للحرم و « الاكريتورات » التي كانت تزين طرفي الجبهة المثلثية في واجهة الحرم وفي خلفيته » .

كما أننا يمكن أن ننوه هنا بوجود معبد للرب نبو كان سابقا في الموضع نفسه ثم أزيل لانشاء معبد أهم وتركت عناصر منه كالعادة في بنيان المعبد الجديد كماهي الحال في معبد بل . وان أجمل هذه العناصر وأكملها كان مستخدما في أرضية رواق الحرم . وهو عبارة عن تاج مشبه بالكورنثي دون « طرحة » قاعدته مستديرة مزينة بشريط من زخرف البيوض وتصل باقة الأكانتوس حتى منتصفه . وبعد ذلك

نجد على وجهين من التاج الحلزنتين فقط أما على الوجهين الآخرين فيظهر على كل منهما بين الحلزنتين جنيان معتنقان شعرهما مجعد ويتألف الأسفل لكل منهما من ذيل حية أو عقرب . واننا نتساءل هل نحن هنا بصدد « تريتون » أم بصدد العقرب الحامي المذكور في اسطورة جلجاميش والذي يتمتع بنظرة قاتلة ! على كل حال من المعروف أن العقرب والحية لهما علاقة بعبادة الرب نبو في بلاد الرافدين .

وقبل أن نغادر معبد نبو نود أن نلفت الانتباه إلى نصّين طريفين الأول يذكر قيام الرب نبو باهداء تمثال لأحد الناس . والنّص الثاني يذكر كذلك أن تمثالا أقيم من قبل الربة حيرتا والربة ناناي والرب رشف (وهذا الثالوث مذكور سابقا في تدمر) (٣٤٥) وكهنتهم لشخص آخر . واننا نعرف في تدمر مثاين آخرين من هذا النوع ومن المفهوم أن مثل هذا الاجراء كان يتم أثر الهواتف الربانية أو أحلام الكهنة (٣٤٦).

وثمة نص أكثر طرافة كشف بجوار نبع أفقا بتدمر . فهو يحدثنا هذه المرة بأن بعل حمون ومنوة قدما مذبح بخور على نفقة أحد الناس ازميلهما الرب المجهول الذي يورك اسمه إلى الأبد . وذلك كله يثير قضايا جديدة تزيد في تعقيد موضوع المعتقدات الدينية التدمرية الذي هو معقد أصلا .

* * *

شمالي القوس المعروفة بقوس النصر وغير بعيد عنها تقوم الحمّامات التي كانت تنسب عادة للامبراطور ديوقلسيان (في مطلع القرن الرابع الميلادي) وذلك انطلاقا من كتابة من عهد واليه على تدمر هيروقليس

سوسيانوس(٣٤٧)على أن التنقيبات التي أجريناها في الحمّامات عام ١٩٥٩ وعام ١٩٦٢ وانتهت في ربيع ١٩٧٦ أثبت أن الحمامات هي أقدم من عهد الامبراطور ديوقلسيان بزمن ليس بالقليل . فالزخرف المعماري والمنحوتات توضح لنا أن في هذا الموضع من تدمر كانت ترجد حمامات منذ القرن الأول الميلادي. ولكن مخطط الحمامات بشكلها الراهن قد وضع في عهد السلالة السيفيرية وبعد ذلك عرفت الحمّامات تعديلين جوهريين قد يكون آخرهما في عهد ديوقلسيان . فخلال أعمال التنقيب ظهرت ، خاصة حول حوض السباحة في القسم البارد « الفريجيداريوم » منحوتات من الرخام الناصع البياض يمكن ردها للقرن الثاني الميلادي ولمطلع القرن الثالث الميلادي.وننوه من بين هذه المنحوتات بجذع لتمثال امبراطور يرتدي درعا عضلية من الطراز المعروف فيعهد السلالة السيفيرية (٣:٨) وقطعة متوسطة من جذع فينوس ربة الجمال (ولعلها بالأصل نسخة من تمثال فينوس كنيد المشهور) وتمثال لأبولون فاقد الرأس . كما عثر في الحوض على تمثال مستخدم في بناء الأساس يمثل امرأة أو ربة ترتدي ثوبا طويلا وهو من رخام ضارب للزرقة يرجع لعهد أقدم .

وقد كان هـ . سيريغ وج . كانتينو اللذان درسا نص الوالي المذكور عن انشاء الحمّامات في عهد ديوقلسيان قد مالا إلى أن الذي تمّ فعلا في عهد ديوقلسيان ليس سوى أعمال ترميم (٣٤٩) .

ولقد أكدت دراستنا الأثرية لهذا الموضوع الدراسة المعمارية حول العلاقةبين الشارع الرئيسي والحمّامات.فقد ذكر المهندس اوستراش في تقريره المذكور سابقا من هذه النقطة ما يلي : « من المؤكد أن

الحمّامات ليست متأخرة في الزمن عن انشاء هذا القطاع من الشارع الرئيسي أن لم تكن سابقة له . وعلاوة على ذلك أن الحمامات منشأة متساوقة تتمتع بوحدة معمارية وليس فيها من عنصر جديد الا البوابة الضخمة ثمّ أن السيدة فيلاريسكا في دراستها « الزخرف المعماري لتدمر » قد صنفت تيجان أعمدة الحمامات في زمرة نجد أقدم نماذجها ترقى للعام ١٨١ ميلادي وأحدثها تعود للعام ٢٣٦ ميلادي (٣٥٠) .

لننتقل الآن الى الجهة الثانية من الشارع الرئيسي ، بين الشارع والآغورا نجد فوق موضع مرتفع خمسة أعمدة تقف صفا واحدا وهي محددة بشكل جميل ومجهزة بحاملات تماثيل « قنصليات » . كانت هذه الأعمدة ، قبل تنقيباتنا في ١٩٦٢ مغمورة جزئيا بالرمال . وقد تصور آ . غابرييل أنها تدل على شارع عرضاني(٣٥١) ولكن التنقيب أثبت أنها جزء من باحة داخلية ذات رواق في منشأة هامة تعود لمطلع القرن الثاني الميلادي وقد عدّل مدخله عند انشاء الشارع الرئيسي فأصبحت له بوابة غنية الزخارف ذات ثلاثة مداخل .

أن مخطط المنشأة التي نحن بصددها عادي ولكن في صدرها يمسح الرواق عريضا في وسطه . وبموازاة جدار الصدر صف من القواعد الحجرية اثنتـان لم تبرحا مكانهما . وخلال الأعمال التكميلية التي قمنا بها خلال ١٩٦٧ وقعنا على احدى تلك القواعد معمرة في جدار متأخر وقد نقش عليها باليونانية عبارة : « أوتوقراطورا قيصرا ثيو » (وتعني الامبراطور القيصر الالهّي) ففوق هذه القاعدة اذا كان يقوم تمثال امبراطور روماني ، والقواعد الأخرى كانت لها مثل تلك الوظيفة .

أن هذه المنشأة في أفضل موضع بالمدينة وأمامها فوق أعمدة



المبنى التدمري المجهول في مقابل المسرح

الشارع الكتابات التذكارية والتماثيل العائدة لأذينة والزباء ولها مدخل من أجمل المداخل في تدمر ومزين فوق ذلك بمنحوتة تمثل ربة النصر ، وفيها رواق لوضع التماثيل وبين هذه التماثيل تمثال لأحد الأباطرة المؤلهين لعلها ، للأسباب المذكورة ، المعبد المعروف باسم « السيزاريوم » أي معبد الأباطرة المذكور في النصوص التدمرية (٣٥٢) .

وقبل أن نغادر الشارع الرئيسي علينا أن لا نغفل ذكر كشفنا هيكلين من النوع المعروف باسم « النمفيوم » (وهو عادة سبيل ماء فخم يقام في أجمل نقاط الساحات والشوارع ويزين بتماثيل حوريات الماء وربة الصحة) وكانت الآبدتان مجهولتين تماما من قبل أولاهما أمام المسرح والثانية بين القوس المعروفة بقوس النصر ومعبد بل (٣٥٣) ومخطط كل من الآبدتين متماثل ويشبه مخطط أوابد مشابهة في بصرى وجرش وغيرهما : يتألف من حنية دائرية فيها محاريب لوضع التماثيل ومدرجات لينصب فوقها الماء بشكل شلالات لطيفة ثمّ يجتمع في حوض نصف مستديرة . ثم ينصرف الماء في قناة إلى المجرور الرئيسي في الشارع . وأمام كل من الهيكلين رصيف مبلّط مزين بأربعة أعمدة ضخمة مجهزة بحاملات تماثيل وثمة قواعد تشبه قواعد التماثيل . وقد اصطلحنا على تسمية كل من الهيكلين بهيكل حوريات الماء .

وبعد هيكل حوريات الماء المواجه للمسرح باتجاه المصلّبة « الترابيل » كشفنا بين ١٩٦٣ — عن شارع فرعي يعود للقرن الأول الميلادي ويؤدي الى معبد بعاشمين (٣٥٤) وهو مبلط ببلاطات ضخمة غير منتظمة . وهو ضيق نسبيا وتتوسطه قناة تصريف ويعطينا على الجملة فكرة عن طرق تدمر القديمة . ولن نتحدث بالتفصيل عن هذا الشارع وسنقصر البحث على عنصر طريف من عناصره فقد عثرنا فيه على مذبح حجري ملصق بالجدار يحمل نصا باللغة التدمرية يعود للقرن الأول الميلادي يذكر أن هذا المذبح مقدم لأشر (أو أشد) الجنّي القريب (أو الحاضر). وبجانب المذبح أربع قواعد صغيرة مربعة لعلّها كانت تحمل قبة صغيرة تؤوي صنم الجنّي أو مبخرته. اننا هنا ولا شك بصدد أحد الهياكل الصغيرة المكرسة للجن والتي تتحدث عنها النصوص التدمرية (٣٥٥).

آن الوقت لترك الشارع الرئيسي . فلننتقل إلى الشارع الممتد بين المسرح والآغورا المقام في القرن الثالث الميلادي . إلى يميننا نرى صفا من الحوانيت تتدرج بالحجم حتى تعطي للشارع استقامة لم تكن له أصلا . وإلى يسارنا نجد قاعة من قاعات الولائم الدينية غالبا تنفتح على الشارع الرئيسي وهي تشبه في مخططها غيرها من القاعات خاصة قاعة الآغورا (حجرة مستطيلة متسعة لها باب مشرّع عريض وفي صدرها منصة مهيّاة لصنم الرب الخ . . .) واذا ما انتهينا من هذه الحجرة المقابلة للحوانيت تنفتح ساحة المسرح الرحبية التي كانت تجثم فوقها رابية من الأتربة المتفحمة يبلغ ارتفاعها حوالي خمسة أمتار وقد أزلناها تماما وانتهينا من هذه المهمة عام ١٩٦٩ ، وبعد ذلك نترك الفيلا التدمرية التي يطلق عليها عادة مجلس الشيوخ لنصل إلى بناء ضخم جدا أنجزنا اظهاره بين ١٩٦٦ و ١٩٦٩ وهو البناء الذي يطلق عليه اسم « السرايا » في تدمر وهو معروف للعالم العلمي من أيام كاساس (١٧٨٥) وقد ظلّ لغزاً. فمن قائل انه قصر الزباء ومن قائل انه خان أو بازيليكة(٣٥٦)وشكل البناء مستطيل منتظم طوله ضعف عرضه (٧٥,٥ x ٣٧,٥ م) تقريبا ليس فيه أروقة أو بلاط . وجدرانه المشيّدة بالحجر الكلسي النحيت الضخم يبلغ عرضها حوالي متر وتصل بارتفاعها إلى عشرة أمتار وهي مدّعمة بعضائد كورنثية من طراز عضائد الآغورا (النصف الأول من القرن الثاني الميلادي) ولا يعلو الجدران أي نضد اللهم الا الجوائز . والمدخل الرئيسي للبناء يقع في الجهة الجنوبية ويرتفع ثمانية أمتار وعلاوة على المدخل الرئيسي هناك ثمانية أبواب أخرى تأمّن اتصال البناء بالآغورا وبالشوارع المحيطة. وهناك عدا عن الأبواب ست عشرة نافذة مزين كل منها

بجبهة مثلثة . ولقد عثرنا في باحة البناء على خمس قواعد غير منحوتة أو مستعملة ويخيل لنا أن ثمة مشروع كان يعد لانشاء أروقة تدور بالبناء ولكن هذا المشروع لم ير النور .

ومن الممكن أن يكون هذا البناء موجودا بالأصل في مشروع انشاء الآغورا في عهد الامبراطور هادريان . وعلى كل حال من المؤكد أنه ملحق للآغورا كمستودع تجاري رئيسي أو بالأحرى مركز تجمع للقوافل التي تدفع الرسوم ويدعم هذه الفرضية أبوابه الضخمة التي تساعد على دخول الجمال بأحمالها وأرضيته غير المبلطة . وثمة شيء أهم وهو العثور على لوحة النظام المالي التدمري (المسماة بالتعرفة الجمركية) في العام ١٨٨٢ أمام الواجهة الرئيسية لهذا البناء تماما كما ذكرنا من قبل .

* * *

ولننتقل الآن الى الجديد في المدافن التدمرية فنلاحظ أن المدافن المنقبة حديثا سواء من قبلنا أو من قبل زملائنا أو البعثة البولونية توحي لنا ببعض الأفكار ، أولها أن المخطط على شكل T مقلوبة المعروف في المدافن الارضية ليس هو أكثر من نموذج فلدينا الآن النموذج ذو الجناح الواحد والنموذج الشبيه بالديماميس والنموذج المشترك المدخل وثمة نموذج ذو درج مغطى وليس له باب ومعازبه محفورة في جدران الدرج ونموذج أرضي يرتبط بمدفن برج .

وهناك ناحية ثانية تبدو لنا هامّة من ناحية عمارة المدافن . فالمدافن الأرضية على الأقل لاتبنى كاملة كالمساكن . فحفر الأجنحة والمعازب والكسوة والزخرف تتم تدريجيا وحسب الحاجة والامكانية . وقد

يتفق أن لايعيش المدفن بعد أصحابه قط كما هي الحال في مدفن نوربل ومقيم وحيران (٣٥٧) الذي ظلّ عبارة عن حفرة لها مدخل وكتابة وفي صدرها سرير جنازي .

ومن مئات التماثيل النصفية والمنحوتات الأخرى التي عثرنا عليها في المدافن نستطيع التأكيد بأن المنحوتات التدمرية ليست كلها . كما يظن . تشرى من النحاتين كشوهد تبور فبينها تماثيل بملامح شخصية تماما وشبه أكيد بين الأقرباء (٣٥٨) .

وأخيراً وعلى الرغم من حصولنا على استثناءات كثرة فان نظرية انغولت عن المنحوتات الجنازية التدمرية (٣٥٩) ماتزال متينة . واذا لم تكن دوما كافية فستبقى طويلا ضرورية لنا .

★ ★ ★

ان الحصاد الوفير من النصوص الذي تراكم لدينا من تنقيب الأوابد والمدافن المذكورة سابقا وكذلك الدراسات الجديدة عن أسماء الأعلام التدمرية والنبطية والثمودية والصفائية وبصورة عامة كل الأسماء العربية قبل الاسلام ومقارنة أسماء الاعلام التدمرية مع الأسماء العربية في المصادر الكلاسيكية تدفعنا الى قناعة تامة بأن اسماء الأعلام العربية في تدمر كان لها الغالبية العظمى الأمر الذي يجب أن نوجه له الآن عناية أكثر . وقد أورد آ . كاكو . في دراسته عن اسماء الاعلام الدينية في تدمر (٣٦٠) عدداً من الاسماء العربية ذات المحتوى الديني (مركبة مع اللات وأرصو ومعن وعسد وسعد مثلا) كما أنه في ملاحظاته عن « البطاقات الفخارية التدمرية » عالج بعض الاسماء ذات الأصل العربي . وقد ذكر في أحد رسائله إليّ بتاريخ ٣ أيار

١٩٦٧ : « أن من المهم أن ننشئ قائمة بالاسماء العربية غير الدينية ... فنجد بينها بعض الاسماء غير المؤكدة أو قد تكون آرامية ولكن بالنسبة للعدد الاعظم فان الاصل العربي مؤكد » . وقد قام شتارك في أحدث مؤلف عن اسماء الاعلام التدمرية بهذه المهمة خير قيام ووصل الى النتيجة نفسها كما سبق وذكرنا (٣٦١) .

وهذا الواقع أكثر من العبادات والطقوس تبين أصل سكان تدمر . ولعل من الامور ذات الدلالة العميقة كون أقدم نص تدمري لايتضمن أسماء عربية فحسب بل تعابير عربية مميزة ، كما ذكرنا في البحث عن أصل التدمريين وهؤلاء العرب الذين كانوا يملأون المنطقة منذ مطلع الالف الأول قبل الميلاد على الاقل قد استقروا في تدمر والحضر كما استقروا في مناطق حمص وجبل لبنان وحوران والجولان وبلاد الأنباط .

واللغة الآرامية المستعملة في تدمر وغيرها من أرجاء الشرق كما سبق أن ذكرنا . قد تكون هي سبب الالتباس حول أصل التدمريين . ولكننا لانجد في تدمر الرب حدد أو أيا من أرباب الآراميين . وبالعكس فليس هناك أكثر من عشرين رباً عربياً في تدمر وحسب بل إن أكبر معبد في تدمر لم يكن يعرف الا طقوساً وعبادات عربية صرفة (٣٦٢) وهناك فرضية جديدة ترى أن بعلشمين الرأس الثاني للأرباب التدمريين قد يكون جاء مع العرب من ساحل لبنان ماراً بالجنوب إلى الجنوب الشرقي : دمشق . الشمير . الطيبة فتدمر . (٣٦٣) .

★ ★ ★

وقد يكون من المفيد في آخر هذا البحث أن نمد ملاحظاتنا خارج

المدينة أي إلى اقليم تدمر الذي مايزال . نسبياً ، منطقة غير مستكشفة فيما عدا القطاع الشمالي الغربي منه التي استكشفها ودرسها دراسة ممتازة د . شلومبرجه .

في السنين الأخيرة قد اعطانا اقليم تدمر عدداً لابأس به من المنحوتات والآثار التدمرية ومنها : ميل من أميال الطريق من عهد تراجان من منطقة الضرفة على بعد حوالي عشرين كيلو متراً غربي تدمر (٣٦٤) وعمود تذكاري لهرقل في ثنية أم كرسي . ومنحوتات دينية قرب صهاريج ماء في جبل الابيض وجبل المراة وقاعة الهرى وجبل حيان الخ . وقد نشرنا ثلاثاً من هذه المنحوتات في المؤلف المعد لتكريم ك . ميخالوفسكي وخاصنا من الدراسة إلى وجهة نظر جديدة في المنحوتات التدمرية الريفية التي تمثل صفاً من الارباب والربات على نسق واحد وفي أحد طرفيه متعبد يحرق البخور (وأحياناً دون متعبد) . « في رأينا أن مثل هذه المنحوتات مصدرها إقليم تدمر لا مدينة تدمر . فمن أصل حوالي عشرة منحوتات من هذا النوع هناك . حسب مانعرف . ثمان مصدرها اقليم تدمر وثلاث فقط من مدينة تدمر .

ان هذه المنحوتات ، فيما نعتقد : هي نذور مقدمة من ريفيين بداة ميسورين نوعاً ما لتوضع في معبد القرية الصغير أو في مكان آخر للعبادة أو له صفة قدسية : خاصة آبار الماء . ومن ناحية ثانية أننا نرى هذه المنحوتات كانت تستصنع غالباً في محترفات مدينة تدمر وتعد سلفاً أو حسب الطلب . وهي مكرسة لتلبية حاجات أناس سذج ليس لديهم الا القليل من أماكن العبادة. كما أن أربابهم أكثر تضامناً. ان الارباب والربات المجتمعين في ذهن هؤلاء الناس البسطاء يلبون

جميع الحاجات . ان هؤلاء الناس لديهم ولا شك رب محلي أو سلفي مفضل ، ولكنه في الغالب متضامن مع هذه القيادة الجماعية التي تتألف بصورة اساسية من قادة مجمع أرباب مدينة تدمر .

أمّا في تدمر فالوضع مختلف . فاعتباراً من القرن الأول الميلادي نجد في العدد المتزايد دوماً للمعابد والهياكل والأخويات الدينية دلالة على نوع من التخصص التدريجي في العبادات واختصاص بعبادة رب أو ربين مفضلين من قبل جماعات ميسورة ووفيرة العدد . وعلى هذا فان من النادر أن نجد منحوتات أو نصوصاً أو بطاقات فخارية تتعلق حتى بثلاثة أرباب » (٣٦٥) .

* * *

ملحق "١"

القانون المالي التدمري

المرجع

J. B. CHABOT, Choix d' inscriptions de Palmyre, Paris, 1922, pp. 32 - 38

لاحظ الأمير أبا ميليك لازاريف Abamelek Lazarew خلال زياراته لتدمر عام ١٨٨١ . جنوبي الشارع الرئيسي وبين الشارع المذكور والنبع ؛ بعض حروف يونانية منقوشة على حجر يبرز قليلاً عن الارض ، فكلف من تحرى عنه له الامر فتبين أن الحجر المذكور يحمل كتابة طويلة قسم منها يوناني والقسم الآخر تدمري . وقد أشار إلى هذا الاكتشاف ب . فوكار (P. Foucart) و ه . وادنغتون (H. Waddington) في عام (١٨٨٢) وبعد ذلك بقليل قام م . دوفوغوي (M. de Vogue) بأول نشر لهذه الوثيقة في (Journal Asiatique , 1883) معتمداً على مستنسخات ناقصة كثيراً أرسلها له لازاريف . وفي ذلك الحين أخذ جوليوس أوتنغ (Julius Euting) وشارل هوبير (Charles Huber) مستنسخات جديدة للنص وتبعهما جوزيف ايتين غوتيية (Jos. Etienne Gautier) في عام ١٨٨٧ بجلب مستنسخ جديد . وأخيراً في عام ١٩٠١ رفع الحجر الذي يحمل الكتابة ونقل لمتحف الايرميتاج بعناية الحكومة الروسية (٣٦٦) .

وخلال ذلك كله كان يعكف أفضل قارئي الخطوط القديمة على تذليل صعوبات القراءة التي نتجت عن سوء حالة الحجر والتشويه في النص وأحياناًمن كون هذه الوثيقة فريدة من نوعها فهي عبارة عن

قانون مالي يحدد كل الرسوم التي تجبى داخل مدينة تدمر أو في اقليمها لصالح الصندوق البلدي . وهناك وثيقتان مماثلتان يعرفهما علم الكتابات ولكنهما لا ترقيان إلى وثيقة تدمر سواء من حيث الحجم أو الأهمية . الأولى لاتينية وجدت في زاراي من نوميديا وهي مؤرخة في العام ٢٠٢ ميلادي (C. I. L. VII, 4508) والأخرى يونانية من عام ٩٠ ميلادي عثر عليها بمصر في قفط
(Inscr. greco ad res Rom. I, 1183)

الحجر الذي يحمل الكتابة طوله ٨٠و٤م وارتفاعه ٧٥و١م مقسوم إلى أربعة حقول كل منها محاط باطار . الحقل الاول يضم نصاً بالتدمرية واليونانية والحقل الثاني فيه نص تدمري على ثلاثة اعمدة والحقل الثالث والرابع فيهما نص يوناني على خمسة أعمدة .

الحقل الاول محفوظ جيداً يتضمن قراراً من مجاس الشيوخ التدمري سن بموجبه قانون مالي يضم جباية كل الرسوم التي تترتب على البضائع أو المهن .

الحقل الثاني يتضمن النص التدمري للقانون . والحجر مع الاسف مشوه في هذا القسم ويشكو من نقص كبير .

والحقلان الاخيران مخصصان للنص اليوناني ، وهو بدوره مشوه جداً ، وفوق الحقلين الثاني والثالث عند عنوان يوناني يتضمن بروتوكول الامبراطور هادريان .

وهذه الكتابة كما يقول م . دوفوغوي " تدخلنا في الحياة الخاصة للمدينة التجارية ؛ وتوقفنا على الحركة الكبرى للناس والحيوانات

والبضائع . . . — والمنافسة بين السماسرة والجباة وباعة الرخصة وأصحاب المشاكل والموظفين . ذلك الجمهور الصاخب الذي يتدافع تحت الاروقة... كما يوقفنا على الجهاز الاداري : مجلس الشيوخ ورئيسه وأمين سره والشيخين المكلفين بالسلطة الاجرائية (الأرخونين) ومجلس العشرة ووكلاء السلطة القضائية .

وفيما يلي ترجمة النص التدمري بعد الاستعنة بالاقسام المماثلة في النص اليوناني .

قرار مجلس الشيوخ . في الثامن عشر من شهر نيسان عام ٤٤٨ (١٨ نيسان ١٣٧ م) : برئاسة بونا بن بونا بن حيران . وأمانة سر : الكسندر ابن الكسندر بن فيلوباتور أمين مجلس الشيوخ والشعب . وولاية الأراخنة (٣٦٧) . مالك بن علي بونا مقيم وزبيد بن نسا . مجلس الشيوخ ، المجتمع في جلسة عادية . قرر ماهو مرقوم أدناه :

لما كانت سلع عديدة في الأزمنة السابقة خاضعة للرسوم غير مسجلة في القانون المالي وتجبى الرسوم عليها وفقاً للعرف والعادة ولما كان المتبع أن يذكر في العقد مع الجابي " أن يحقق الرسم وفق القانون ووفق العادة " ولما كان ذلك كثيراً ما سبب نزاعات بين الباعة والجباة ،

قرر مجلس الشيوخ أن يقوم الشيوخ المكلفون بالسلطة الاجرائية وأعضاء مجلس العشرة باحصاء كل ماهو غير مذكور في القانون المالي وأن يسجل في العقد الجديد وأن يوضع أمام كل سلعة الرسم الذي يجبى عنها في العادة . فاذا اقر العقد من قبل متعهد الجباية ينقش مع القانون القديم على اللوحة القائمة أمام معبد ربآسيري. والشيوخ المكلفون بالسلطة الاجرائية واعضاء مجلس العشرة ووكلاء

السلطة التمضائية عليهم أن يحولوا دون أن يكلف متعهد الجباية من أحد أكثر من المنصوص عنه .

ان حمل العربة من أي نوع كان عليه رسم يعادل أربعة أحمال بعير .

ان هذين السطرين يتبعان في الواقع القانون المالي . وقد نقشا في الحقل الاول بسبب عدم وجود مكان في الحقل الثاني وهما يشكلان قاعدة عامة تطبق على كل أنواع السلع .

ان نص القرار واضح واسم رب آسيري الذي يعني « سيد الأسرى » هو جني تركت عبادته أثراً في كتابات المندائيين وهم طائفة في جنوب الرافدين .

وفي رأس الحقل الثاني ، على امتداد اعمدة ثلاثة هناك سطر مرقوم بحروف أضخم وهو بمثابة عنوان نقرأ فيه :

القانون المالي لمستودع هادريانا تدمر وينابيع المياه (لايليو) س قيصر (٣٦٨) .

وقد اتخذت تدمر اسم هادريانا بمناسبة زيارة الامبراطور هادريان عام ١٢٩ ، وتدمر هو الاسم الاصلي للمدينة وبقي لدى العرب حتى الآن ، وبعد العنوان نجد ينابيع المياه تسمى « ينابيع مياه قيصر » فحسب

ولنعرض الآن مختلف السلع المذكورة في القانون :

١ — العبيد

(في النص التدمري من السطر ٢ حتى ٦ ، في اليوناني من ١ إلى ٨)

يأخذ الجابي ممن يدخلون العبيد إلى تدمر أو إلى اقليمها عن كل عبد ٢٢ ديناراً (٣٦٩)

وعن العبد الذي يباع في المدينة ولا يصدر منها ١٢ ديناراً وعن العبد القديم المباع ١٠ دنانير .

واذا صدر المشتري العبيد يدفع عن كل منهم ١٢ ديناراً . والنص تستخدم كلمة العبد بالتذكير ولكن يجب أن يفهم القانون بشكل عام دون تميز في الجنس :

٢ — المواد الجافة

(٧ — ١٠ ، يوناني ٩ — ١٥)

يأخذ الجابي على كل حمل جمل من المواد الجافة عند الادخال (في اقليم تدمر ؟) عن كل حمل جمل ٣ د .

وعن كل حمل جمل عند الاخراج ٣ د .

وعن كل حمل جمل عند الادخال والاخراج ٢ د .

والمواد الجافة تتضمن الثمار المجففة كالجوز والفستق وحب الفاصولياء والصنوبر الخ . . . ولعلّ منها العلف والتبن ومن الممكن أن هذا المصطلح له معنى أوسع وفي هذه الحال يدخل تحت هذه المادة كل السلع الجافـة التي لم يحدد عليها الرسم كالتماثيل البرونزية مثلاً (المادة ٢٦) .

٣ — الأرجوان

(تدمري ١١ — ١٢ ، يوناني ١٦ — ١٨)

الصوف المصبوغ بالارجوان : كل جزة مستوردة أو مصدرة

٨ آسات كانت الاصباغ المصبوغة بالأرجوان تستورد من فينيقيا وتصدر إلى بلاد فارس .

٤ — الطيوب

(تدمري ١٣ — ٢٢ ، يوناني ١٩ — ٣١)

كل حمل جمل من الزيت المطيب في قوارير الالباستر ٢٥ د

وكل (ماذا يباع بعد ذلك ؟) من هذا الزيت يدفع عن الحمل ١٣ د.

كل حمل جمل من الزيت المطيب المعبأ في ضروف من جلد الماعز ، عند الادخال ١٣ د — وعند الاخراج ٧ د .

كل حمل حمار من الزيت المطيّب الذي يجري ادخاله في قوارير الالباستر ١٣ د . وعند الاخراج ٧د .

كل حمل حمار من الزيت المطيب المدخل في ضروف من جلد الماعز ٧ د . وعند الاخراج ٤ د .

ويبدو أن الطيوب كانت من السلع الرئيسية في التجارة التدمرية الرسوم عليها معتدلة ويميز بدقة الطيوب الممتازة عن الطيوب العادية النوع الاول يحفظ في قوارير طويلة العنق كانت بالاصل تصنع من الالباستر ومختومة على الغالب بخاتم المنتج . أمّا النوع الثاني فكان ينقل في الضروف ليباع من ثمّ بالمفرق . والرسوم على النوع الثاني هي نصف الرسوم على النوع الأول . أمّا رسم تصدير نوعي الطيوب هو نصف رسم الاستيراد ولعلّ سبب ذلك الخوف من منافسة تجارة

الانباط فهؤلاء كانوا يوردون للامبراطورية الرومانية طيوب الجزيرة العربية وعطورها كما كان التدامرة يوردون طيوب الهند وعطورها .

٥ — الزيت

(تدمري ٢٣ — ٢٨ ، يوناني ٣٢ — ٤٢) .

كل حمل زيت في أربع ضروف من جلد الماعز منقول على جمل عند الدخول ١٣ د . وعند الخروج ١٣ د .

كل حمل زيت في ضرفين من جلد الماعز منقول على جمل عند الدخول ٧ د . وعند الخروج ٧ د .

كل حمل زيت على حمار ، عند الدخول ٧ د . وعند الخروج ٧ د .

والمقصود زيت الزيتون وذلك استنتاجاً من الكلمة اليونانية « ايلالون » .

وبالنسبة للزيت المعطر يستعمل في القانون كلمة عطر « مورون » ورسم الاستيراد على الزيت هو نفس الرسم المضروب على الطيوب العادية . ولكن رسم التصدير هو نصف رسم الاستيراد .

٦ — الدهن

(تدمري ٢٩ — ٣٣ ، يوناني ٤٣ — ٥١) .

كل حمل من الدهن ، في أربعة ضروف من جلد الماعز على جمل عند الدخول ١٣ د . . وعند الخروج ١٣ د .

كل حمل من الدهن ، في ضرفين من جلد الماعز على جمل ، عند الدخول ٧ د . .وعند الخروج ٧ د.

كل حمل حمار من الدهن عند الدخول ٧ د . وعند الخروج ٧ د .

٧ — المملّحات

(تدمري ٢٤ — ٣٨ ، يوناني ٥٢ — وما بعده) .

حمل الحمل ١٠ د . عند الدخول وعند الخروج . النص مشوّه جداً ولكن يعرف منه أن الموضوع يتعلق بتجارة السمك المملح . ففي فلسطين كانت تجارة أسماك بحيرة طبريا المجففة أو المملحة رائجة .

٨ — الرواحل

(تدمري ٣٩ — ٤١ ، اليوناني ناقص) كلمة « بغل » التي بقيت واضحة من هذه الفقرة تدل على أن هناك رسماً على الرواحل المستوردة .

٩ — المواشي

(تدمري ٤٢ — ٤٥ : يوناني ٦٩ — ٧١) هذه الفقرة زائلة كلها تقريباً في النصين . ومع ذلك فمما تبقى يتضح أن كل خروف يدفع عنه آس واحد عند الدخول ومثله عند الخروج .

١٠ — العطارون

(تدمري ٤٦ — ٤٧ ، يوناني ٧٢ — ٧٤) .

يتقاضى الجابي شهرياً من كل عطار آسين .

المقصود حق التمتع والنص التدمري يذكر بوضوح الزيت المطيب أما النص اليوناني فيذكر « الزيت » دون تمييز .

١١ — المومسات

(تدمري ٤٨ — ٥٢ ؛ يوناني ٧٥ — ٧٩) .

ويجبى من المومسات اللواتي يتقاضين دينارا وأكثر ديناراً واحداً من كل منهن ، وممن تتقاضى ٨ آسات يجبى ٨ آسات وممن تتقاضى ٦ آسات يجبى ٦ آسات .

ويبدوأن الرسم شهري ، ويستنتج ذلك من المبدأ المطبق في روما حين سن الامبراطور كاليغولا هذا الرسم. فالخليلات كنّ يدفعن رسما يعادل مايتقاضينه في المرة الواحدة . وفي القانون هناك ذكر للنساء العموميات (المادة ٢٥) . في النص اليوناني تستخدم كلمة « خليلة » دوما فليس هناك مجال للتمييز بين فئات تلك النسوة. أما في النص التدمري فتستخدم كلمتان مختلفتان للدلالة على هذا النوع من النسوة .

١٢ — بعض الرسوم المهنية الأخرى

(تدمري ٥٣ — ٥٧ ؛ يوناني ٨٠ — ٨٧) .

في المقطع الأول المشوه يحدد رسم قدره دينار واحد شهريا على كل دكان مهما كان النوع الذي تتعاطاه في التجارة .

وعند استيراد الجلود أو عند بيعها يرسم على كل جلد آسين .

وباعة الثياب الجوالون في المدينة يخضعون لرسوم مختلفة. وتجارة

الجلود لابدّ أنها كانت رائجة لوجود المدينة في وسط بادوي يعيش من منتجات الماشية ، والجلود الناتجة عن المواشي التي تعيش في منطقة تدمر ليست معفاة من الرسوم إذا بيعت . وسوف نرى في (المادة ٢٣) أن جلود الجمال لاتدفع رسماً ؛ فالجلود المذكورة سابقاً هي جلود الضأن والماعز والاخيرة مفضلة في صنع الضروف . ولا بد أن الرسم على باعة الثياب متناسب مع نشاط تجارتها في المواسم .

١٣ ـ استعمال المياه

(تدمري ٥٨، يوناني ٨٨) .

من آجل استعمال مياه النبعين في المدينة ٨٠٠ د . في النص اليوناني يذكر « سنويا » ورغم ذلك فالرسم باهظ ولا يمكن أن ينطبق على الاستعمالات المنزلية . فيفترض أن هذا الرسم يكون لقاء استعمال الماء في سقاية بستان أو للحمامات . أو هو نوع من الاشتراك يؤمن لشيوخ القوافل ماء لسقاية قوافلهم ويلاحظ أن هذا الماء ليس هو الماء الذي يجري في قنوات إلى المدينة بل مياه النبعين الموجودين داخل المدينة . وفي الوقت الذي زار فيه وود تدمر (١٧٥١) كان هذان النبعان يشكلان جدولين صغيرين يلتقيان شرقي المدينة ويضيعان في الرمال .

١٤ ـ الحاصلات

(تدمري ٥٩ ـ ٦٠ ؛ يوناني ٨٩ ـ ٩١) .

يتقاضى الجابي عن كل حمل جمل من الحنطة . والنبيذ والتبن وما شابه دينارا واحدا كل مرة .

وعلى الراجح يعني القانون هنا المحاصيل المجنية حديثاً ورسمها يعادل نصف الرسم الموضوع على المواد الجافة (المادة ١٣) . ولعل تأويل ذلك أن هذه المواد معفاة من الرسم ولكن الرسم يقع على الدواب التي تحملها هذا التأويل يتناقض مع ما سوف يذكر فيما بعد عن المواد الغذائية (المادة ٢٢) .

١٥ ـ الدواب

(تدمري ٦١ ـ ٦٢ يوناني ٩٢ ـ ٩٣) .

كل جمل غير محمل يدفع عنه دينار واحد كما رسم سيليكس معتوق قيصر .

إن الرسم المحدد على الجمل الفارغ سيطبق على الحمار الفارغ أيضاً حسب العادة .

والمعتوق سيليكس كان متعهد الرسوم ، ويبدو أن رسوم تدمر كانت من الأهمية بحيث لايترفع معتوق الامبراطور عن تعهدها .

وهذه المادة هي آخر مواد القانون القديم .

١٦ ـ القانون الجديد ، توطئة (تدمري ٦٣ ـ ٦٨ ، يوناني ٩٤ وما بعده)

هنا يبدأ القانون الجديد والتوضيحات التي يجب أن تضاف للقانون القديم بموجب القرار الصادر عن مجلس الشيوخ وقد اعتقد كثير من الشارحين خطأ بأن القانون الجديد كان يسبق القانون القديم (٣٧١) . والنص يبدأ بهذه التوطئة :

قانون جمارك تدمر ، وينابيع المياه ، والملح ، الموجود في تدمر وفي اقليمها وفق عقد التعهد المبرم بحضور الوالي مارينوس .

ومن المؤكد أن الاخير كان والياً على سورية في الوقت الذي سن فيه هذا القانون وأن العقد المبرم بحضوره هو التعهد الذي يتحدث عنه القانون .

ويقتصر الأمر على سلعتين الأولى على مايظهر من النص المشوه هي « المواد الجافة» التي رفع الرسم عنها من دينارين إلى أربعة (المادة ٢) والثانية هي الأرجوان » الذي أصبح يدفع عن كل جزة منه ٤ دنانير ، بدلا من ٨ آسات (المادة ٣) فيكون الرسم عليه قد ضوعف ٥ مرات .

ويضاف أن كل سلعة خاضعة للرسم سوف تدفع : « كما هو مبين أعلاه » وبتعبير آخر لم تتغير الرسوم القديمة الأخرى .

١٧ – الملح (تدمري ٦٩ – ٧٣ ، يوناني ١١٦ – ١٢٠)

ان النصين المتعلقين بالملح مشوهان جداً . وفي الحدود التي تتضح يبدو أن الملح المستورد كان يوضع عليه رسم يعادل آساً عن كل «موديوس» (٣٧٢) قدره ١٦ «سكستاريوس» والشيء نفسه بالنسبة للملح المستخرج محلياً . وكان على مالكي الملاحات أن يجعلوا المتعهد يقدر كمية الملح ويقبض عنها الرسم قبل وضعها في البيع .

وما تزال الملاحات مستثمرة حتى وقتنا . ففي العام ١٩١٤ كان هناك مدير للملاحة مقيم في تدمر . وقد ذكر غرانجر في عام ١٧٣٥ (٣٧٣) على بعد نصف فرسخ من المدينة توجد ملاحة واسعة طولها

حوالي فرسخين وعرضها حوالي ثلاثة أرباع الفرسخ . . . يعهد والي دمشق هذه الملاحات بخمسة آلاف قرش لاهالي جيرود الذين يدفعون علاوة على ذلك ثلاثة «موديوس» (٣٧٤) إلى شيخ تدمر عن كل دابة . ولاتقتصر ملاحات تدمر على تقديم الملح لسكان دمشق وحمص الذين لايستعملون غيره ، بل إلى القسم الاعظم من المدن والقرى التابعة لهما .

١٨ – حقوق الجابي

(يوناني ١٢١ – ١٣٨)

في النص اليوناني حوالي ثلاثين سطراً ليس لهما مقابل في النص التدمري وخلاصتها ما يلي : إذا لم يدفع أحد أحد الرسوم يمكن للجابي أن يأخذ رهناً وفي بعض الحالات يطلب الضعف وإذا اختلف أحد مع الجابي ترفع القضية إلى موظف روماني مقيم بتدمر كان لقبه « Juridicus » وثمة تعداد للحالات التي يأخذ فيها الجابي رهوناً وإذا تستعاد الرهون خلال وقت محدد يمكن للجابي أن يبيعها بالمزاد العلني . يلي ذلك أجزاء زالت آثاره في النص تماماً .

١٩ – نظام المياه

(يوناني ١٣٩ – ١٤٩) .

ان عبارة « ينابيع مياه قيصر » التي نقرأها في النص اليوناني توضح أن الموضوع يتعلق باستعمال الينابيع . ولكن حالة الحجر في هذا الموضوع لاتسمح بتحديد ماهو المقرر في هذا الصدد ولكن تبين أن رسماً كان يجبى من المخالفين لنظام المياه .

٢٠ — اجراءات غير واضحة

(تدمري ٧٤ — ١٠١ ، يوناني ١٥٠ ... ١٨٠) .

من هذا الموضع حتى الأخير نجد أسلوب الكتابة مختلف ، فعوضاً عن ذكر السلع الخاضعة للرسم نجد نوعاً من التعليق أو الشرح حول بعض السلع المذكورة سابقاً أو التي لم تذكر .

وبسبب تشوه النصوص ، يتعذر تحديد دواعي هذا التغيير في الاسلوب ، ويفترض دينتغر أن الاجراءات الجديدة قبل أن تنقش على الحجر قد اخضعت لموافقة حاكم الولاية الروماني واننا هنا بصدد مطالعة الاخير التي تقر ، مع بعض التعديلات ، المقترحات التي تقدم بها الموظفون التدمريون . وهذا الرأي لاينسرسن" الرسوم الجديدة التي وضعت على برونز التماثيل أو العلف . وهي ضرائب لا يمكن أن تسن" إلا من قبل السلطة البلدية والارجح أننا في صدد خلاصة الدراسة التي قام بها الأراخنة معتمدين على المألوف في الجمارك الرومانية وعلى النصوص المستقاة من المقررات السابقة التي اتخذها في السابق ممثلو السلطة الامبراطورية وقد رأينا من قبل (المادة ١٥) أنه حتى في القانون الأول كان هناك استناداً إلى ما اعتاد أن يجبيه معتوق قيصر . وبمطابقة النصين التدمري واليوناني نجد أن هناك ذكراً لشخص اسمه غايوس وهو وال غير معروف من قبل (٣٧٥) كما أنه يشير إلى ما كان اعتاد أن يجبيه متعهد ضرائب اسمه ألسيموس ، ويتكلم عن الرسم المتعلق باستيراد وتصدير العبيد ويبدو أن هذا الرسم يبقى كما هو في المادة الأولى من التعرفة .

ثم يأتي الحديث عن « الصوف » . وإذا كانت قراءة النص صحيحة فثمة إعفاء لتصدير الصوف « الايطالي » ولكن ماهو معنى الصوف الايطالي ؟

٢١ — ان النص التدمري محفوظ جيداً في الخمسة والثلاثين سطراً (١٠٢ — ١٣٦) وهي كما يلي :

ان الرسم على اللحامين يجب أن يحدد بدينار كما أورد جرمانيكوس قيصر في رسالته التي كتبها إلى ستاتيليوس : « إن القاعدة تقضي بجباية الضرائب على أساس الآس الايطالي واذا كان الرسم أقل من دينار فان المتعهد سيعمل على دفعه بالعملة الصغيرة حسب العادة » . وجثث (الحيوانات) المرمية ليس عليها أي رسم .

ولا يذكر رسم المسلخ إلا في مرجع واحد كما يقول السيد كانيا (M. Cagnat) الذي درس بكفاءة نادرة الضرائب غير المباشرة في الامبراطورية . فكان ذاك الرسم يجبى في المؤسسات العامة حتى المعابد . وكون جثث الحيوانات المتروكة معفاة من الرسوم قد يدل على أن الأفراد كانوا خاضعين لهذا الرسم . وهو غير محدد في القانون الذي نحن بصدده . على الأقل في القسم الذي مايزال واضحاً في النص . ولا بد أنه كان زهيداً . فبهذه المناسبة يذكر أن جميع الرسوم يجب أن تقدر بالعملة الرومانية وأن المتعهد لايلزم بقبض العملة الصغيرة المحلية إلا في تسديد ما هو أدنى من الدينار . وقد سن هذا المبدأ جرمانيكوس الابن المتبنى للامبراطور طيبريوس وقد كان مكلفاً بمهمة فوق العادة في الشرق عام ١٨ ومات في انطاكية عام ١٩ . وكانت

تدمر آنئذ مستقلة عن روما . أما ستاتيلوس الذي وجهت إليه رسالة جرمانيكوس فقد كان على مايبدو حاكم ولاية سورية .

٢٢ ـ المواد الغذائية

(تدمري ١٠٩ ـ ١١٧ . يوناني ١٨٧ ـ ١٩٣)

أما الاغذية في القانون « فقد قررت أن يأخذ دينار واحد لكل حمل إذا ماستورد أو صدر خارج الحدود . أما من ينقل الأغذية إلى الضواحي أو من ينقلها من الضواحي فلا يترتب عليه رسم كما هو متفق عليه . . »

أما أكواز الصنوبر وما شاكلها فقد حدد أن يدفع عنها عند استيرادها للبيع فانها تدفع رسماً معادلا للمواد الجافة كما هو المألوف في المدن الأخرى .

ان الفقرة الأولى والثانية في الغالب ؛ مستقاة من كتاب جرمانيكوس و « المواد الغذائية » هي الحنطة والخمر والتبغ والعلف ورسمها أعلى (المادة ١٤) ويوضح هنا أن الرسم يتوجب عند اجتياز الحدود أما حركتها داخل الاقليم التدمري فلا توجب الرسم .

وأكواز الصنوبر تدفع الرسم كمواد غذائية . والصنوبر المستخرج من بعض الأنواع مرغوب جداً في الشرق وفي إيطاليا والبروفانس الفرنسية . « والاشياء المماثلة » هي الاوز والجوز والفستق وأمثالها من المكسّرات . والرسم على كل هذه المواد المحددة في القانون الأول (المادة ٢) هو ضعف الرسم على المواد الغذائية .

٢٣ ـ الدواب

(تدمري ١١٨ ـ ١٢٣ ، يوناني ١٩٤ وما بعده)

الجمال المحمّلة وغير المحمّلة التي تجتاز الحدود يدفع عن كل جمل منها دينار ، حسب القانون، ووفق ماحدد ، صاحب السعادة كوربولون في الرسالة التي كتبها إلى باربارus ،

أما جلود الجمال فقد استبعدت لأنها غير خاضعة للرسم .

وفي السابق (المادة ١٥) لم تذكر إلا الجمال غير المحملة . وهنا تطبق قاعدة عامة على جميع الحالات التي يكون فيها الرسم المحدد بالقانون لايتضمن بعد الرسم الموضوع على الدواب . وهذه القاعدة تستند إلى رسالة من كن . دوميسيوس كوربولون ، القائد الروماني الذي حكم الشرق في عهد نيرون ، فكان واليا على سورية في العام ٦٢ ، أما باباروس فقد يكون مسؤولا عن أحد مراكز الجمرك .

وكانت جلود الجمال تستخدم كغطاء للبيوت والبضائع .

٢٤ ـ الحشائش

(تدمري ١٢٣ ـ ١٢٤ ، اليوناني ناقص) .

ان الحشائش (وهناك شيء آخر غير واضح لعله الخضار) يجب أن تخضع للرسوم « إذ أنها موضوع تجارة » ؛ وليس الأمر أمر تعيين رسم عليها ولكن تعيين مايتوجب عليه الرسم منها . ورسم المحاصيل (المادة ١٤) مطبق عليها .

٢٥ ـ الحليلات

(تدمري ١٢٥ ـ ١٢٨ ، اليوناني مشوه) .

لقد حدد رسم الحليلات كما جاء في القانون : يتناول الجابي

رسماً قدره دينار من كل امرأة تتقاضى ديناراً وأكثر أما إذا كان هناك من يتقاضى أقل فيتناول منها رسماً يعادل ماتتقاضى .

وهذه هي المرة الثانية التي يرد فيها ذكر الحليلات (المادة ١١) وليس من تغيير في الرسوم واستعمال صيغة المتكلم « حددتُ » تدل على اقتباس من رسالة كوربولان .

٢٦ — التماثيل

(تدمري ١٢٨ — ١٣٠ ، اليوناني ناقص) .

تقرر أن يدفع عن الصور البرونزية والتماثيل كما يدفع عن البرونز بمعدل التمثال كنصف حمل والتمثالان كحمل واحد .

وكانت تماثيل البرونز تستورد من اليونان وقبرص ، وهنا كما في حالة الحشائش ، يذكر أن مادة التماثيل خاضعة لرسم دون تحديد قيمة الرسم المعتاد .

٢٧ — الملح

(تدمري ١٣٠ — ١٣٦ ، اليوناني ناقص) .

أمّا الملح فقد بدا لي من الأفضل أن يعرض للبيع في الساحة العامة حيث يجتمع الناس . والتدمري الذي يشتري الملح لاستعماله يدفع آسا ايطاليا عن كل كيل « موديوس » . وضريبة الملح في تدمر كما في الولاية سوف تحسب على أساس الآس والملح يسلم للتجار ليباع حسب العادة .

وهذا النص يؤيد ما ذكر سابقا (المادة ١٧) ومن الفقرتين يمكن أن نستنتج أن الملح كان يباع في الساحة العامة في تدمر كما في الولاية . وكل يستطيع شراءه اذا دفع رسما قدره آس عن كل كيل « موديوس » . ولربما المقصود هو الملح الذي هو احتكار للدولة الرومانية ومتعهده لم يكن يترتب عليه أي رسم . ولذلك كان الرسم يدفع من قبل الشاري . أمّا الملح المستخرج من تدمر فيكال أولا وبعد دفع الرسم تصبح تجارته حرة

وهنا يصبح نص القانون مشوها . على كل حال يتضح ذكر الضريبة على الارجوان وعلى الباعة المتجولين والخياطين والسروجية ، وصناع الجلود .

٢٨ — المواشي

(تدمري ١٤٥ — ١٤٩ يوناني ٢٣١ — ٢٣٧)

مما تبقى من النص يفهم أن المواشي التي تجتاز الحدود تخضع لرسم الاستيراد ولكن اذا دخلت من أجل أن تجز فلا تدفع رسما .

وآخر فقرة في النص التدمري منقوشة على الاطار السفلي للحقل وهي مشوّهة أكثر من النص اليوناني . وحسب ما جاء في الأخير فان حق الرعي لا يخضع لرسم خاص . ولكن الحيوانات التي تدخل أراضي تدمر للرعي تخضع للرسم العادي وللجابي الحق في أن يوسمها اذا أراد .

واتفق الباحثون في هذا القانون المالي التدمري مع السيد كانيا أنه عبارة عن تعرفة محلية ، للرسوم البلدية التي يحفظ حاصلها في

صندوق المدينة وليس له صلة بالجمارك الرومانية التي كانت ، في الوقت الذي سنّ فيه القانون التدمري ، تجبى على أساس قيمة البضائع وليس تبعا لتعرفة موضوعة . كما أن نسبة الضريبة لا تحدد من قبل ممثل الامبراطور . ولكن من قبل مجلس الشيوخ المحلي . وتنفيذ القانون ومراقبة المتعهد لا يعهد بهما إلى الوالي الروماني أو لعملائه بل إلى موظفين بلديين تدمريين ومع ذلك فان السلطة الامبراطورية كان لها بعض الرقابة على الادارة . وأمام حاكم الولاية كان يبرم العقد بين مدينة تدمر ومتعهد الضرائب .

* * *

ملحق «٢»

نموذج من الروايات العربية القديمة

عن آثار تدمر

نظراً لأن بحثنا لا يتجاوز القرون الميلادية الثلاثة الأولى للميلاد، لن نتحدث في هذه المناسبة عن أخبار تدمر التي تحفل بها المراجع العربية ، وهي جديرة بأن يقوم أحد على جمعها ذات يوم بشكل كامل (٣٧٦) ولن نتطرق إلى ما فيها من أخبار الزباء العديدة، وامتزاج هذه الأخبار بأساطير العرب المتأخرة عنها من حيث الزمن(٣٧٧) ولكننا سوف نكتفي في بحثنا هذا بالاشارة إلى نص ورد في بعض تلك المراجع ، وهو من طبيعة أثرية ، أي بمعنى آخر يتعلق بمبان معروفة أو نموذجية خاصة بتدمر

وفي الحق ، ان مهمتنا في هذه المذكرة ليست الاستقصاء المنهجي لكل الأخبار الأثرية عن تدمر في المراجع العربية بل اعطاء نموذج من هذه الأخبار المزوّقة التي تتراءى الحقيقة من خلالها .

جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي (٦٢٥ هـ = ١٢٢٧م) (٣٧٨) « تدمر . . مدينة قديمة مشهورة في برية الشام بينها وبين حلب خمسة أيام . . قيل سميت بتدمر بنت حسان بن أذينة بن السميدع بن مزيد بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح . . . وهي من عجايب الأبنية موضوعة على العمد الرخام . زعم قوم أنها مما بنته الجن لسليمان وأهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داوود . . بأكثر مما بيننا وبين سليمان ، ولكن الناس اذا رأوا بناء عجيبا جهلوا بانيه أضافوه إلى سليمان وإلى الجن . وعن اسماعيل بن محمد بن

خالد بن عبد الله القسري (٣٧٩) قال كنت مع مروان بن محمد آخر ملوك بني أميه (٣٨٠) حين هدم حايط تدمر (٣٨١) وكانوا خالفوه عليه فقتلهم وفرّق الخيـل عليهم تدوسهم وهم قتلى فطارت لحومهم وعظامهم في سنابك الخيل وهدم حايط المدينة فأفضى به الهـدم إلى جرف عظيم فكشفوا عنه صخرة فاذا بيت مجصص كأن اليـد رفعت عنه تلك الساعة واذا فيه سرير عليـه امرأة مستلقية على ظهرها وعليها سبعون حلة واذا لها سبع غداير مشدودة بخلخالها قـال فذرعت قدمها فاذا ذراع من غـير الأصابع واذا في بعض غدائرها صحيفة ذهب فيها مـكتوب باسمك اللهم أنا تدمر بنت حسان أدخل الله الذلّ على من يدخل بيتي هذا فأمر مروان بالجرف فأعيـد كما كان ولم يأخـذ مما كان عليهما من الحلي شيئا قال فوالله ما مكثنا على ذلك الا أياما حتى أقبل عبد الله بن علي (٣٨٢) فقتل مروان وفرق جيشه واستباحه وأزال الملك عنه وعن أهل بيته (٣٨٣) .

« وكان من جملة التصاوير التي بتدمر صورة جاريتين من حجارة من بقيـة صور كانت هناك فمر بهما أوس بن ثعلبة التيمي صاحب قصر أوس الذي في البصرة فنظر إلى الصورتين فاستحسنهما فقال :

« فتاتي أهل تدمر خبرانـــي
ألمـّا تسأما طول القيـــام »

« قيامـ كما على غير الحشايـا
على جبـل أصـم مــن الـرخـام »

« فـكم قد مـر من عــدد الليالي
لعصركـما وعــام بعــد عام »

ثم ذكر ياقوت بقية القصيدة : كما ذكر أبياتا أخرى قالها بعض الشعراء العرب في هاتين الصورتين(٣٨٤) ثم يذكر كيف مرّ بتدمر خالد بن الوليد القائد العربي الشهير (٣٨٥) في طريقه من العراق إلى الشام مما يخرج عن الصدد في هذه المقالة . الا أن عبارة تنحصنو منه هي التي تهمنا هنا وسنعود لذلك مرة أخرى .

وقد اقتبس محمد بن الشحنة (الخامس عشر الميلادي) (٣٨٦) نص ياقوت كاملا وعدّل فيـه تعديلا طفيفا وأضاف له معلومات جديدة فقال : « . . . ومن مدن الشام تدمر وهي مدينة قديمة مشهورة في برية الشام بينهـا وبين حلب خمسة (كذا) مراحل(٣٨٧) وهي قريبـة من حمص من عجائب الأبنيـة كانت موضوعة على العمد الرخـام وأهلها يزعمون أنها كانت قبل سليمان بن داود . . . أكثر مما بيننـا وبين سليمان ، وأهلها الآن في حصن منها على سور من حجارة ، وبابه مصر عان من حجر وبها صوامـع باقية إلى الآن . ولهم نهر يسقي نخلهـم وبساتينهم . قال اسماعيل بن خالد (٣٨٨) كنت مع مروان بن محمد حين هـدم حائط تدمر وكانوا خالفوه فقتلهم وداسهم بالخيل بعد قتلهم فصارت (٣٨٩) «لحومهم وعظامهم في سنابك الخيل وهدم حائط المدينـة فأفضى به الى جلر عظيم ٣٩٠ فكشفوا عنه صخرة فاذا بيت مجصص كأن اليـد قد رفعت عنه تلك الساعة واذا امرأة مستلقية على قفاها (٣٩١) قال فذرعت قدمها فاذا هي ذراع بغير أصابع واذا في بعض غدائرها (كذا) صحيفة

من نحاس(٣٩٢) مكتوب فيها باسمك اللهم أنا تدمر بنت حسان(٣٩٣) فربيناها بحصاة فرسيت(٣٩٤) فأمر مروان بالحذر فأعيد عليها ولم يأخذ مما كان عليها شيئا وكان عليها حلي كثيرة ٣٩٥ .

« قلت . . . فيها مقاصير وأزقة وحجرا وأبوابا ومطبخ هذا كله في حجر واحد قطعة واحدة منحوت وهو باق إلى يومنا هذا(٣٩٦) وبها صورة جاريتين من بقايا صور كانت بها لم ير مثل صورتيهما . »

(ثم يورد ابن الشحنة الأبيات التي ذكرناها سابقا)

• • •

إن المعلومات التي حواها النص الذي أوردناه والنص المقتبس عنه قد ضخمها الزمن والخيال . ولكنها ، كما ذكرنا من قبل ، لا تخلو من حقائق جديدة أو معادة عن الآثار التدمرية . ويمكن تلخيص هذه الحقائق بما يلي :

— قدم تدمر وارجاعها الى زمن بعيد قبل سليمان . وان سورها البيزنطي كان عند الفتح العربي قائما منيعا ، وانه هدم أول ما هدم من قبل مروان الثاني آخر ملوك الامويين .

— جوار المدافن للسور واستناده عليها مع وصف لأحد المدافن الأرضية السليمة وصورة للسرير الجنازي .

— وهناك استعمال تدمر كاسم علم مؤنث ، وصب اللعنات على منتهكي حرمة القبور ، ووصف نقش تدمري يمثل فتاتين.

— وأخير نجد في النص المقتبس معلومات عن وضع التدمريين

في القرن الخامس عشر الميلادي وسكناهم في معبد بل الذي تحول إلى حصن واشارة الى المدافن — الابراج ، وضخامة العمارة ودقة النحت في تدمر .

• • •

ان قدم مدينة تدمر ما قبل الكلاسيكية أصبح حقيقة لا جدل فيها ، فقد ورد ذكرها في لوحات كبادوكيا ولوحات ماري والوثائق الآشورية الخ(٣٩٧) كما أن المزاعم المتعلقة بنسبة بناء تدمر لجن سليمان تبعث على الضحك حاليا ولكن نفي هذه المزاعم في ذلك الزمن هو شيء هام حقا . وبالمناسبة ان علاقة سليمان بتدمر أصلا هو زعم قد انتهى أمره منذ زمن ونعتقد أن الأب جان ستاركي قد أورد حوله القول الفصل (٣٩٨) .

ثمة أمر هام آخر يؤكده هذا النص ألا وهو أن سور تدمر البيزنطي كان قائما منيعا عند الفتح العربي وانه بقي كذلك طوال العهد الراشدي والأموي . وأن التهديم الذي نراه الآن بدأ في عهد مروان الثاني . وذلك شيء لا بد من الاهتمام به عند دراسة أسوار تدمر ، ونحن متأكدون من أن المقصود بحايط تدمر سور تدمر الذي ينسب الى زينب أو ديوقلسيان مع الأبراج المستديرة والأجزاء الأخرى التي أضيفت في عهدجوستنيان وبأمره(٣٩٩)والدلالة على أنه هو المقصود هو ماورد في النص الأول والثاني من اكتشاف مدفن بعد هدم السور ونحن نعرف أن السور موضوع البحث مستند الى عدد من المدافن — البيوت وتحف به المدافن الأرضية مباشرة في أكثر جهاته .

• • •

نصل هنا الى اعتقادنا بأن الرواية تصف حقا مدفنا أرضيا تدمريا رغم التهاويل والمبالغات التي ترجع الى الفارق الزمني بين تناقلها وتسجيلها والى رغبة الرواة في الاعجاز والاتيان بالغريب . أما الحقائق المستقاة في وصف المدفن التدمري ففي مقدمتها استناد بعض أجزاء السور الى كتل صخرية طبيعية : جرف عظيم ، قد يكون المدفن منحوتا في احداها . ومن ناحية ثانية ان المدافن التدمرية هي بشكل عام مغلقة بأبواب حجرية ذات درفة أودرفتين فكيف يكون المدفن الموصوف قد كشفت عنه صخرة ؟ في الحق ان احتمال قلع صخرة تؤدي الى سقف المدفن أمر وارد . وكثير من المدافن تمّ اكتشافها بهذا الشكل . الا أن اغلاق مدخل مدفن تدمري بحجارة من الأعلى ليس أمرا غريبا . فمدفن بولبرك بن مقيمو في وادي القبور (٤٠٠) كان دهليزه مغلقا من الأعلى ببلاطات وليس له باب .

ونتوقف بعد ذلك عند جملة فاذا بيت مجصص كأن اليد رفعت عنه تلك الساعة ، فالوصف ينطبق هنا أيضا على حالة مدفن تدمري سليم ؛ ثم ان كل مدفن تدمري ، بأواوينه وأجنحته يمكن أن يوصف بالبيت . والمدفن عند التدامرة هو بيت علما (بيت الأبدية) . وكون هذا البيت مجصصا هو شيء مألوف في تدمر فكل المدافن التي زينت بالفريسكات مجصصة . كما أن أجزاء من المدافن المزينة بالنحت مجصصة ، خاصة عند المعازب . وفي حال اكتشاف مدفن غير متهدم أومنهوب يحس الانسان أنه يوحي بالجدة كأن اليد رفعت عنه تلك الساعة .

ونعتقد أن عبارة واذا فيه سرير يقصد بها فعلا أحد الأسرة الجنازية ؛ ويكاد لايخلو مدفن تدمري من سرير أوأكثر . والسرير في المدافن

التدمرية ليس سريرا على سبيل المجاز بل هو سرير حقيقي تقريبا بقوائمه المفروزة وفراشه الوثير .

ودون أن نناقش موضوع تدمر بنت حسان واستلقاءها على السرير والمطابقة بين حللها السبعين وغدائرها السبع . وشطحات الخيال التي أزيل معظمها في نص ابن الشحنة ، نود أن نذكر أن لفظ تدمر كاسم علم مؤنث معروف في علم الكتابات التدمرية منذ وقت غير قليل (٤٠١) وهو مذكور على تمثالين نصفيين لامرأة تدمرية وحفيدتها موجودين في متحف الميتروبوليتان بنيويورك (٤٠٢) وكذلك على تمثال نصفي آخر لهذه الحفيدة بعد أن تزوجت وكان هذا التمثال في متحف حلب وهو حاليا بمتحف دمشق وقد نشره المأسوف عليه الدكتور جوزيف سبع (٤٠٣) كما وجدنا هذا الاسم على لوح جنازي غير منشور معاد استعماله في المقبرة البيزنطية التي اكتشفت صدفة في حديقة متحف تدمر وتلك المقبرة نشر عنها مذكرة بالعربية محافظ متحف تدمر خالد الأسعد عضو بعثة التنقيب في تدمر (٤٠٤) وقد نقش على هذا اللوح ثمانية سطور بخط تدمري جميل قديم نسبيا :

« جوبحادنه دي حود بر فصيل بر عتعقب دي متقره حود ملا

ولايفتحه انش لعالم وقبيرت به تدمر برت هانئي برملكو انتته

حبل . »

التعريب :

« هذه المعزبة هي لحود بن فصيل بن عتعقب الملقب بحود مالي ؛ فلا يفتحه أحد الى الأبد . وقد دفنت فيه تدمر بنت هانئ بن

مالك زوجته . وا أسفاه » (٤٠٥) .

وهذا النص الهام الذي أعطانا تدمر كاسم علم مؤنث أعطانا في الوقت نفسه ، بصدفة من غرائب الصدف ، تحذيرا من فتح القبر شبيها بما ذكر ياقوت انه مكتوب على صفيحة في غداير تدمر بنت حسان : أدخل الذل على من يدخل بيتي هذا . وان مثل هذه العبارات كانت تعتبر ناشزة في النصوص الجنازية التدمرية . وكان شابو عندما نشر لأول مرة نصا من هذا القبيل على لوح جنازي من المدافن ــ الأبراج في تدمر ومن مقتنيات متحف اللوفر قال :

« واللوح الثالث (٢٢٠٤) عليه كتابة من سبع سطور . . . فحواها يختلف عن الصيغ المألوفة . . . وكتابتها هي حتى الآن المثل الوحيد الذي نصادفه في تدمر » (٤٠٦) .

كما أن كانتينو كان قد ذكر :

« ان مثل هذه التحذيرات من المساس بالقبور نادرة جدا في تدمر » (٤٠٧)

ثم أعطتنا المكتشفات الجديدة أمثلة أخرى . ونعتقد أن أبحاثا منهجية في المدافن العتيقة ، والمدافن ــ الأبراج خاصة ، سوف تعطينا نماذج أكثر فأكثر .

والآن يمكننا أن نورد أربعة نصوص من هذا النوع والعبارات المستعملة فيها منوعة :

١ ــ (كانتينو ، سجل الكتابات التدمرية) فلا يفتح أحد أو يسرق ،

٢ ــ (شابو ، منتخبات من الكتابات التدمرية) فلا يفتح أحد عليه

هذا القبر الى الأبد . (فمن يفتحه) فليحرم الذرية والضيف وليحرم الحقوق الى الأبد ولا يشبع الخبز والماء .

٣ ــ (كانتينو ، تدمريا) فلا يسرق ولا يختلس . . . فان عنابره وبيته تحترق . . .

٤ ــ (النص موضوع بحثنا) فلا يفتحه أحد الى الأبد .

والملاحظ أن ياقوت قد ربط بين فتح مروان الثاني للمدفن وقتله وتفرق جيشه وزوال الملك عنه (٤٠٨ وهو أمر كان مقبولا ومصدقا في القرون الوسطى . بل ان لعنة القبور ولعنة الفراعنة خاصة ظلت مقبولة حتى عصرنا الحاضر .

واذا صرنا الى صورة جاريتين من حجارة من بقية سور كانت هناك، نقدر ان المقصود غالبا هو لوح جنازي عليه فتاتان تعتنق احداهما الأخرى (٤٠٩) والراجح ان اللوح يمثل نادبة وفقيدة . وهو مشهد مألوف في النحت الجنازي التدمري . وأكثر المجموعات التدمرية فيها مشهد من هذا النوع . ومن المحتمل أن تكون الفتاتان ربتين من بقايا مشهد ديني .

وفي نص ابن الشحنة ، كما ذكرنا من قبل ، اضافات مفيدة ، فقوله ــ وأهلها الآن (القرن الخامس عشر الميلادي) في حصن منها على سور من حجارة وبابه مصرعان من حجر ، اشارة الى سكن أهالي تدمــر بعد تقلصها في معبد بل وان لهم نخيلاً وبساتين . والجديد هو معرفتنا أن الباب الصغير في الحصن الذي بناه يوسف بن فيرور (٤١٠) فوق بوابة ــ معبد بل كان من الحجر . ولعلنا نستنتج بصورة غير مباشرة أن القلعة العربية في قمة الجبل لم تكن مشيدة بعد .

وقول ابن الشحنة وبها صوامع باقية حتى الآن هو حتما اشارة الى المدافن ـ الأبراج فالصومعة هو التعبير الذي كان يستعمل في حمص للمدفن الروماني الشهير الذي هدم في مطلع القرن العشرين أو حوالي الحرب العالمية (٤١١) .

وان زعم ابن الشحنة أن حجرا واحدا كان يضم أزقة وأبوابا ومطبخا ليس الا مبالغة تعكس المقاييس الضخمة للحجارة المنحولة بتدمر . ومن أمثلة ذلك ما نعرفه في الهيكل المركزي لمعبد بل من قوائم الابواب وجسور السقف والسقوف المزينة الخ .

• • •

وأخيراً ان تدمر التي أصبحت مجهولة في الغرب قرونا طويلة بعد سقوطها ، والتي أفاق عليها المغامرون والرحّالة منذ حوالي قرنين ، وبدأت دراستها الأثرية منذ وقت غير بعيد نسبيا ، ظلت بالنسبة لأهل الشرق منذ سقوطها وحتى بعثها مثار عجب ودهشة وموضوع تأمـــل . وقد وردت في وصفها مبالغات يمكن ، على كل حال ، أن نستخلص منها مايفيد المؤرخ والأثرى .

• • •

ملحـــق ٣

بعض المفردات المستخدمة

في الكتابات التدمرية

أسماء الشهور بالعربية	أسماء الشهور بالتدمرية	منقولة بالحروف واللاتينية
كانون الثاني	طبت	TBT
شباط	شبط	SBT
آذار	ادر	'DR
نيسان	نيسن	NYSN
أيار	اير	YR
حزيران	سيون	SYWN
تموز	قنين	QNYN
آب	اب	'B
ايلول	الول	'LWL
تشرين الأول	تشرى	TSRY
تشرين الثاني	كنون	KNWN
كانون ا ول	كسلول	KSLWL